

عبد البر بن عبد الله

التربية الإسلامية للفرد المسلم

الجزء الثاني

الكتب بين النفع والضرر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وآله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين :

كانت الكتب في القديم قليلة التداول ، وكان التأثير بالدروس أكثر قيمة وفعالية . فكان يقال (حضرت درس فلان) أو أنا من تلاميذ فلان ... واليوم صارت الكتب والمكتبات والمصورات والمطبوعات كثيرة الانتشار، عظيمة التأثير بالخير والشر على السواء ... فهناك كتب طبعت وتداولها الناس ونفع الله بها نفعا عظيما ... وهناك كتب طبعت وتداولها الناس وأساءت إلى الناس اساءة بالغة ... والكتاب من فكر صاحبه ... (إلا أن يكون حيا من الله عز وجل) وعندما زالت الوحدة الإسلامية، زالت معها حكومة الفكر الإسلامي ... وصار من حق كل خبيث وماكر وكافر، أن يكتب وأن ينشر ... ولما أسست الجامعات في أنحاء من العالم قبل قرن من الزمان تقريبا ؛ تولى غير المسلمين تدريس التاريخ الإسلامي بل تدريس علوم الدين ؛ من تفسير وفقه وحديث ؛ ويذهب طلبة المعاهد الدينية المسلمين إلى أوروبا وأمريكا بل وإلى روسيا ، يلتمسون من هناك الدرجات العليا في الحديث الشريف ، أو في علوم التفسير ... وهذا خطأ بالغ ... ساعدت عليه الحكومات التي لا تعترف إلا بتلك الشهادات ؛ أو دفع إليها احتياج الناس إلى تدريس اللغة الأجنبية ؛ لهذا المتخرج من الجامعة . ليصبح إنساناً له صفة عالمية ... والجامعات الكبرى في كثير من البلاد لا تحترم إلا الذين تخرجوا من بلادها ؛ وأخذوها بفكرها ... ثم أصبح هناك ضغط مالي أو اداري على العلم الديني بالذات ؛ والذي يدرس هناك هو من فكر المستشرقين والكافرين ؛ والطالب حتى لو كان يختلف مع استاذة في الفكرة ، إلا أنه محتاج لرضاه ، حتى يحصل على الدرجة لأن للاستاذ سلطاناً غير

محدود... فلا يستطيع الطالب أن يحيد عن ذلك الخط الأعوج، ويصبح محطة من محطات الشر، لا تلد إلا الشر، ولا ترتبط إلا بأهله، ثم أن وسائل الرقابة في معظم الدول الإسلامية، لا تهتم بمراقبة الفكر الديني المنحرف — بينما هي في نفس الوقت تعنى بمراقبة الفكر السياسي الذي لا يرضي الحكام، فتجيز الكتب الفاسدة والماجنة، وتسمح بتداولها بتصريح منها، ويزداد الباطل قوة بهذا الإذن، بينما كان ينبغي أن تكون رقابة المطبوعات في البلاد الإسلامية مقيدة بأحكام الشريعة، وأن يكون الرقباء من الفقهاء، ولذلك لا يجوز الاعتماد كلياً على رأي الدولة في هذا المجال / لأنها تعرف هذا الأمر... وأحياناً تتظاهر بأنها دولة الحرية / فتأذن للكتب التي تحارب الإسلام وتهجم عليه... فقوة النشر، وضياع المراقبة الجادة، أديا إلى زيادة أضرار الكتب، وإلى انكماش الفكر الصالح، لأن الصالحين أحياناً أرزاقهم محدودة، ومكانتهم محدودة في المجتمع، فلا يقدر الواحد منهم أن ينشر كتبه بنفس قدرة أولئك الذين سيطروا على المال والجاه والمناصب في الحياة، خصوصاً إذا كانت هناك تيارات أخرى أجنبية، تؤيد هؤلاء وتمدهم بالمال العريض...

وبعد هذه المقدمة نريد أن نعرف أين الكتاب الفاسد وكيف نحكم عليه حتى نتفاداه، ونعرف ما هو الكتاب الصالح، حتى نقنتيه ونتداوله.

يمكن معرفة الكتاب الفاسد من تاريخ صاحبه، واحتضان الفاسدين له، وترويجهم لهذا الكتاب، ومن معارضته للأصول المعتمدة في الكتاب والسنة... فكتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هما المنهاج الثابت الأصيل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يقاس عليه كل شيء في نظر المسلمين.

واهمال هذين المصدرين، أو اهمال المصدر الوحيد عند المسلمين، وهو القرآن الكريم، والسنة الشارحة له، هذا الاهمال قد أدى إلى مصائب شتى، وإلى ضياع الحق جملة وتفصيلاً، وليكن معلوما لدى المثقف المتعلم أن الكتاب الكريم، فيه أصول لا يجوز أن تتعدى: يسمونها (أمور توقيفية) يقف كل إنسان

عندها، سواء أعقلها أم لم يعقلها، وسواء أفهمها أو لم يفهمها، فإن لم يستطع أن يفهمها فعليه أن يتهم عقله، وأن يصدق كتاب الله، لأن ديننا أساسه الإيمان بالغيب الوارد عن الله ورسوله، وإنما العقل مرشد ودليل، يأتي في الدرجة الثانية، فإن تعارض العقل والنقل فنحن نتهم عقولنا ونقول (آمنا به كل من عند ربنا...) هذه واحدة.

والثانية: أن هذا الكتاب الكريم، يسمح بالتأويل والاجتهاد في فرعات الدين لا في أساسياته، فهو ثابت في أصوله متطور في فروعه، فمن أراد أن يتكرر أو يخترع أو يعمر الدنيا، أو يستنبط أحكاما تناسب الزمن، فعنده إذن وسعة، ومجال واسع، بشرط أن لا يصطدم بأصل من الأصول المقررة في دين الله، وهي التي تُعرف بحدود الله. قال تعالى (تلك حدود الله فلا تعتدوها).

فمن قال إن الإسلام جامد، فهذا صحيح، لأنه جامد في أصوله، ومن قال إن الإسلام متطور فهذا صحيح — أيضاً — لأنه متطور في فروعه، والذي يستطيع أن يتبين الأصول من الفروع، وأن يعرف حدود الاجتهاد، هم فقهاء هذه الأمة، لقول الله تبارك وتعالى (ولورده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

وليس كل إنسان يصلح أن يتصدى لهذه المهمة، فأهل العلم معروفون بسمتهم وسلوكهم، وبعلمهم وبجهادهم وبتاريخهم.

يمكن معرفة الكتاب الفاسد كما قلنا، إذا عرفنا تاريخ صاحبه، وإذا أحسننا أن فيه معارضة للأصول المعتمدة عند المسلمين.

أما الكتاب الصالح فنحن نعرفه من تاريخ صاحبه، ومؤلفاته الأخرى، ومن سلوكه ومن استمداده من الأصول العلمية المعروفة عند المسلمين واحترامها، ودوران المؤلف حول هذه الأصول.

وقد يقول قائل: «كيف تكون أوامر الإسلام ونواهيه محدودة في كتاب

واحد بينما العلم واسع جدا، فكيف يتسنى لهذا المجلد الواحد (وهو المصحف الكريم) أن يحيط بكل علوم الدنيا؟

فنقول له أن أصول الإسلام والقواعد والمعارف التي قررها القرآن الكريم، إنما هي من عند العزيز العليم، الذي خلق السموات والأرض، ويمكن أن يستنبط منها كل خير، ويمكن أن يهتدي المؤمن على ضوئها، وقد أمر القرآن الكريم أن نضرب في الأرض وأن ننظر فيما خلق الله من شيء، «قل انظروا ماذا في السموات والأرض». فأمر الله بالنظر والفكر والبحث، ولم يحجر على شيء من العلم (كما فعلت الديانات الأخرى)، ولم يقرر أي أصل ولا أية حقيقة معارضة للأصول العلمية الثابتة... هناك فرق بين النظريات التي لا زالت مهتزة ولم تثبت، كنظرية دارون وفرويد وغيرهما، وبين الحقائق العلمية التي اثبتت التجربة صحتها، فالأصول العلمية لا تتعارض مع القرآن الكريم أصلاً، ولا مع السنة المطهرة، لأن الذي أوحى بهما هو الذي خلق هذه المسائل والقواعد والمواد، ومعلوم أن اختراع البخار مثلاً قام به أحد المفسرين في الأندلس، عندما قرأ قول الله تعالى: (ولقد صرفناه بينهم ليدكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا). فظل يصرف الماء حتى اكتشف قوة البخار... وحتى اختراع الطائرات فقد أخذ من القرآن الكريم أيضاً، وأن كثيراً من أصول العلم التي استنار بها المسلمون، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تسبح في ظلام دامس وجهل مطبق، كل ذلك كان ببركة القرآن.

وأن علماء الإسلام كان لهم الفضل على البشرية في حضارتها ونهضتها، وأما كان هذا التحول الأخير الذي تراجع فيه الفكر الإسلامي، فهو بسبب غلبة الأعداء عسكرياً على أرض الإسلام، مما أدى إلى خمول عام لدى المفكرين المسلمين ولكن التاريخ قد أثبت، أنه في فترة ازدهار الإسلام قد ازدهر العلم بجميع فروعه.

ويمكن معرفة الكتاب الصالح من الفاسد من دار النشر التي تولت نشره، إن في الدنيا جهات مالية وفنية، تتولى نشر الكتب وطبعها وتوزيعها في العالم، وهذه

الادارات والمؤسسات والشركات، تسمى (دور النشر) أي دور الطباعة والتنسيق والتوزيع في العالم، وهذه الدور لها ألوان معينة، فتستطيع أن تعرف من دار النشر، نسب الكتاب ونسب صاحبه وهذه قاعدة لا يشذ عنها إلا النادر...

إن كلمة **الطلّائع**، هي الترجمة العربية لكلمة (البرافدا) الروسية. فدار الطليعة موجودة في كل عاصمة من عواصم العالم العربي، ولا تطبع في الغالب إلا الكتب التي تخدم فكراً معيناً، وهناك دور لا تطبع إلا كتب السلف: كالمكتبة السلفية والمكتب الإسلامي ودار الدعوة، وأشباهها. أما الدور التي يكتب عليها (إسلامية) أو ما في معناها، فإنها أخذت على عاتقها أن تنشر الكتب التي تخدم العقيدة الإسلامية، ولا تتعرض لكتاب يطعن في هذه العقيدة، أو يتهم في اتجاهه ولا في أفكاره، فدار النشر تهديك إلى حد كبير لمعرفة الطيب من الخبيث، وهناك دور نشر معينة معلوم أنها مرتبطة بجهات أجنبية/ لا تُخرج من الكتب إلا ما يخدم أغراضهم.

والأمر الآخر: أن هناك كتباً ألفت بقصد التجارة والرواج، نعرف بعض المفكرين المسلمين قد تجاوزوا الانصاف، أو كتموا الحق في كثير من المواقف، وذلك حتى تروج مؤلفاتهم في مناطق معينة من العالم: وليس هذا طبعاً من الأمانة العلمية، ولكنه شيء واقع للأسف الشديد، وبعض الناس يكتب لمجرد الكسب الأدبي، أو بدافع الخوف من سلطان معين، كما قال الله تعالى: (يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة). فهو حين يكتب يراقب جهة النفوذ، حتى لا يضار في نفسه أو في كتابه.

على أن السمت الغالب في تجار العلم، هو الرغبة في الكسب الهين السريع، فيبحث الكاتب عن الجهة أو الموضوع الذي يحقق هذا الهدف، ولوباع دينه في سبيل ذلك، إنك تستطيع أن تكشف هذا من خلال المخالفات الشرعية، والمجازفات التي تجدها في ثنايا الكتب. وأنت أيها القارئ الكريم إذا تناولت الكتاب، فلا تجعل عقلك تحت الكتاب، وإنما اجعل عقلك مع الكتاب أو فوقه،

وليس كل كتاب مطبوع يؤخذ به ، أو يوثق فيه .

وإن العامة تصدق كل ما هو مطبوع على ورق ، وهذا خطأ عظيم ، لأن الغشاء والخطأ والإجرام والكفر ، قد ملأ كل تلك الصحائف ، فليكن عقلك مع الكتاب في مستوى المؤلف ، أو فوق مستواه ، لتستطيع أن تحكم عليه ، فإن لم تكن قد بلغت هذه الدرجة من قوة الحكم والنظر ، فاسأل أهل الذكر ، واستشر خبيراً في تجميع مكتبتك ، تقول له إنني أريد أن أشتري كتاب كذا وكذا فبم تأمرني ؟ فيقول لك خذ كتاب كذا ودع كتاب كذا ، أو يقول لك هذا الكتاب جيد ومفيد ولكن احترس من صفحات كذا وكذا ، ففيها مخالفة لأصول العقيدة ، وقد عرفت شيخاً فاضلاً من رواد الحركة الإسلامية في هذا العصر (رحمه الله) ، كان لا يقرأ كتاباً حتى يكتب تلخيصاً على الصفحة الأولى عند العنوان ، ويقول مثلاً : (هذا الكتاب جيد وأوصي بقراءته ، وهويتناول كذا وكذا في صفحة كذا وكذا) . أو يقول : (هذا الكتاب رديء سيء الاتجاه ، ونحذر المسلمين منه) وبذلك أو يقرر رأياً يوفر على القارئ مهمة الوزن وقد يكون غير قادر على سلامة الوزن ، وهذه طريقة حسنة ، حبذا لو سار العلماء عليها ، فكأنك انتفعت بمن بذل ساعات طوال في قراءة الكتاب .

ولكن هذا الأمر أيضاً خطير ، فقد يكون صاحب التعليق صاحب هوى ، وقد يكون غير عالم ، فإن وثقت فيمن كتب التعليق فتوكل على الله ، وإلا فعليك أن تزن الأمر برأيك الخاص .

وهناك كتب تمهد للوظيفة ، أو نوى بها صاحبها أن يترقى إلى منصب معين ، فكتب شيئاً . لا ينتفع به / فقد قرأت كتاباً بعنوان (يا ولدي ... هذا عمك جمال) هذا الكتاب قد ساق أنواعاً من الباطل ... لم يقتنع بها صاحبها ، بدليل أنه قال ما يناقضها بعد موت هذا (العم) نعم لقد قال كلاماً يدل على أن صدره مشحون بالغیظ والحقد على ذلك الذي امتدحه ، وعرف ولده به ... إذن كان الكتاب لهدف معين ، فلما تحقق الهدف ناقض نفسه فيما قال .

وهناك كتب تخدم مبدأ العمالة لجهة معينة وتعمل على هدم مقومات

الأمة، ومعظمها صادر عن الجهات اليهودية أو المعادية لصالح الوطن، فبعض الكتب تطعن في أشياء يعترف بها أهل البلد ويتمسكون بها، ويرونها من شرفهم وعزهم ومفاخرهم، فتعمل تلك الكتب على هدمها، ثم تقيم على أنقاض ذلك، ما فيه تعظم لجهات أخرى أو لتاريخ فاسد، أو ظالم أو لكي تقرر شيئاً معيناً ز

عندما جاء نابليون بونابرت، بالحملة الفرنسية على مصر، كان معه ثلاثمائة من كبار العلماء، والباحثين والمستشرقين الفرنسيين، وأقاموا في مصر عامين أو ثلاثة أعوام، وكتبوا كتاباً يسمى «وصف مصر» في أكثر من ثلاثين مجلداً، من الحجم الكبير (ولقد رأيتها في دار الكتب المصرية). فكان كل مجلد بحجم متر مسطح، وهويؤكد على العادات المصرية، ويمجد الخرافات الشعبية، والانحرافات الضالة، ويضرب الأمثال بقلة عقل هؤلاء الناس وشطحاتهم وفضائحهم، التي يمتلك كل شعب قدراً منها، ولا ينبغي أن تدون ولا أن تكون قدوة للأجيال.

ثانياً: إنه يشيد بتاريخ الفراعنة، ويقدمهم للأمة على أنهم أصحاب مجد، وعدل وسؤدد وحضارة، وأنهم كانوا على أرقى درجة في عباداتهم، مع أنها شركية وثنية، ثم يحقر من شأن الإسلام والعلماء، ويقدم هذا النموذج للناس. وللأسف فقد تأثرت الكتب المدرسية، وتأثر الفكر المصري بهذا العمل أكبر تأثر، وكان ممهداً لقيام العصبية القومية، في الشرق الإسلامي.

فهذه الكتب عوامل هدم، نابعة من أهداف سياسية، لدولة تريد أن تحطم حضارة دولة أخرى، أو أن تستعلي عليها... فيجب الاحتراس من هذا النوع من الكتب، الذي يمسح أو يمسح وجه الحق، في أمة تريد أن تحيا وتزدهر.

وهناك كتب كتبت للمجد والشهرة، فعمد أصحابها إلى معارضة الحقائق العلمية الثابتة. وإلى تكذيب الحق، وإلى اتهام الكتب السماوية المعتمدة، حتى يرتقوا إلى سلالمة المجد كما يقولون: (خالف تعرف) ومن ذلك ما قاله من يسمى «عميد الأدب العربي» في أحد كتبه المتداولة قال: (إن مجرد ذكر إبراهيم وإسماعيل في التوراة والإنجيل والقرآن، لا يقنعني بأنهما كانا

موجودين في الحقيقة) فهو يكذب ثلاث كتب سماوية، ليرضي أعداء الله،
وكقوله في كتاب «مستقبل الثقافة»: «إذا أردنا أن نحيا حياة عزيزة كريمة،
فيجب أن نأخذ بالحضارة الغربية حلولها ومرها، وخيرها وشرها، وما يُحب منها
وما يكره، وما يذم منها وما يعاب».

وهذا كلام لا يقوله عميد المجانين فضلاً عن أن يصدر عن سموه (عميد
الأدب العربي) وللأسف فإن هذا الاتجاه الخبيث الفاسد، أثر في عقول
الكثيرين، ورأوا فيه منهجاً للحياة من بعد.

**وهناك كتب قصد منها خدمة دعوات ومبادئ معينة كأن يكون
المؤلف صاحب فكرة أو صاحب طريقة فهو يجمع الأدلة التي تؤيد هذا المبدأ،
وتعزز هذه الدعوة أو تلك الفكرة، التي أغرم بها أو تقمصها، وربما كان يدرّسها
للتلاميذ، ثم طرحها في كتب، لكي تخدم الهدف المعين.**

لقد قرأت لأحد رجال الطريقة العزمية... والذين يسمون أنفسهم (آل
العزائم)... كتاباً ينصب على تجويز بناء الأضرحة على قبور من سموهم أولياء،
وأن ذلك لا يعارض شيئاً من أحكام الإسلام. مع أن أحكام الإسلام في هذه
مقررة، وثابتة بالحديث الصحيح وبروح الإسلام المستمدة من كتاب الله عز
وجل، وتلك الأفكار مدخل إلى الشراكيات، ثم يجوز فيه قراءة سورة الكهف
بصوت مرتفع في المسجد يوم الجمعة، ومعلوم أن هذا العمل عارضه العلماء لأنه
يشوش على كل المصلين والعابدين، وقال أن القراءة بهذه الصورة أمر واجب،
ويتكلم عن إلحاق صيغ معينة بالأذان الشرعي، وأن هذا هو الأفضل، ويسمى
الأذان الشرعي (الأذان المقطوم) ويتكلم عن أن صلاة التراويح عبارة عن
ثلاث وعشرين ركعة، مع أن الثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزد
على ثماني ركعات في رمضان ولا في غيره.

ويدعو إلى بناء الأضرحة المرتفعة على المقابر ومعلوم أن هذا ممنوع بنصوص
السنة.

وإذا نظرنا إلى صلاتهم وكيف ينقرونها نقر الديك، نتعجب كيف يترك

الرجل منهج الاطمئنان في الصلاة، والكيفية الجميلة التي يختم بها جزءا في كل ليلة، ويعتمد إلى الخرافات التي نهانا الرسول صلى الله عليه وسلم عن مثلها، ومثل هذا كثير يعاد نشره كل عام، مع ما في ذلك من مصادمته لأصول الدين وشعائره... لكن هذه المؤلفات، أمكنها أن تجمع عليهم طوائف من الخلق، وأن ينال المؤلفون منها جاها أو مالا...

وهناك أيضاً كتب دعا فيها أصحابها إلى: اقتراحات شاذة، وأفكار خارجية، فمن ذلك ما كتبه حسين بن أحمد أمين، يقترح فيه انشاء برلمان، أعضاؤه من مسلمين وغير مسلمين، لكي يعيد النظر في الأحكام الشرعية جملة... مثل مسألة الربا والاختلاط والطلاق وكشف عورات المرأة، وبالجملة فهو يريد تعديل أحكام الدين وكل ما شرع الله من شرائع، بنظام جديد على طريقة بعض البرلمانات المعاصرة، التي لم تفلح في اعزاز أمة، ولا في استخراج رأي سديد.

ومن هذا النوع تلك الكتب التي ألفها القاديانيون. وهي نحلة حديثة، تدعو إلى إبطال الجهاد الإسلامي، وتقول أنه لا يجوز، بل إنه حدث في صدر الإسلام بسبب معين، وانقضى هذا السبب، وهذه الفرقة تمدها بريطانيا بالمال الكثير، لكي تبطل فكرة الجهاد عند المسلمين، ويعتبرون زعيمهم نبيا مرسلا، بعد محمد — صلى الله عليه وسلم.

ومثلها كتب البهائية: وكتب الباطنية، الذين يرون أن للإسلام ظاهراً (غير مهم) كالصوم والصلاة والحج والتوحيد، وأن هناك باطنا (وهو المهم) يتلقونه عن الله مباشرة دون حاجة إلى وحي أو نبي، وهذا عندهم هو الذي يجب أن يتبع، فمذهبهم يعتمد على المكاشفة، والرؤى والخواطر، والاندماج بذات الله عز وجل، ويعتقد غيرهم بالحلول والتناسخ، ويعتقدون بقيام نبي جديد، بعد نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم (هو عباس بهاء) ولهم مؤلفات عملت لخدمة تلك الدعوات، وكذلك كتب فلسفة التاريخ التي يقولون فيها أن التاريخ البشري كله، تسلسل وتطور لكي يمهّد لقيام الشيوعية العالمية، التي يجب أن تسود وتحكم، وعلى كل حال فعلى كل من يريد أن يؤسس مكتبة، أو أن يقرأ

كتاباً أن يستشير أهل الذكر، حتى يكون حكمه على الكتاب، وانتفاعه به، مبيناً على وزن صحيح، وليس على فكرة عشوائية، أو على أعجاب بورق أو تجليد.

إن المكتبة في البيت، ثروة من الثروات، وهي من العلم الذي ينتفع به، والذي يبقى ثوابه للإنسان بعد وفاته، فانظرياً أخي: أي شيء تتركه لأبنائك، فإن كان لا بد أن يبقى الكتاب في مكتبتك، فحذر الناس منه، ودلم في مواطن الخطر فيه، حتى تسلم في ذلك من المسؤولية أمام الله عز وجل.

المكتبة الصالحة: ومناسبة فكرة إنشاء المكتبات، فإن المكتبة الصالحة، هي التي تضم فروع العلم/ وليس فرعاً واحداً منه. إن علماء المكتبات، قسموا فروع المعرفة إلى عشرة أقسام رئيسية، وأعطوا كل قسم منها رقماً دولياً ثابتاً. فمثلاً... البحوث العامة (وهي تشمل أيضاً الصحف والتقارير) ورقمها (صفرين) ثم الفلسفة وعلم النفس والمنطق (ورقمها عشرة) ثم البحوث الدينية (وتشمل كل الديانات) (ورقمها عشرين) ثم الاجتماعيات وتشمل السياسة والقانون والتربية الوطنية (ورقمها ثلاثين) ثم اللغات (ورقمها أربعين) ثم الرياضيات والعلوم البحتة (ورقمها خمسين) ثم العلوم العلمية (ورقمها ستين) ثم الفنون الجميلة (وتشمل العمارة أيضاً ورقمها سبعين) ثم الآداب والتاريخ والجغرافيا (ورقمها ثمانين) ثم التراجم (ورقمها تسعين)...

وتعود هذه الأرقام فتشعب من جهة اليمين إلى أرقام عشرية، حسب فروع المعرفة من داخلها، وهكذا إلى مالا نهاية، وهذا التقسيم أصبح عالمياً، وهو مريح وعملي، في تنظيم المكتبات الخاصة أيضاً، فالذي يريد أن يستكمل مكتبته الخاصة، لا يجعلها ذات لون واحد، وإنما يجلب لها من الكتب والتقارير والمصورات والخرائط، ما يغطي مفاهيم الحياة، بحيث تصبح نافعة فعلاً.

هذا ويحسن أن تقسم المكتبة الخاصة إلى ما يلي:

أ — كتب أساسية تحفظ للحاجة، ولا تعار إلا بمستند على المستعير، يحدد فيه أجل الاعادة.

ب - كتب للإهداء والتوزيع ، للأشخاص أو للمكتبات الزميلة ، ابتغاء خدمة العلم والدين .

ج - كتب يمكن أن تباع للراغبين ، إذا كانت مكررة وذات قيمة .

صيانة المكتبة: يحسن أن تحفظ الكتب في خزانات بواجهات زجاجية ، والرفوف الحديدية أفضل من الخشب (حتى لا تتسرب إليها الحشرات القارضة) وأن يتفقدوها صاحبها بين الحين والحين ، ويرشها بالمبيدات ، و يعدل وضع كل كتاب / بحيث يقف قائماً على جنبه القصير ، حتى لا يفسد تجليده ، ولا تتكسر أوراقه .

ثانياً: وأن يكتب اسم الكتاب على كعبه ، بحيث يسهل معرفة موضوعه بنظرة العجلان ... وحبذا لو تعلم الإنسان صنعة التجليد ، لصيانة الكتب ، وهي عملية سهلة ممتعة غير مكلفة ، أو يرسل الكتب المهمة ، للتجليد في دكان المجلد .

ثالثاً: أن يحافظ على الكتب من البلل ، والرطوبة والشمس والغبار ، وأن يعتبر المكتبة ثروة يحرص عليها ، حتى لو لم يتسع الوقت للاستفادة من كل ما فيها ، ولا بأس أن يخصص أحد رفوفها للأوراق والأقلام والصمغ والمواد الكيميائية ، ونحوها ، مما لا غنى عنه لصاحب المكتبة ، وأن تكون بمعزل عن عبث الصغار .

وإذا وجد كتاباً ضاراً تسرب إلى مكتبته ، فيجب أن يسارع إلى حرقه ، أو التحذير منه على غلافه ، وإلا فإنه يبوء بأثم من يتسبب الكتاب في اضلاله .

نسأل الله تعالى أن ينفعنا بالعلم النافع ، وأن يقينا شرور الأيام ، والحمد لله رب العالمين .

الجماعات المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين — وبعد:

فهذا الشريط عنوانه «الجمعيات والجماعات الإسلامية المعاصرة» وقد قسمناه إلى جمعيات الخدمات والتربية، وجماعات العبادة والسلوك، وجماعات الدعوة والحركة. ونقصد الجمعيات الإسلامية ذات الهدف الجيد، وأما ما عدا ذلك من المبادئ والأفكار والتجمعات/ فليس من موضوع هذا البحث.

نبدأ الحديث في جمعيات الخدمات والتربية فمن هذا النوع الجماعات التي تقوم بإنشاء المدارس الإسلامية — وتعهدها — وهي ترى أن التربية والتعليم، هما الأساس الذي يقوم عليه صلاح الفرد، ومثالها: جمعيات الشباب المسلمين، وقد قامت جمعيات أخرى على إنشاء المدارس والمعاهد الفنية، وهي تحاول أن تصبغ البرامج الرسمية والحرّة، بصبغة إسلامية عن طريق توفير البرامج الإسلامية في معاهدها، ومثل إيجاد الزبي الشرعي للسيدات المعلمات وإقامة الصلاة الجامعة في داخل المدرسة، والقيام بالرحلات ذات الأهداف الكريمة، كل هؤلاء يرجون ثواب الله، من خلال هذا النشاط.

وجميع المؤسسات التربوية والتعليمية تجاهد لتخريج المسلم الصالح، أو تجاهد لإغناء شبابنا عن المدارس المشبوهة النشاط، ومن هذا القبيل جمعيات المحافظة على القرآن الكريم، ومدارس الأقصى، ومؤسسة الإيمان التعليمية، والطلّائع الإسلامية، ومؤسسة المنارات، والإمارات، ونحوها، وكلها تدخل في نظام جمعيات الخدمات والتربية.

وهناك أيضاً جماعات تعنى بإقامة الخدمات الدينية، أو المراكز الإسلامية والمساجد، سواء في البلاد الإسلامية أو التي بها أقليات إسلامية، فهم يرون أن حسن العقيدة وحسن العبادة، هو أساس صلاح النفس، وأن جماهير المسلمين في

حاجة إلى أماكن يتجمعون فيها، و يقيمون نشاطهم من داخلها، فكثير من المسلمين في البلاد الأجنبية، يضطرون لاستئجار الكنائس والأندية، وأندية الجامعات لهذا الغرض.

و يدخل في هذا العمل مساعدة الشباب والشابات على الزواج، إنشاء الملاجئ لايواء العجزة والمعوقين والمشردين.

و يندمج تحت جمعيات الخدمات والتربية جماعات تيسير الحج، وهي التي توفر أداء الفريضة لأصحاب الدخل المتوسط، وذلك عن طريق المشاركات الجماعية، وقد يحصلون على تيسيرات من الجهات الحكومية، وكان ذلك يشق كثيراً على الحاج المنفرد.

ومن هذا القبيل أيضاً جماعات البر والخدمة الاجتماعية التي تجمع الأموال والزكوات من الأغنياء، ثم توزعها على المحتاجين، وتطعم الصائمين في رمضان، وتكسو اليتامى والفقراء.

ومن هذا القبيل كذلك الجمعيات التعاونية، التي توفر السلع الاستهلاكية من طعان وشراب وملابس للناس بأسعار معقولة، وكذلك جمعيات دفن الموتى، فقد يشق ذلك على الناس في كثير من المدن.

وننتقل إلى نوع آخر من الجمعيات الإسلامية وهي التي تعنى بالأندية الرياضية والترويحية، ذات الروح الإسلامية، وقد قامت لكي تجذب الشباب عن طريق الرياضة، ثم يدعون إلى إقامة الصلاة، والاستماع إلى الإرشاد الديني، ومثلها جمعيات الشبان المسلمين، لأنها بدأت فكرتها في الحقيقة بنشاط رياضي، لجذب الشباب إليها، وكان الدافع على إنشائها، أن بعض المتدينين لاحظوا أن أبناءهم يذهبون إلى جمعيات الشباب المسيحية، و يباشرون فيها نشاطاً رياضياً، وأنواعاً من التسلية/ ولكنهم عرفوا أن الشبان هناك يتعرضون لظروف لا تتفق مع المبادئ الإسلامية، كمسألة الاختلاط، وسماع دروس تبشيرية، فاتفقوا على إنشاء دار الشباب المسلمين، لتحقيق رغبات الشباب دون تعريضهم لما يخالف طرائق المسلمين، ثم تعددت وانتشرت هذه الأندية على مستوى

القطر المصري، ثم تعددت في أقطار أخرى كذلك .

وفيها تقام المحاضرات والمناظرات، ويُسمع الأذان، وتقام الصلاة، وقد تنشأ صحبة سالحة، ويمكن التعرف على بعض العلماء والدعاة في أجوائها .

ومن هذا القبيل أيضاً أندية الطفل المسلم، والأسرة المسلمة، التي تعنى برعاية أطفال المسلمين، وتحفيظهم القرآن الكريم، مع توجيه الأمهات والأخوات لأساليب التربية، ثم توفر لهم المطبوعات والأشرطة العلمية، ووسائل التسلية المختلفة في تلك الأندية .

ويدخل تحت هذا أيضاً: النشاطات النسائية، مثل جمعية الأخت المسلمة، والأخوات المسلمات، أو السيدات المسلمات، فالنساء شقائق الرجال، وهن نصف المجتمع وهناك يتم توفير ما يحتاجن إليه من فقه وتدريب . وربما تقام معارض للأزياء الشرعية للنساء، أو الرخيصة الثمن للفقراء .

وهناك نوع آخر من الجماعات المعاصرة، وهي جماعات العبادة والسلوك، هذه الجماعات ترى أن عبادة الله تبارك وتعالى، والانطباع سلوكياً على منهج الإسلام، من خير ما توقف عليه الجهود .

ومن هذا النوع جماعات الطرق الصوفية، ففيها فائدة، وإن كان للعلماء كلام في التصوف، إلا أن كثيراً من المسؤولين عن الطرق الصوفية اليوم، يقوم بتحسين مستوى العبادة ومستوى السلوك عند الأفراد، ولا يعنى بالفلسفات القديمة ولا بالغلو الذي أخذ على القدماء، وقد هدى الله على أيديهم خلقاً كثيراً .

ومن هذا النوع أيضاً الجمعيات السلفية، وهم مجموعات من الشباب والرجال، يحاولون الانضباط على منهج السلف الصالح، وهم رجال القرون الثلاثة الأولى، ومن كانوا على طريقة النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين والتابعين لهم بإحسان، فهم يحاولون تقليد هذا الجيل المبارك، لقوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . ولقوله صلى الله عليه وسلم «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليهم بالنواجذ» . وتراهم يهتمون

بقراءة الكتب الدينية وطبعها، ثم إنهم يعنون بتثبيت الأخوة فيما بينهم، وأداء الصلوات المطمئنة في خلواتهم ومساجدهم، والعناية بتحقيق الحديث الشريف، ونفي البدع عن دين الله.

ومثلهم جماعة أهل الحديث بالهند وباكستان.

وقد ينسب لهذه الجماعات أنها تميل للتقوقع والانعزال، واتخاذ موقف معين من أئمة الفقه الإسلامي، ولكن ذلك مبلغ اجتهادهم، ونظن بهم الخير، كذلك الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة، أنشأها في مصر الشيخ محمود خطاب السبكي رحمه الله، ولقد قامت هذه الجمعية أساساً على فكرة إتقان العبادة، والسلوك الشرعي، فصلا تهم طويلة مطمئنة، وهم يؤلفون من الكتب ما يوافق أصول الشريعة، ولهم حلقات للدرس، ولقراءة القرآن، ولهم زي متميز غالباً، ولهم من الصوفية موقف معروف، وهم يحاربون البدع بكل أشكالها، ويرون أن التمسك بالأمر الشرعي أولى.

وهم يعنون كذلك بإنشاء المساجد والمقابر الشرعية، والجمعيات التعاونية، وسائر الخدمات الاجتماعية، ولها فروع تعد بالألوف، والجمعية الشرعية لها تأثير طيب، وقد تربى في أجوائها خلق كثير، فعلمتهم الأحكام الشرعية، وخلصتهم من البدع التي كانت منتشرة في البلاد.

إلا أنهم حصروا أنفسهم في هذه الزاوية، ولا يتعرضون للشئون العامة المتصلة بالحكام، بل نهوا على ذلك في كتبهم، ولو جعلوه أسلوباً غير مكتوب لكان أولى، ثم انقسمت الجمعية الشرعية إلى قسمين أو أكثر، فأصبح منهم من لا يتقيد بذلك القيد.

كذلك جماعة أنصار السنة المحمدية وكأنهم صورة من أتباع المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويعملون بدعوته والتي سماها الناس «الوهابية» فهم كالجمعية الشرعية يهتمون بتصحيح عقيدة المسلم، وتخليصها من الشراكيات وهم أيضاً يعترضون على الطرق الصوفية.

فجماعة أنصار السنة المحمدية لهم سمت حسن ، والتزامهم بالدين جيد ، ولكنهم يحصرون أنفسهم في هذا الجانب من الدين ، ولهم بعض المشروعات النافعة ، والكتب الجيدة .

ونتكلم الآن عن جماعات الدعوة والحركة : وهي التي تهتم بالدعوة إلى الله خارج دورها ، فمنها جماعات التبليغ وفروعها ، وهذه الجماعات نشأت أساساً في الهند ، في قرية « بنجلا نظام الدين » قبل ثمانين عاماً ، وعليها طابع الهند . بمعنى أنها تحاذر أن تتدخل في أي شيء من شؤون الدولة إذ لا أمل لمسلمي الهند في أن يصلحوا حكماً هندوسياً ، أو أن يصلوا إليه ، فعكفوا على تربية أنفسهم ومن معهم على الإسلام ، وهم يهتمون بتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم ، وبسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهم محاضرات وآداب في الذكر والدعاء ، ولهم أساليب معينة في نشر الدعوة ، فهم يخرجون لتبليغ الناس بالإسلام ، وإثارة عواطفهم نحو الدين ، يخرجون جماعات في رحلات يسمونها « الخروج » ويحمل كل منهم متاعه ويرحل في أرض الله ، أربعة أيام ، أو أربعة أسابيع ، أو أربعة أشهر ، داعياً إلى الله تعالى ، وهم قوم يتعففون فلا يأخذون شيئاً من غيرهم ، ولكن دائرتهم محدودة في الغالب ، فهم يقومون بالدعوة في المساجد ، ويقيمون فيها أثناء الخروج ، ويتحدثون مع من يلقيه في الطرقات ، ولا ينزلون ضيوفاً على أحد من غير جماعتهم ، وقد تزايد عددهم في السنوات الأخيرة وقد يقام لهم مؤتمر فيحضره أكثر من مليون إنسان ، وكثير من المسلمين يحبون هذا النشاط المحايد .

ونظراً لحرصهم الشديد على الابتعاد عن الشؤون السياسية ، أو نقد الأوضاع ، فقد أصبح الحكام لا يعارضونهم ، لأنهم لا يخوضون في شيء من الأمور العامة .

الجماعات الإسلامية في الجامعات نقول : إن هذا النوع من الجماعات ، قد انتشر في أنحاء العالم ، وكان أساسه ما يسمى « بالنشاط المدرسي » فالجامعات عادة تنظم الطلبة في مجموعات تتناسب مع ميولهم ، وتحاول أن تدربهم على أنواع من السلوك الاجتماعي في أجوائها ، فهناك جماعة الموسيقى ،

وجماعة التمثيل والسينما، وجماعة الخطابة وجماعات الرحلات، والجمعية التاريخية، والجغرافية/ ومنها الجماعة الدينية.

فمن خلال هذا النشاط المسموح به في الجامعة، أمكن للطلاب المتدينين، أن يزاولوا نشاطهم، وقد زاد الاقبال عليها، كرد فعل لما يوجد في المجتمع من مخالفات، وقد تزايد نشاطهم حتى أصبحوا في نظر بعض الحكومات شيئاً غير مرغوب فيه، ولكن من الصعب إيقافه..

هذه الجماعات يرأسها الشبان من أعضائها بالتناوب. فليس لها شيخ معروف، ولا تنظيم كتنظيم الجماعات العادية، بما يمثله من رئاسة أو مشيخة، أو مقر معلوم، إنما هم مجموعات من التلاميذ يتبادلون العمل حسب ظروف الدراسة، إلا أنهم يحاولون الالتزام والانضباط على أمر الله عز وجل.

ويتميزون بكرهية الحضارات الوافدة، لأنها ارتبطت في أذهنهم بالاستعمار والاذلال للشعوب، ويهتمون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون فيما بينهم، هذه الجمعيات أحدثت تياراً إسلامياً في الطلبة والطالبات، وقد تعرضت في بعض البلاد لاضطهادات شديدة، واعتقالات ومحاكمات، ثم خرجوا منها أقوى إيماناً وإصراراً على مواصلة كفاحهم في الجامعات، وفي غير الجامعات، ومنهم من وجه أهله إلى اتباع أوامر الدين، ومنهم من أثر تأثيراً حسناً في الخارج، عندما ابتعث إلى الدراسة في أمريكا وأوروبا وغيرها، وأنشأ هناك نشاطاً آخر— وأعدادهم تتزايد بتزايد الاقبال على الدراسات الجامعية.

ومن جماعات الدعوة أيضاً جماعة «شباب محمد» وكانت أصلاً من الإخوان المسلمين ثم انشقت عليهم، وصار لهم استقلالهم، ولهم مجلة تنطق بلسانهم، وأصبح نشاطهم متعلقاً في أكثر الأحوال بالمرأة وأحوالها، وإصدار بعض الكتب والنشرات، وعددهم ليس بالكثير، وبالتالي فإن تأثيرهم في الحياة الاجتماعية محدود.

وتوجد جماعات إسلامية في العالم غير العربي، ولقد نشأت بنفس الظروف

والملايسات التي أوحى بإنشاء الجماعات في بلاد العرب، فمن ذلك في لبنان توجد جماعة «عباد الرحمن» والجماعة الإسلامية، التي هي أقرب إلى فكر الإخوان المسلمين / والجماعة الإسلامية في الهند وهي مؤسسة كبيرة تبلغ فروعها ثلاثة آلاف، والجماعة الإسلامية في باكستان، وتبلغ فروعها مثل ذلك، والمجاهدون الأفغان، تضم أكثرهم جماعات إسلامية، تسمى «الحزب الإسلامي» والجمعية الإسلامية وغيرها، وكذلك حزب «ماشومي» في أندونيسيا، وكلها تعمل للدعوة إلى الله، من خلال ظروفهم المحلية، ويغلب على نشاطهم تعليم اللغة العربية لأبنائهم، لأنها لغة الفقه والقرآن والدراسات، وأحياناً نجد هناك في بلادهم من يتكلمون اللغة العربية كأبنائهم، ويحفظون القرآن كاملاً.

وهؤلاء الناس يواجهون أوضاعاً صعبة للغاية، من التعصب الإقليمي، والاضطهادات الدينية المضادة، فجماعاتهم غير مصرح لها بالنشاط غالباً، لأن التوجه العالمي لمحاربة الإسلام حقيقة عامة، وهو عمل دولي، يتناول الأماكن كلها بنفس النظام، ونفس الأسلوب، فطرق التعذيب والاضطهاد، التي تمارس في بلد ما، تمارس بنفس الطريقة في البلاد الأخرى، كأن الموجه والمدرّب واحد...

وأما في خارج البلاد الإسلامية، فربما تتوفر للناس حريات أكثر، ففي الولايات المتحدة وأوروبا يكاد النشاط الديني للمسلمين وغيرهم يسلم من تدخلات الدولة، وذلك بسبب القوانين التي تكفل الحرية للجميع، أو بسبب عدم الخوف من أن يؤدي ذلك إلى تغيير نظم الحكم فيها...

وننتقل الآن للكلام عن جماعة الإخوان المسلمين التي أسسها الشيخ حسن البنا رحمه الله قبل حوالي ٦٠ عاماً بمصر/ وقد انتشرت في أنحاء العالم / وفكر الإخوان المسلمين قائم على أساسين:

الأساس الأول: أن مجموعة من الناس تتأخى على الله، وعلى المحبة والتعاون في ظل طاعة الله تعالى، فمن أطاع الله فهو منهم، ومن عصى الله فليس

منهم ، مهما ضحى وبذل ، وتمثل ذلك كلمة « الاخوان » .

الأمر الثاني : هو الارتباط بالمنهاج التي ارتضته هذه الجماعة ، وهو الإسلام الكامل الشامل ، وهو الذي تمثله كلمة « المسلمون » .

والاخوان يقولون أنها جماعة علمية ، وجماعة جهادية وعبادية / واقتصادية وروحانية / وسياسية / فهي تتناول كل شئون الحياة التي جاء بها الإسلام / لقوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » وقوله تعالى « يؤمنون بالكتاب كله » .

فهم ينشغلون إلى جانب ما تقدم بالتربية والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكل ما أمر به الإسلام ، وقد أظهروا استعدادهم للصبر على ما يصيبهم في هذا السبيل ، والحقيقة انها لقيت معارضة شديدة ، واتهمت بتغيير أهدافها ، وهذا خطأ لأنهم قد حددوا أهدافهم من أول يوم ، وهتفوا قائلين « الله غايتنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا ، والجهاد سبيلنا » وقضوا عدة سنوات يمارسون شئون التربية والعبادة إلى سنة ١٩٣٦ ، عندما ساءت أعمال الانجليز في فلسطين فأصدر الاخوان كتاب « النار والدمار في فلسطين » وفضحوا أعمال الانجليز بالصور والأرقام ، ودعوا الناس إلى أن يقتنوا ويدعوا على الانجليز في كل صلاة ، فأزعجهم هذا كثيرا ، وقالوا إن هذه الجمعية ليست جمعية دينية ، وإنما هي جمعية سياسية ، وإنها تتدخل في شئون الحكام ، وأن التدين يجب أن يقتصر على العبادة فقط ، ولا يتدخل المتدينون فيما لا يعينهم ...

فوقع الخلاف بين الحكومات الخاضعة لهم حينذاك ، وبين الاخوان ، ولم تأت حكومة تطبيق استمرار نشاط الاخوان ، أو توافقهم على شيء مما يدعون الناس إليه ، كما أنهم لم يسلموا من الاضطهاد لأن الأمر في نظر كل حكومة ، كان مرتبطاً بوجودها هي من ناحية ، وبالمعونات التي تأتيها من دول تكره الإسلام من ناحية أخرى .

وقد رشحوا بعض أعضائهم لدخول البرلمان ، محاولين عن هذا الطريق أن يصلحوا حال الأمة ، فلم يسمح لهم بذلك ، وهم يقولون إنهم لا يطلبون الحكم

لذاته، وإنما يريدون من كل حاكم أن يقيد نفسه بأوامر الإسلام، فلا يشق على الأمة بشيء...

فجماعة الإخوان تتميز عن باقي الجماعات بهذا الشمول، والفهم المتكامل لما جاء به الإسلام/ وكان مرشدها يهتف مع جماعته «الموت في سبيل الله اسمى أمانينا»، ولعل الله علم منه الصدق فكان هو أول من لقي الموت من أعضاء الجماعة، مستشهداً في سبيل الله سنة ١٩٤٩.

ولكن هذه الدعوة صار لها انتشار واسع في انحاء العالم، فقد تأثرت بها جماعات عديدة، وأصبحت مبادئها فكراً طائراً يصعب حصاره، وأعضاؤها يعرفون بحسن السلوك والاستقامة.

وبعد: فهذا تلخيص لأحوال الجماعات الإسلامية في العصر الحاضر، لعله يلقي ضوءاً على كل منها باختصار، ويستطيع السامع والقارئ أن يميز بينها، نرجوا أن تكون جميعها سالكة طريق الحق والصواب، ولكل مجتهد نصيب وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الوحدة الفكرية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه .
إن علة العلل في مشاكل العالم الإسلامي ، وسبب ضعفه ، هو الاختلاف على فهم هذا الإسلام علمياً ... أو الاختلاف على تطبيقه عملياً .
فقد نشأت فرق ومذاهب وجماعات شتى ، اتخذت كل جماعة طريقة معينة أسستها على طريقته في فهم الإسلام ، واتخذت كل منها سبيلاً معيناً ، واختلف بعضها مع البعض الآخر ، خلافاً حاداً أي إلى خصومات شديدة ، بل أدى إلى اقتتال وحروب عبر التاريخ ، مما مكن لأعدائهم أن ينفذوا من خلاهم إلى أطماعهم الخبيثة ، فإن لم يقطعوا بعض أراضيهم بالقوة — اقتطعوا ما بينهم من أخوة بالمكر والحيلة ، والله تبارك وتعالى يقول « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وقد نص القرآن الكريم علينا قصة بني إسرائيل ، واختلافهم في الكتاب ، واختلافهم على أنبيائهم ، وأنهم حرفوا كتاب الله ، كما قال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » .

و يرى كثير من المصلحين أن أساس قوة المسلمين ، تكمن في اتحادهم ، ويبدأ ذلك من قيام وحدة فكرية بينهم ، يتعرفون على ضوئها أخطاءهم ، حتى يصحح كل مخطيء مسيرته ، وينضم إلى قافلة العاملين ، ونحن نحب أن نتكلم في هذه المحاضرة عن موضوعات معينة ... منها :

- ١ — أنواع الاختلاف ٢ — ودوافعه ٣ — وآثاره النفسية والعملية ٤ —
- وواجب المسلم في قضية الفهم والسلوك ٥ — وأهمية جهود الآخرين
- وترشيد الفكر الإسلامي .

ومعلوم أن تحقيق الوحدة الفكرية أمر عسير، والوحدة الثقافية أمر ممكن،
ووحدة العقيدة أمر واجب.

والاختلاف أنواع بعضه يقع بين فرد وآخر، قد يكون من أقربائه أو
أصدقائه، ثم لم يلبث أن يتقاطعا ويتدابرا، وبحسب كل واحد منهما أنه يتقرب
إلى الله بهذا الموقف، وبعض الاختلاف يقع بين الجماعات الإسلامية، وربما
تكون آثاره عظيمة، في تمزيق وحدة المسلمين ...

**أما دوافع الاختلاف ودواعيه فهي كثيرة، منها ما يرجع إلى أسباب
علمية، مثل قصور العلم، ومثل الإفتتان بالتقليد، ومثل التأثير بالثقافات
المشوبة.**

**ومنها الاختلاف في السلوك العبادي، مثل طريقة الصلاة أو الزكاة
ونحوها، ومن ذلك أيضاً السلوك الاعتيادي كطريقة كل إنسان في ملابسه أو
ملابس زوجته، أو في تعامله مع الناس، ومدى حرصه على الأخذ بالسنة المطهرة
إلى غير ذلك ...**

**ومن دواعي الاختلاف أيضاً: الأطماع الدنيوية، مثل الصراعات التي
تنشأ على السلطة، فتكون في حقيقتها ذاتية أنانية ثم تنسب إلى الدين، وكذلك
الصراع على الماديات والمغانم، فقد يكون الطمع هو الأساس الكامن في النفس،
ثم يكون تبادل الاتهامات الشرعية هو الشيء الظاهر..**

**ومن دواعي الاختلاف كذلك، تصديق الأخبار التي تنقصها البينات،
وتحريك النعرات القومية والعصبية، ثم الحسد والبغضاء، وفي أكثر الحالات
التي ذكرناها يجد المغرضون وأعداء الإسلام مرتعاً خصيباً لاشعال نار الفتن،
مستترين وراء الحرص على الحق، أو العلم والفقه، أو على المصلحة العامة.**

الآثار النفسية والعملية: ويحدث النفور النفسي بين كل شخصين مختلفين
في الرأي، فإن لم يقع التفاهم والتقارب واصلاح ذات البين، في فترة النفور
هذه، تتزايد الجفوة بالتدريج، حتى تنقلب إلى كراهية، ويستبيح كل منهما أن
يتهم الآخر، بالجهل ثم بالانحراف أو بالكفر؛ وهنا تقع الطامة، التي سماها

النبي صلى الله عليه وسلم «بالحالقة»... ومتى وصل الأمر إلى هذا الحد، فتجيب بعده المقاطعة، والمخاصمة، ثم المناجزة، وربما تجر إلى الحرب وهذا هو منتهى ما يؤمله الأعداء.

موقف المسلم في قضية فهم الإسلام:

أ — هناك أصول للدين وفروع، وأصول الدين ثابتة ومعروفة، كقولنا أن الله واحد لا شريك له، وأن نؤمن به وبأسمائه وبصفاته، وكقولنا أن محمداً عبده ورسوله، وهو المؤمن الصادق، الذي جاء بالقرآن من عند الله. والقرآن كله صحيح واجب الاتباع، وجاء بالحديث بالإلهام من الله، والصحيح منه معروف، واجب الاتباع، وسنة النبي مطاعة محترمة، والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، هذه القضايا يسلم بها كل المسلمين، وقلما يجادلون في شيء منها، وانكار شيء منها عن اعتقاد خروج على تعاليم الإسلام، وفاعله خارج عن الملة...

وهناك فروع للدين، وهي التي تشمل المندوب والجائز والمكروه، ثم الأشياء المسكوت عنها، ومثلها التي استجدت بعد عصر النبوة، وهي ليست من أصول الدين، لأن تلك الأصول اكتملت تماماً، وعرفت في عهد النبي بقوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم».

ومما يلزم أن يعرفه كل مسلم، أن الأخوة في الله ومعها الحب في الله، فريضة من فرائض هذا الدين، وأصل من أصوله، ذلك لأن الدين لا يقوم إلا بالجماعة، والجماعة لا ترتبط إلا بالمحبة، والأخوة، فالذين يجادلون في الفروع، بحيث يهدمون الأصول، لم يعرفوا حقائق الإسلام، وهم كالذين قال الله فيهم «ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا» فإن قوماً استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يقعدوا عن الجهاد، (وهو ركن من أركان الدين) خوفاً من الوقوع في حب بنات النصارى، (وهذا الاحتمال فرع من الفروع) فسمى الله تعالى تقديم الفرع على الأصل، سقوط في الفتنة.

ثانياً: وإن الدين دين لله، وهو غير مقتنعيه، فمن ظن أنه هو الدين، أو أن

فريقاً من المسلمين هم الدين، أو أن الدين سوف يضيع بسبب عمل فلان، أو ينتصر بسبب عمل فلان، فهو جاهل، يقول صلى الله عليه وسلم: «ان هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» أي بسبب ثقله وثباته، لا يستطيع أن يشده أحد إلى هواه.

ثالثاً: على المرء أن يتهم نفسه وأن يحسن الظن بأخيه، وذلك في قضية الحق الاعتباري، وهو الذي يتصوره الإنسان أنه الحق، وليس فيه نص قاطع، فيجب أن يقدم عليه الحب في الله، وإيثار رابطة الأخوة التي أشرنا إليها، أما الحق الأصيل، الذي اتضح سنده من كتاب وسنة، فلا هوادة فيه، ولما كانت المعرفة موزعة على عقول المسلمين، فيجب على كل منا أن لا يعجب برأيه، ولا يتهم رأي غيره، ولا يخلط الحق بشخصه، بل يتهم نفسه، ويتأني حتى لا يكون مفرقاً لجماعة المسلمين.

عرفت رجلاً ألف عبارات في الصلاة على النبي، واستحسنها وطبعها في كتاب، قال في مقدمته: «ويجب على كل مسلم أن يقرأ هذه الصلوات، صباحاً ومساءً» فقليل له: ما حملك على ذلك؟

قال إن ذلك يترك أثراً حسناً في النفس. قيل له: «يترك أثراً حسناً في نفسك أنت» وليس من حقك أن تكلف الناس بما استحسنست، فوقتهم ملك الله أولاً، وملكهم هم أخيراً، وليس لك أن تستغله في أمر من عند نفسك.

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم الواردة عنه بسند صحيح لا تستغرق أكثر من دقيقة، ثم ينصرف الناس بعدها إلى معاشهم ومصالحهم، وإذا كان ما ألفتة يعجبك فأقرأه وحدك، لكن لا تجعل قراءته فريضة ولا نافلة، فإن الفرائض والنوافل، وضع إلهي، ولا مجال لبشر أن يلزم بها غيره، فليس لأحد من خلق الله أن يقول لعباد الله، شرعت لكم كذا وكذا، فضمّوه إلى صلواتكم وزكواتكم، ليكون قربى إلى الله، ومن فعل ذلك فقد اتهم المشرع بالنقص.

وما الفارق بين شخص يضع حديثاً وينسبه إلى رسول الله، وآخر يضع مسلماً أو تقليداً أو عملاً ما، ثم يزعم أنه دين مستقيم وطريق إلى الآخرة،

كلاهما اقترف أقبح الكذب/

رابعاً: الإصرار نوع من الكبر والحماقة: قال الله تعالى «فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» لكن فريقاً من المتدينين، عندما يضعف إيمانهم، ويذهب رشدهم، يكونون واحد من ثلاثة أشخاص: ١ - أما أن يعطلوا النصوص ويميتوا أمر الله، وهذا عصيان جريء. ٢ - وإما أن ينقلب ترتيب التكاليف في أذهانهم، فيقدموا الصغير ويؤخروا الكبير وتضطرب أوزان الأمور عندهم كذلك، فتراهم يتجاهلون العظام، ويتقعون في التوافه، كهذا الذي سأل الحسن البصري، عن الصلاة في قميص به دم البعوض. فقال له الحسن ممن أنت؟ قال من العراق، قال: أتسألون عن دم البعوض وتستبيحون دم ابن بنت رسول الله؟، وقد صور الشاعر المتنبّي هذا الاعوجاج النفسي في فهم الدين بقوله:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمةً ضحكت من جهلها الأمم

وذلك في قوم يحسبون قمة الدين إزالة شعر واستبقاء شعر آخر. ٣ - الثالث أن يستحسنوا ويستقبحوا من عند أنفسهم لا من عند الله، ويختلقوا بدعاً كثيرة في شئون الدين وأصوله وفروعه، تعمل في نفس الدين عمل السرطان في الجسم ولا تزال تنمو حتى تجهز عليه.

على أن هذه الأمور إن وقع فيها اختلاف بين المسلمين فعليهم أن يلجأوا فيها إلى الاحتكام، أو سؤال أهل الذكر، بدلاً من أن تكون القصة الفرعية، مقدمة لحرب ذاتية، بين أتباع هذا الدين وهم عنصر نادر عزيز، إذا قورن بالكافرين.

والتكفير حرام إلا بدليل. وهي مسألة خطيرة انتشرت مظاهرها في هذا العصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتلزم التفرقة بين الشخص والنوع في قضية التكفير، ومعنى هذا أنه يجوز أن نقول مثلاً: أن الشيوعيين كفار، أو الحكام العلمانيون الرافضون لحكم الشرع كفار، أو من قال كذا أو دعا إلى كذا فهو كافر، فهذا أو ذاك حكم على النوع،

لكن إذا تعلق الأمر بشخص معين، ينتسب إلى هؤلاء أو أولئك، وجب التوقف للتحقق والتثبيت في حقيقة موقفه، بسؤاله ومناقشته، حتى تقوم عليه الحجة، وتنفي الشبهة، وتنقطع المعاذير، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن القول قد يكون كفراً، فيطلق القول بتكفير صاحبه، يقال من قال هذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره، حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا كما في نصوص الوعيد العام فإن الله تعالى يقول:

«إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم نارا، وسيصلون سعيراً».

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يجوز أن يشهد على شخص معين من أهل القبلة بالنار، لجواز أن لا يلحق الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع، فقد يكون التحريم قد بلغه، ثم يتوب من فعل المحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة المحرم، وقد يبتلي بمصائب تكفر عنه، قال: وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق.

وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد تكون عرضت له شبهات يعذر الله بها، انها اعتبارات تدعونا للأناة قبل الحكم، لكن هؤلاء المتسرعين يجدون في المعصية فرصة للتشفي وضرب الجاني، ويشعرون بفرح خبيث لسقوط المذنب.

وقد ذكر العلماء في أمراض القلوب نموذجاً لأولئك المتدينين المتكبرين، وكيف غاب بعضهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمته.

فقد جاء في الحديث إن النبي صلى الله عليه وسلم، جاءه مال من جهة البحرين، فأعطى منه قوماً يتألف به قلوبهم على الإسلام، فقال رجل: «كنا أحق بهذا المال من هؤلاء، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم قوله، فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً، فقام رجل غائر العينين، مشرق الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية محلق الرأس،

مشمز الإزار، فقال: «يا رسول الله اتق الله» فقال: «ويلك أولست أحق أهل الأرض أن أتقي الله؟»

ثم ولى الرجل، فقال خالد بن الوليد: «يا رسول الله ألا أضرب عنقه» فقال صلى الله عليه وسلم: «لعله أن يكون يصلي».

ويجب التفريق بين الخطأ وبين الضلال، فالخطأ ينشأ عن الجهل بالعلم، والضلal ينشأ عن الزيف في الاعتقاد، قال الله تعالى، «ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم» فالأخطأ مسألة سلوكية، والضلal مسألة قلبية، والحكم بالضلal على إنسان يحتاج لكثير من الحذر.

وهؤلاء يجعلون من خطأ غيرهم مددا للغرور، وسبباً في احتقار الجهال، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن بلغه عن معصية عاص «لو سترته بطرف ثوبك لكان خيراً لك».

والإشفاق على المخطئين من الرحمة، ولا بأس من الاعتراض عليهم، وإنكار عملهم، في حدود هذه الرحمة أيضاً، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشتد جزعه وإشفاقه على المخالفين، بدليل قوله تعالى: «لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً».

والولاية حق، ولكن تحديدها في شخص، والافتتان به، تدخل في دائرة الباطل، قال تعالى: «ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون». فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو ولي، رجلاً كان أو امرأة.

إن زوجة ترعى بيتها، وتربي أولادها، وتسعد زوجها، ناشدة بهذا كله وجه ربها، هي من الأولياء، وإن رجلاً في ديوانه الرسمي، يحرس مصالح الناس وיעجل قضاءها، ويهش لأصحابها، مع وفائه بحقوق الله، من صلاة وزكاة هو من الأولياء.

وليس من الضروري أبداً أن يقع له أي خارق من خوارق العادات، وقد

كثير الحديث عن كرامات الأولياء، وضرورة الإيمان بها، إلى حد مستغرب، ويكاد الدهماء يبطشون بمن ينكر خارقاً نسبوه إلى أحد رجالهم، بل أن أغلب كتب القصائد، جعلت «الإيمان» بهذه الخوارق من معالم الصراط المستقيم، وهذا الكلام كله يحتاج كما قلنا إلى نقد يكشف ما فيه من خطأ... فتصوير الولاية بأنها لا تتم إلا مع الخوارق المضادة لقانون الحياة باطل، إذ الولاية هي الإيمان والتقوى فحسب... وعلم الإيمان والتقوى عند الله تعالى.

والخلاف بين الناس أمر طبيعي: قال الله تعالى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» إن المواهب الربانية كثيرة بين العباد، واحترام هذه المواهب وإجلال أصحابها من الدين، ومن الخلق الذي أمرنا الله ورسوله به، والعقل الناضج والقلب المنفتح، هو الذي يحتمل الخلاف، ويسع الناس، ويعمل على التآليف بينهم، إلا أن يكون خروجاً صريحاً عن الشريعة، فيلزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد اختلف الأئمة المجتهدون فيما بينهم، فلم يكن ذلك يمنع أبا حنيفة مثلاً وهو في العراق من أن يقدم المعونة لأخيه الإمام مالك وهو في المدينة، ولكل منهما في الفقه مذهب متميز معروف، والخلاف في الرأي لم يكن يمنع الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه، من أن يوقر الإمام الشافعي ويمشث خلفه، وقد رأينا في كتب السنة عدداً من العلماء، كلهم يترضى عن خالفه في الرأي. فيقول مثلاً: يرى الشيخ فلان رضي الله عنه أن الأمر كذا لكن الحجة ليست معه، بدليل كذا وكذا».

فهذا الأدب في الخلاف، هو الذي يؤيده منهج الإسلام، بما فيه من سمو ونزاهة، أما مواجهة الخطأ - في تصرف الأفراد أو الجماعات، بشعور المقت والكراهية فهو شيء مدمر وليس من الإسلام في شيء.

ترشيد الفكر الإسلامي: ولقد كتب كثير من العلماء المتقدمين والمعاصرين، داعين إلى ضرورة الانتباه إلى مخططات أعداء الإسلام، وحذروا

منها، ونحن نفتبس بعضاً من ذلك .

ففي قضية الإسلام والعقل : هناك أمر دقيق ، فليس الخطر هو التعرف على دور العقل في الحياة ، فإن الدعوة إلى العقل عرفها المسلمون من القرآن نفسه ، فهو مصدر التكليف ، ولكن الخطر هو المغالاة في الدعوة العقلانية ، ومحاولة فرضها أسلوباً واحداً للحياة والتفكير ، بحيث تنكر المعرفة وكل الأساليب والوسائل الأخرى ، ذلك لأن نظرة الإسلام نظرة جامعة ، بين العقل والوجدان ، أما اندفاع الغرب في هذا العصر إلى التحيز للعقلانية ، فإن ذلك إنما جاء كرد فعل لمرحلة سابقة ، كان الغرب فيها قد اشتط في التعامل مع الحدس والعاطفة والرهبانية .

وفي موضوع الفن مثلاً : نقول إن على المسلمين أن يلتمسوا مفهوم الإسلام فيها ، حتى يكونوا على بينة من ذلك التيار الزاحف ، من خلال المسرح والموسيقى والغناء ، ولقد حرص الإسلام أن يكون الفن عاملاً من عوامل إبراز قيم الحق والاستقامة والخير ، وأخلاقية الفن مقدمة على جماليته ، والفن وسيلة لأهداف ، أما وضع الفن في موقف الصدارة ، على النحو الذي نراه ، فهو لا ينسجم مع تعاليم الإسلام .

فهدف الفن في الإسلام يجب أن يكون نقل أو إيصال اسمى وأفضل القيم والأفكار والمشاعر إلى الآخرين ، بأسلوب جميل ومؤثر ، يوفر عنصر المتعة ، إضافة إلى التأثير في سلوكهم ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم .

أما إدمان الإنشغال بالمسرح والمسلسلات وغيرها ، من شأنه أن يقلل من القيم الإسلامية الحاسمة ، في حياة الأفراد والأمم والمجتمعات ، ومن شأنه أن يفرض مفاهيم مسمومة ، عن العلاقات بين المرأة والرجل ، كلها خارج عن المفهوم الإسلامي الأصيل ، ولا ريب أن الاسراف في هذا الوجه ، من شأنه أن يدمر في نفوس الناس جملة الأخلاقيات ، والقدرة على الحسم ، وعوامل الصلابة في الذاتية ، ويؤدي إلى الإستسلام لمظاهر الجنس ، والاباحية والانحراف والتحلل .

والمسرح والغناء كالرسم والنحت ، يحمل خطيئة إعطاء الصورة البشرية بعداً أكثر تألقاً من حقيقتها ، إن علينا أن نحرر الفكر الإسلامي من السير وراء الخطأين .

وفي النظر إلى الفقه الإسلامي :

ما يزال الفكر الإسلامي مفخرة الإسلام الكبرى ، وأعجوبته النادرة ، فهو تراث مجيد صالح ، يحتفظ بجودته على مدى أربعة عشر قرناً ، فما استخلصه الفقهاء ما يزال يهز دوائر العلم على نحو نادر ، فقد حل الفقهاء لواء الجهاد في سبيل بيان (شريعة الله) على مدى العصور ، ولقد أعجب هذا الفقه علماء الغرب عندما نقل إليهم ، وهز نفوسهم ، وحصل من أعلام القانون على ما لا مزيد عليه من التقدير ، ومع ذلك فما زال أهلونا معرضين عن هذا الكنز العظيم .

فالذين يتنكرون لهذا الأثر العظيم ، مندفعين وراء نظرية محاربة التقليد ، إنما يقومون بعملية هدم خطيرة ، فلا هم يستطيعون أن يقدموا عنه بديلاً صالحاً ، ولا الأمة الإسلامية ترضي موافقتهم على ذلك ، ما دام هذا الفقه مستنداً بأمانة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأخطاء المبالغين في التقليد شيء ، والاعتزاز بالفقه شيء آخر .

ومن الفكر الرشيد أن نفرق بين الإسلام وواقع المسلمين :

وعلينا أن نؤمن بأن فترة ضعف الفكر الإسلامي ، لا تتح مقياساً للحكم عليه ، لأنها لا تمثل حقيقته ، وعلينا أن نلتمس المنابع الأولى ، والمصادر الأصيلة ، التي تبين جوهره الأصيل ، ونكذب الذين يرجعون ركود المسلمين إلى الإسلام ، فإن هناك الفارق الذي يجب أن يكون واضحاً ، بين أصول الإسلام وبين تجربة المسلمين . فالإسلام في الحق براء من كل عناصر الركود والتأخر ، وإنما ترجع أسباب الاضمحلال إلى عجز المسلمين عن استيعاب الإسلام في التطبيق ، أو إلى افتتانهم بأي نظام سواه .

ولنحذر تقليد الحضارات الأخرى :

فهناك تقليد في أسلوب العيش (في الأخلاق والعادات والتقاليد) .

وتقليد في مفهوم الحرية الخاطيء (بعيداً عن الأخلاق التي هي جزء من الدين) .

وتقليد في السفور والفجور وإباحة الاختلاط ، وهتك المحرمات وغشيان الملاهي .

وتقليد في الأخذ بقوانين وضعية ، تحل الربا وتبيح الزنا وتوجه الاقتصاد والقانون والشرعية وجهات أخرى .

وتقليد في الارتكاز على أساس النعرات القومية والعصبية .

وتقليد في الذوبان في الغرب أو الشرق وفصل الدين عن الدولة ، والاستهانة بأمر العقيدة .

هذه المتابعة على الطريق الذي يرسمونه ، عن طرق الصحافة والثقافة ومعاهد الارساليات ، في تناول الأمور وتصور الأحداث ، هو متابعتهم (على جحر الضب) . ونحن لدينا صيحة القرآن واضحة وصرخة : (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين أوتوا الكتاب يردوكم على أعقابكم فستنقلبوا خاسرين) .

وجاء عهد أصبح المفكرون البارزون عندنا ، من تلاميذ المستشرقين ، ولكن السنوات الأخيرة كشفت عن وجود جيل جديد من الباحثين أخذ يناقض المستشرقين في دعاواهم ، ولذلك فقد غيّر طرائقه وأساليبه ، وأخذ يعمل من خلال معاهد التعليم ومناهج الدراسة ، وعن طريق الثقافة والصحافة والمؤسسات العلمية ، مثل اليونسكو وغيرها ، فلا بد أن ينتبه المسلمون لمثل هذه الأساليب وأن يحرصوا على وحدتهم الثقافية ، التي لا ينهضون بدونها .

نسأل الله أن يوفقنا للخير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(البروتوكولات)

والمقصود بها بروتوكولات حكماء صهيون، وهي المخططات الضارة التدميرية، التي وضعها اليهود لإفساد العالم، تمهيداً للاستيلاء على مقدراته. ولقد قال أحد الزعماء العرب بعد أن عزل من منصبه (لا يستطيع أحد الساسة أن يفهم ما يجري في الدنيا من الأمور، إذا لم يقرأ بروتوكولات حكماء صهيون).

وهو يقصد بذلك أنه كان ضحية هذه المخططات السرية، التي تعمل عملها ليس فقط في الحكومة الإسرائيلية إنما ينسحب تأثيرها على كثير من الناس والبلاد في العالم: من عربية وأعجمية، وكذلك في الدول المسيحية والإسلامية.

وهذه البروتوكولات في الحقيقة اختلفت في نشأتها وأصلها، فيقال أنها محاضر جلسات لثلاثمائة من حكماء اليهود وعلمائهم، اجتمعوا عدة مرات واتخذوا هذه القرارات، ثم سرقت إحدى النسخ وطبعت في العالم، لبيان مكرهم الدولي.

وقال بعضهم انها محاضرات ألقاها بعض كبارهم على المجتمعين، ووافقوا عليها، وهي أربعة وعشرون بروتوكولا، وأيا ما كان الحال فإن اليهود أنكروا نسبتها إليهم، وعملوا على أن يشتروا كل النسخ وكل الطباعات التي تصدر من هذا الكتاب، بأية لغة وفي أية دولة. وقد حدث هذا عدة مرات دون تحلف، ولكن واقع الحال أصدق من واقع المقال، فإن أسلوبهم في الحياة، والمنهج الماكر الذي اقترحوه والذي أشاروا إليه قبل أكثر من ثمانين عاماً، قد تحقق، فتوافق واقعهم مع ما نسب إليهم، ثم إن كتبهم التي يعتبرونها مقدسة كالتملود، مكتوبة بنفس الروح التي كتبت بها البروتوكولات، وهم يعترفون كما يعترف

المحققون بأن التلمود ليس كتاباً منزلاً من عند الله ، وهو مجرد شروح للتوراة (المجهولة حالياً) ولكن له صفة القداسة عندهم .

فهم يتعبدون به ، وفيه أن اليهود وحدهم هم المؤمنون ، ويسمون غيرهم بالاميين أو الجوييم أو الكفرة . و يزعمون أن نفوسهم وحدها مخلوقة من نفس روح الله ، وإن عنصرتهم من عنصره ، فهم أبناء الله وأحباؤه ، وهم الأطهار جوهرأ ، وإن الله منحهم الصورة البشرية تكريماً لهم ، ولكنه خلق غيرهم من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة فلم يجعلهم مشابهي لليهود إلا تكريماً لليهود ، لكي يسهل التعامل بين الطائفتين . ثم أنهم لا يدعون أحداً لدينهم ، ولا يريدون أن يدخل أحد الجنة ، لاعتقادهم أنها لا تتسع لأحد غيرهم ، وكل يهودي في العالم سواء أكان منتظماً في المنظمات الصهيونية العالمية أو كان متظاهراً بأنه غير صهيوني هو ممتلئ بهذه المعاني ، مؤمن بها ، وهي ثقافة عامة عندهم ، يتوارثونها ويغرسونها في نفوس الأطفال ، كما أن لهم عقائد معينة من هذا القبيل ، ولا ينفك يهودي في العالم عن الإيمان بها والتعاطف معها ...

ولقد ظهرت أول ترجمة عربية لهذه البروتوكولات ، عن الأصل الانجليزي بأشراف الأستاذ محمد خليفة التونسي ، ثم سحبت من السوق عدة مرات ، وأعيد طبعها ، وعقدوا ثلاثة وعشرين مؤتمراً منذ ١٨٩٧ حتى سنة ١٩٥١ وكان آخرها المؤتمر الذي انعقد في القدس في ١٤ اغسطس سنة ١٩٥١ للبحث في مسألة الهجرة إلى إسرائيل وحدودها ... أما أول مؤتمراتهم فقد كانت في مدينة « بال » بسويسرا سنة ١٨٩٧ برئاسة زعيمهم « هرتزل » وقد اجتمع فيه ثلاثمائة من حكماء صهيون ، وكانوا يمثلون خمسين جمعية يهودية عالمية ، وقد اعتمدوا حينذاك خططهم السرية لاستعباد العالم كله ، تحت تاج ملك من نسل داوود ، وكانت قراراتهم محوطة بأشد أنواع الكتمان والتحفظ ، ولكن ما ظهر منها يكشف مكرهم بوضوح .

هناك سيدة فرنسية كانت صديقة لأحد رؤسائهم ، واجتمعت في وكر من أوكار الماسونية السرية بفرنسا ، واستطاعت أن تختلس هذه الوثائق ثم فرت

بها... والوثائق المختلصة هي هذه البروتوكولات، التي ترجمت الآن إلى العربية، وكانت السيدة في ذلك مدفوعة بالغيرة على ديانتها المسيحية، لأنها أحست بالتخطيط الخطير لهدم المسيحية في العالم. ثم وصلت هذه الوثائق إلى مسيحي آخر اسمه «نيقولا فيتش» من أعيان روسيا، في عهد القيصرية، وخاف على نفسه وعلى هذه الوثائق، فسلمها إلى رجل روسي آخر اسمه «سارجي نيلوس»، وقام نيلوس بأول نشر لها باللغة الروسية في سنة ١٩٠٢.

وافتضحت نيات اليهود فذعروا وجن جنونهم، ورأوا أن العالم سوف ينتبه إلى خططهم الشريرة، وطالبوا الحكومات بمصادرة هذا الكتاب، فأطاعتهم بعض الحكومات، ولكن بعض الصحف وبعض جهات النشر قامت بالنشر على سبيل الدعاية أو التحذير.

أما النسخة الروسية فقد وصلت إلى المتحف البريطاني سنة ١٩٠٦ وأخذت رقماً وسجلت هناك، ومن هذه النسخة التي حفظت في المتحف، استطاع الناس أن يترجموها لأن باقي النسخ كانت تجمع من السوق أولاً بأول.

ويقول عباس العقاد: «انه لم يترجم كتاب عربي قط لكاتب تناول الصهيونية، في أي وقت بما يغضبها»، واستشهد على ذلك بأن كتبه التي ترجمت إلى اللغة الانجليزية، واللغة الفرنسية، فيها هجوم على الصهيونية، لم يسمح بنشرها في تلك البلاد... ومع محاولا اليهود الجبارة اخفاء أمر البروتوكولات هذه، فقد انتشرت بلغات مختلفة في فرنسا، وايطاليا وبولونيا وأمريكا، وخاصة عقب الحرب العالمية ولكن سرعان ما كانت تختفي من المكتبات بأساليب محيرة، ولقد نشرت مجلة «فرنسة القديمة» كتاباً عنوانه (مؤامرة اليهود)، وإلى جانبه نص البروتوكولات، وحاول اليهود أن يمنعوا من الظهور فلما عجزوا عن اقناعهم بذلك، أحرقوا المطبعة...

وبجدربنا الآن أن نتكلم عن ملخصات هذه البروتوكولات.

يقولون في البروتوكول الأول: سنكون صرحاء إذا قلنا، أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوي الطبائع النبيلة، إذن فخير النتائج في

حكم العالم هو ما ينزع بالقهر والارهاب، لا بالمناقشات، وأن الناس قد خضعوا في الطور الأول من الحياة الاجتماعية للقوة الوحشية العمياء، ثم خضعوا للقانون، وما القانون في الحقيقة إلا هذه القوة العمياء، مقنعة في نظام، وعلى ذلك فإن قانون الطبيعة، هو الحق الذي يكمن في القوة.

ويقولون أيضاً: أن الحرية السياسية ليست حقيقية، إنما هي مجرد نظرية، ويجب أن يعرف الإنسان كيف يسخر هذه الحقيقة، عندما تكون ضرورية، فيتخذها طعماً لجذب العامة إلى صفه، إذا كان قد قرر أن ينزع السلطة من منافس له، بهذا سنضمن انتصار فكرنا، فإن الحكومة التي تحترم الحرية سوف تزول، وتحل محلها حكومة قديرة لم تضعفها التجربة، لأن قوة الجمهور العمياء لا تستطيع البقاء يوماً واحداً بلا قائد مستبد.

ثم يقولون لقد طغت سلطة الذهب على الحكام المتمردين فخضعوا لها، ولقد مضت الأزمان التي كانت الديانة فيه هي الحاكمة، وفكرة الحرية لا يمكن أن تتحقق، إذ ما من أحد يستطيع استعمالها استعمالاً سديداً، ويكفي أن يعطى الشعب الحكم الذاتي لفترة وجيزة، حتى يصير هذا الشعب رعاعاً، ومن تلك النزعة تبدأ المنازعات والاختلافات، فتصير معارك اجتماعية، وتندلع النيران في الدول وتزول، فتأتي الحكومة الجديدة، فتجد البلاد قد أنهكتها الفتن والحروب الأهلية، وتكون في كلتا الحالتين قد خربت، وستقع في قبضتنا، لأن المال الذي في أيدينا، سنمده إلى الدولة الفقيرة فيصبح لها عوناً لا مفرها من أن تتعلق به، لأنها إن لم تفعل ذلك ستغرق في لجة الافلاس لا محالة ...

ويقول البروتوكول أيضاً: أن السياسية لا تتفق مع الأخلاق في شيء، والحاكم الذي يتقيد بالأخلاق، ليس بسياسي بارع، وهو بسبب ذلك غير راسخ على عرشه، ولا بد لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرياء. فإن الشرائع الإنسانية العظيمة، من الاخلاص والأمانة، تصبح رذائل في السياسة، وسوف تبلغ في زعزعة العرش أعظم مما يبلغه ألد الخصوم.

هذه الصفات لا بد أن تكون هي خصال البلاد الأممية (بمعنى غير اليهودية)

ولكننا لسنا مضطرين أن نفتدي بهم على الدوام . إن حقنا يكمن في القوة، وكلمة الحق مجرد فكرة قائمة على غير أساس .

ثم يقول : إن علينا أن نعمل لتحطيم كيان القواعد والنظم القائمة، والامساك بصناعة القوانين ، وإعادة تنظيم الهيئات جميعاً ، للهيمنة على أولئك الذين تخلوا بمحض رغبتهم عن قوتهم . ثم يحصل الفساد، ومن خلال الفساد الحالي ، نلجأ إلى حكم حازم ، يعيد بناء الحياة الطبيعية التي حطمتها التحررية .

إن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خير، ولا ما هو أخلاقي ، بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد .

إن على كل قائد يريد إنقاذ خطة عمل تناسبه ، أن يستحضر في ذهنه حقارة الجمهور وتقلبه ، وعجزه عن أن يفهم ظروف عيشته وسعادته ، وعليه أن يفهم أن قوة الجمهور عمياء ، خالية من العقل المميز، فلا يعيرها سمعاً ، وإنما يستغلها ويستفيد بها فقط .

ويقول أيضاً ، انظروا إلى هذه الحيوانات المخمورة التي أفسدها الانحلال ، هل نسمح لأنفسنا وأبناء جنسنا أن يفعلوا بمثل ما يفعلون ؟ ، إن أكثر المسيحيين أناس قد أضلّتهم الخمر ، وانقلب شبانهم مجانين ، وأغراهم بذلك وكلاؤنا ومعلمونا ، وخدمنا قهرماناتنا في البيوتات الغنية ، ونساؤنا في أماكن هوهم ، وإليهن أضيف من يسمين (نساء المجتمع) والراغبات من زملائهن في الفساد والترف .

يجب أن يكون شعارنا المكر، وكل وسائل العنف والخديعة ، وفي السياسة يجب أن نتعلم كيف نصادر الأملاك بلا أدنى تردد ، إذا كان هذا العمل يمكننا من السيادة القوة ، فالشر هو الوسيلة الوحيدة للحصول على هدف الخير ، وإن دولتنا متبعة طريق الفتوحات السلمية . ولها الحق في أن تستبدل بأهوال الحرب حكم الحكام ، وهي أقل ظهوراً وأكثر تأثيراً ، أنها لضرورة لتعزيز الفزع الذي يولد الطاعة العمياء إن العنف الحقود وحده هو العامل الرئيسي في قوة العدالة ، فيجب أن نتمسك بخطة العنف والخديعة ، لا من أجل المصلحة

فحسب، بل من أجل الواجب/ والنصر أيضاً.

لقد كنا قديماً أول من صاح في الناس بكلمات الحرية والمساواة والاخاء، وهي كلمات ما انفكت الجماهير تردها منذ ذلك الحين، جاهلة هذه الشعارات وحرمت العالم من ترديدها بنجاح، وحرمت الفرد من حريته الشخصية الحقيقية، إن أدعاء الحكمة والذكاء من غير اليهود، لم يتبينوا كيف كانت عواقب الكلام والعبارات التي يلوكونها دون وعي، ألم يروا أنه لا مساواة في الطبيعة؟

وأن الطبيعة قد خلطت أنماطاً غير متساوية، في العقل والأخلاق والطاعة الشخصية، إن صيحات الحرية والاخاء والمساواة، قد ضمت إلى صفوفنا فرقاً كاملة من زوايا العالم الأربع، عن طريق وكلائنا، وقد حملت هذه الفرق ألويتنا، في نشوة وفرح، مثل كثير من الديدان، تلتهم سعادة المسيحيين، وتحطم سلامهم واستقرارهم، وقد جلب هذا العمل النصر لنا، كما أنه مكنا من أشياء أخرى: مثل حق الامتيازات، وسحق الارستقراطية الأهمية، التي كانت الحماية الوحيدة لأهل البلاد ضدنا...

أما البروتوكول الثاني فيقول: يجب أن نصنع رؤساء ممن لهم ميول العبيد، ولن يكونوا مدربين على فن الحكم، ولذلك سيكون من اليسير أن نمسحهم قطعان شطرنج، ضمن لعبتنا في أيدي مستشارينا الحكماء العلماء، كما عرفوا من قبل، درسوا علم الحكم من خططنا السياسية، ومن تجربة التاريخ، ومن ملاحظة الاحداث الجارية، أما غير هؤلاء فهم يتبعون نسقاً آخر، ومن أجل ذلك لسنا في حاجة إلى أن نقيم لهم وزناً، وسنتركهم يتمتعون ويفرحون بالحكم، حتى يلاقوا يومهم، أو يعيشوا حسب عاداتهم وملء معداتهم، أو يعيشوا في ذكريات أحلامهم.

دعوهم يعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التي أوحينا إليهم بها، إنما لها القدر الأسمى من أجلهم، ونوجه أنظارهم إلى هذا المشروع، بمساعدة صحافتنا، التي تزيد ثقتهم العمياء بهذه القوانين زيادة مضطردة.

إن الطبقات المتعلمة ، ستختال زهواً أمام أنفسها ، بعلمها ، وستأخذ جزافاً في مزاولة الوجبة ، التي حصلتها من العلم ، الذي قدمه وكلاؤنا ، رغبة في أن نربي عقولهم كما نريد ، تتصوروا بأن كلمتا كلمات جوفاء ، لاحظوا هنا أن نجاح (داروين) (وماركس) (ونيتشة) قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لإتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي غير اليهودي ، سيكون واضحاً لنا على التأكيد ، ولكي نتجنب ارتكاب الأخطاء ، في سياستنا وعملنا الإداري ، يتحتم علينا أن ندرس ونعني الخط الحالي ، وهو أخلاق الأمة وميولها ، إن الصحافة التي في يد الأمة القائمة هي القوة العظيمة ، التي تحصل على توجيه الناس ، فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور ، وتعلن شكاوى الشاكين ، وتولد الضجر أحياناً بين الغوغاء ، إن توليد حرية الكلام قد ولدت في الصحافة ، غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستعمل هذه القوة بالطريقة الصحيحة ، فسقطت في أيدينا ومن خلال الصحافة أحرزنا نفوذاً ، وبقينا نحن وراء الستار ، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب ، وإن كان هذا قد كلفنا أنهاراً من الدم ، فقدناها من بني جنسنا ، لكن كل تضحية من جانبنا تعادل آلافاً من الأميين أمام الله .

ويتحدث البروتوكول الثالث : عن أهداف أخرى فيقول : إن كل الموازين البنائية القائمة حالياً ستتهار سريعاً ، لأننا على الدوام نفقدها توازنها ، كي نبليها بسرعة أكثر ، وأي ملك لا يكون له سبيل إلى قلوب رعاياه ، لا يستطيع أن يحصن نفسه ، ضد مدبري المكاييد والدسائس ، الطامعين إلى القوة ، ونحن شجعنا الميول التحررية نحو الاستقلال ، وشجعنا كل مشروع في هذا الاتجاه ، ووضعنا أسلحة في أيدي الأحزاب ، وجعلنا السلطة هدف كل طموح إلى الرفع ، فأقمنا ميادين ، تشتجر فوقها الحروب الحزبية ، بلا ضوابط ، ولا التزامات ، حتى يظهر الافلاس في كل مكان .

ولقد استطاع وكلاؤنا الوقهاء ، أن يمسخوا المجالس البرلمانية ، والإدارية ، ويجعلوها مجالس صورية ، وكذلك كتاب النشرات ، فالاداريون يضعفون الشعب من جانب ، ونحن نضعف الاداريين من جانب آخر ، وسينهار كل شيء

سريعاً، تحت رغباتنا.

إن الناس مستعدون في عرق جباههم في الفقر، بأسلوب أفضع من قوانين رق الأرض، فيجب أن نظهر بأننا نحن المحررين للعمال والفلاحين من الظلم نوصيهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين، والفوضويين والشيوعيين، ونحن على الدوام نبنى الشيوعية، ونحتضنها، متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة، والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية، يجب أن نعمل على حكم الطوائف، باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء، الذي يؤججها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هي وسائلنا، التي نكتسح بها بعيداً، كل من يصدوننا عن سبيلنا، تذكروا الثورة الفرنسية، التي نحن نسميها الكبرى، إن أسرار تنظيمها التمهيدي، معروفة لنا جيداً، لأنها من صنع أيدينا، ونحن منذ ذلك الحين نقود الأمم قدماً، من خيبة إلى خيبة، حتى أنهم سوف يتشبثون بنا، ليأتي ملك طاغية من دم صهيون، وإنه الملك الذي نعهده لحكم العالم، نحن الآن كقوة دولية، فوق المتناول، لأنه لو هاجمتنا إحدى الحكومات الأممية، لقامت بنصرنا حكومات أخرى عديدة، إن المسيحيين بارتكابهم خسة الفاحشة، ليساعدونا على استقلالنا، حينما يخرون راكعين أمام القوة وحين لا يرحمون في معالجة الأخطاء، وحين يرفضون أن يتبينوا متناقضات الحرية، وسيكونون صابرين إلى درجة الاستشهاد، في تحمل قسوة الاستبداد الفاجر، التي سيرونها على أيدينا.

ويتحدث البروتوكول الرابع: عن القوة الخفية «يقول من ذا الذي يستطيع أن يخلع قوة خفية عن عرشها؟ هذا هو بالضبط ما عليه حكوماتنا الآن». إن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم بفروعه، والروتاري واللايونز، ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا. لكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها، في هذه الفترة من خطة عملنا، وفي مركز قيادتنا ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم.

ويتحدث هذا البروتوكول عن التجارة والزراعة ويقول: أن الزراعة عملية مميّنة بطيئة، ولكن يجب أن نجعلها تزلزل حياة الأيمن زلزلاً، ويجب علينا

أن نضع التجارة على أساس المضاربة، وستكون نتيجة هذا، أن خيرات الأرض المستخلصة بالاستثمار من الفلاحين، لا تستقر في أيدي أصحابها طويلاً، بل ستعبر إلى خزائننا، خلال المضاربات.

ويقول البروتوكول الرابع: أيضاً إن المضاربة في عالم الأعمال ستخلق مجتمعاً أنانياً غليظ القلب، ومنحل الأخلاق، ومبغضاً من أهل الدين والسياسة، ستكون شهوة الذهب رائدة الوحيد، وسيكافح من أجل الملذات التي يده بها الذهب، وحينئذ ستنضم لنا، الطبقات الوضيعة ضد منافسينا، الذين هم من الممتازين، لا رغبة في الثروات فقط، ولكن تنفيساً عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا.

ويتكلم البروتوكول الخامس: عن الرشوة والفساد فيقول: كيف يكون نوع الحكومة، التي تعالج بها مجتمعات، قد تفتشت فيها الرشوة والفساد، حيث الغنى لا يتوصل إليه إلا بالمفاجآت الماكرة، ووسائل التدليس، وحيث الخلافات مستحكمة على الدوام، والفضائل في حاجة إلى أن تعززها العقوبات والقوانين الصارمة، لا المبادئ المطاعة عن رغبة، وحيث المشاعر الوطنية والدينية مستغرقة في العقائد العلمانية.

ليست صورة الحكومة التي يمكن أن تعطاها هذه المجتمعات. إلا صورة الاستبداد، ثم يقول: لقد بذرنا الخلاف بين كل إنسان وغيره، وبنينا في كل واحد من الأممين الشخصية والقومية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية، خلال العشرين سنة الماضية، ومن هذا كله، تتكرر حقيقة، هي أن أي حكومة منفردة، لن تجدها سنداً من جاراتها، حين تكون ضدنا.

إننا نقرأ في شريعة الأنبياء إننا مختارون من الله / لنحكم الأرض / وقد منحنا الله العنصرية اليهودية لكي نكون قادرين على القيام بهذا العمل...

أن علم الاقتصاد السياسي الذي فحسه علماءنا الفطاحل، قد برهن على أن قوة رأس المال، أعظم من مكانة التاج، ويجب الحصول على احتكار مطلق للصناعة والتجارة، ليكون رأس المال مجالاً حراً وهذا ما نعمل لاستثماره، وتحرير

الشعب من السلاح في هذه الأيام، أعظم أهمية من دفعه إلى الحرب. ويجب أن تستغل العواطف المتأججة، في أغراضنا بدل من اخادها، حتى يقتل الناس بعضهم بعضاً، ونقف نحن لتفريج.

ويتكلم البروتوكول السادس: عن الترف فيقول: سوف نشجع حب الترف المطلق الذي نشرناه من قبل، لكي نخرب صناعة الأميين، وسنزيد الأجور التي لن تنفع العمال شيئاً، كما أننا في الوقت نفسه سنرفع أثمان الضروريات الأولية، متخذين سوء المحصولات الزراعية عذراً كما ننسف بمهارة أسس الانتاج، نبذر بذور الفوضى بين العمال، ونشجعهم على إدمان المسكرات، وسنعمل كل وسيلة لطرد غير اليهود من الأرض، لكي لا يستقر الأميون في الوضع الصحيح.

ويتكلم البروتوكول السابع: عن الجيش ويقول، أن ضخامة الجيش، وزيادة القوة البوليسية ضروريتان لاتمام الخطط السابقة الذكر، يجب أن يكون في كل الأقطار، جيش كبير، وبوليس مخلص لأغراضنا، ويجب أن ننشر الفتنة والمنازعات، والعداوات المتبادلة بين الدول، فإن في هذا فائدة مزدوجة تتحكم في أقدار كل الأقطار ونعينها بالمال، حتى تخضع لنا.

ولكي نصل إلى هذه الغايات يجب أن ننطوي على كثير من الخبث والدهاء، خلال المفاوضات والاتفاقات، في ما يسمى باللغة الرسمية، وسوف نتظاهر بحركات عكس ذلك، وسوف نظهر قوتنا أحياناً لبعض الناس، متوسلين بجرائم العنف، وهذا ما يقال له (حكم الارهاب) ولكنه ضروري لنا.

ويتكلم البروتوكول الثامن: عن المكر القانوني، وحيل الاقتصاد فيقول عن الشرط الأول: ويجب أن نؤمن كل الآلات التي قد يوجهها أعداؤنا ضدنا، وسوف نلجأ إلى أعظم التعبيرات تعقيداً، وأشكالاً في القانون، لكي نخلف أنفسنا، إذا اكرهنا على اصدار أحكام، قد تكون طائشة أو ظالمة، لأنه سيكون هاماً، أن نعبر عن هذه الأحكام، بأسلوب محكم، حتى تبدو للعامة أنها في أعلى نبط أخلاقي، وأنها عادية وطبيعية، ويجب أن تكون حكومتنا محوطة بكل قوى

المدنية، التي ستجذب إلى نفسها الناشرين، والمحامين والأطباء، ورجال الإدارة، والدبلوماسيين. ثم القوم المنشئين في مدارسنا التقدمية الخاصة، وهؤلاء القوم، سيعرفون أسرار الحياة الاجتماعية، فسيتمكنون من كل اللغات، كل مجموعة من حروف وكلمات سياسية، وسيتفهمون جيداً في الجانب الباطني للطبيعة الإنسانية، بكل أوتارها التي سيعزفون عليها، إن هذه الأوتار تشكل عقل الأميين وصفاتهم وميولهم وعيوبهم.

إننا سنحيط حكوماتنا بجيش كامل من الاقتصاديين، وهذا هو السبب أن علم الاقتصاد هو الموضوع الرئيسي، الذي يعلمه اليهود، وسنكون محاطين بألوف من رجال البنوك وأصحاب الصناعات، وأصحاب الملايين. إذ الواقع أن كل شيء سوف يقرره المال، وما دام ملء المناصب الحكومية لأخواننا اليهود، في أثناء ذلك غير مأمون، فسوف نعهد بهذه المناصب الخطيرة، إلى القوم الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم، لكي تقف مخازيهم فاصلاً بينهم وبين أن يعصوا أوامرنا، ولذلك سيدافعون عن مصالحنا حتى النفس الأخير.

ويتكلم البروتوكول التاسع: عن التشريعات فيقول، عليكم أن توجهوا التفاتاً خاصاً إلى أمر هام فستكتشفون أنه قبل مضي عشر سنوات ستتغير أشد الأخلاق تماسكاً، وسنضيف كذلك أمة أخرى إلى مراتب تلك الأمم التي خضعت لنا من قبل.

أننا نخشى تحالف القوة الحاكمة في الأميين مع قوة الرعاع العمياء، غير أننا قد اتخذنا كل الاحتياطات، لنمنع احتمال وقوع هذا الحادث، فقد أقمنا بين القوتين سداً قوامه الرعب التي تحسه القوتان كل من الأخرى. (أي يجعل كلاً من الحاكم والمحكوم يكره الآخر ويخاف منه) ولقد خدعنا الجيل الناشئ من الأميين وجعلناه فاسداً متعفنأً، بما علمناه من مبادئ ونظريات، ولقد حصلنا على نتائج مفيدة رائعة، وبوضع تفسيرات للقوانين لم يقصد إليها مشرعوها، ومن هذا قام المذهب الذي يقول بعدم التمسك بحرفية القانون بل الحكم بالضمير.

ويتكلم البروتوكول العاشر عن شئون الحكم والتصويت: إن قوة التصويت، التي دربنا عليها الأفراد التافهين، من الجنس البشري، بالاجتماعات المنظمة وبالاتفاقات، المدبرة من قبل، ستلعب حينئذ دورها الأخير، وهذه القوة التي توسلنا بها كي نضع أنفسنا فوق العرش، ستؤدي لنا ديننا الأخير.

واجب علينا أن نقنع كل فرد بلزوم التصويت، من غير تمييز بين الطبقات، ولا من مجتمع مقسم إلى فئات، فإذا أوحينا إلى عقل كل فرد، فكرة أهمية الذاتية، فسوف ندمر الحياة الأسرية بين الأُميين إن مجلس الشعب سينتخب الرئيس ويحميه ويستتره، ولكننا سنحرم هذا المجلس، من سلطة تقديم القوانين أو تعديلها بل ستبقى في يد الرئيس، الذي هو أصلاً العوبة في أيدينا، وسنعطيه أيضاً سلطة إلغاء هذا المجلس كله، وأعلان الحكم العرفي، بحجة حماية الدستور، ولا بد أن يستمر في كل البلاد، اضطراب العلاقات بين الشعوب والحكومات.

ويتحدث البروتوكول الحادي عشر عن مجلس الدولة وانتخاب ممثلي الشعب:

ويتحدث البروتوكول الثاني عشر: عن تعريفهم للحرية وهي (حق عمل ما يسمح به القانون) ثم يقولون وهذا سيمكننا من أن نقرر أين تكون الحرية وأين لا تكون. وأن الأدب والصحافة هما أعظم قوتين... وكيف يمكن توجيههما.

ويتحدث البروتوكول الثالث عشر: عن إذلال الأُميين بالانشغال بلقمة العيش وجوب خلق مشكلات متجددة، ووسائل فنية ورياضية تلهيهم عما يتطلعون إليه. وكذلك كثرة الكلام عن الاشتراكية.

ويتحدث البروتوكول الرابع عشر: عن الاصرار على منع قيام أي دين غير دينهم وسوف يفضح الفلاسفة مساوئ الديانات الأخرى.

ويتحدث البروتوكول الخامس عشر: عن عمليات الارهاب والاغتيال، ضد من يتصدى لمخططاتهم والاجتهاد في نشر خلايا الماسونية وجذب الأشخاص

المهمين إليها... والسيطرة على البوليس السري والمحلي والدولي، (الانتربول) وكلام من هذا القبيل.

وتمضي البروتوكولات من ١٦ إلى ٢٤ في هذا المخطط الشيطاني الرخيص.

كلمة ختامية: هذه المحاضرات الرسمية للصهيونيين مضى عليها نحو ثمانين عاماً كما قلنا فماذا حصل بعدها؟

أن الفكر الذي في رؤوسهم... فهو هولم يتغير... ولا تزال أعمالهم وسياسيتهم ومفاوضاتهم وجرائمهم تنبعث من تلك النظريات الشريرة لا يتخلف عنها منهم أحد، فسيطرتهم على الذهب والبنوك والصحافة وتوجيههم للفنون والآداب والجامعات وعبثهم بالديانات والحكومات — كل ذلك ظاهر للعيان.

تنبيه:

و يبدي بعض العقلاء ملاحظة جديرة بالتسجيل هي أن نشر هذه المعلومات يحقق هدفاً يخدم اليهود والصهيونية، بتصويرها على أنها تملك كل المقدرات، فيخافها الناس ويعطوها أكثر من حقيقتها.

كما أن هذا النشر ذاته تضعف الروح المعنوية عند المسلمين، والأمم التي قصدت بهذا الكيد، فيياس الناس من الجهاد والمقاومة.

ولذلك نقول: أن اكتشاف الحقائق مفيد بل هو فريضة واجبة سواء أكانت تلك الحقائق نافعة أو ضارة.

وليس اخفاء الحق سبيلاً مقبولاً لعلاج المشاكل، ولكن التصرف على أساس هذه المعرفة شيء آخر. فنحن ندعو كل من يقرأ هذا البحث أن يضع نصب عينيه الحقائق الآتية:

أولاً — ان أموراً كثيراً تغيرت منذ كتبت هذه البروتوكولات بعضها سار لصالح اليهود ولكن أكثرها لم يعد في صالحهم، من ذلك اكتشاف هذه الأسرار، ومنها وجود حصانة ضد كيدهم عند كثير من الدول، ومنها

التناقضات التي وجدت فيما بينهم كما قال تعالى «فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» .

ثانياً — إن الله بشر المسلمين في القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ستكون لهم الغلبة على اليهود في نهاية الأمر .

ثالثاً — ومن سنن الله في الكون: أن الباطل لا يظهر إلا في غيبة أهل الحق ، وقد سرت موجة عالية من الاستنارة في الشعوب الإسلامية ولن يخبوضوها باذن الله .

رابعاً — ومن سنن الله كذلك أنه ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ، وهؤلاء اليهود يعيشون على المساعدات وبامكانيات غيرهم ، وقد بدأ نجمهم في الأفول وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله «ثم رددنا لكم الكثرة وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا» .

وأما خيالهم في السيطرة على العالم كله فهو (كحلم إبليس ي الجنة) ، حلم بعيد المنال فقد تنبه العالم لمكرهم ولم ينجحوا إلا في التجمع على أرض فلسطين كدولة صغيرة غارقة في الديون ... ولولا المساعدات الأجنبية الشهرية لما كان لهم وجود عسكري ولا اجتماعي ، ولكانت أية دولة عربية أقوى منهم فعلاً ولكن الخطريأتي علينا وعلى غيرنا من دوام الاستسلام للفكر الرديء الذي أفرزوه كالسموم في شتى مجالات الحياة .

والهدف من عرض هذه البروتوكولات — أن يضع كل عربي وكل مسلم يده على أصل المؤامرة الدنيئة — لا ليخاف منها — بل ليعمل على هدم أصولها الفكرية والسلوكية إن كان هو متلبساً بشيء منها ، أو وجد غيره يسير طبقاً لها ، فنحن شعب طيب يسارع إلى التصديق والانقياد .

ولدينا من ديننا ومن مقوماتنا ما يستعلي على هذا المكر ويزيله عاجلاً .
وصدق الله إذ يقول : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

فليجعل القارئ الكريم هذه المعرفة دافعاً له على أن يحذر تلك المكائد منهم
وممن يروجون ثقافتهم ، من صنائع يعبدون المال ، وسوف تعود قافلة الحياة للسير
بأمن وأمان . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

والحمد لله رب العالمين

الأنظمة الدولية والسيادة

بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين. هذه المحاضرة عن: الأنظمة الدولية والسيادة والتقنين.

لقد عاش الناس رداً من الزمن يتبعون تعاليم الأنبياء، وما من نبي دعا إلى توحيد الله عز وجل. وبيان أن الله تعالى هو السيد، وهو الذي يطاع طاعة مطلقة. وهو وحده الذي يملك الشريعة ويقرر الحلال والحرام، ثم انتكست الشعوب، وضلت سبيلها، وترددت في الجاهلية وعبد الناس الطاغوت، وعبدوا حكامهم وملوكهم الذين فرضوا عليهم الظلم، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله. فصاروا يتحاكمون إلى قوانين وضعية جائرة، وقد بينا ذلك في محاضرة (مسائل الجاهلية) ثم عاد الناس بعد ظهور الإسلام إلى الحكم بما أنزل الله، وإلى الشريعة السمحاء، فسعدوا وأسعدوا، ثم غلبت عليهم الشهوات مرة أخرى، واضطربت أحوالهم، وعادوا إلى نظرية التقنين الوضعي، والقول بأن السيادة هي للشعب وليست لله.

وسنمر مروراً سريعاً على التطورات التي أدت إلى ذلك، وفي الحقيقة ما كانت الشعوب العربية ولا الإسلامية بحاجة إلى هذه الانتكاسة، لولا أن تأخرها الاجتماعي والسياسي والعسكري، قد فرض عليها ظروفاً من خارجها. فلما أخذوا بالأنظمة الغربية وفتنوا بها أو خضعوا لها، تناولوا الثقافة أيضاً... والقانون جزء من ثقافة تلك الشعوب، أما تاريخ التقنين الوضعي في أوروبا فهو موضوع الحديث...

كانت واجهة الفكر في أوروبا خلال العصور الوسطى مسيحية محضة، ومعلوم أنهم في شريعتهم يستندون إلى تشريع اليهود، أو ما يسمونه (بالعهد القديم) وتميزت هذه الفترة بنزعة الجدل حول أمور دينية. وكانت للكنيسة في تلك

العصور منزلة ممتازة، من حيث سلطاتها على الناس، بسبب ضعف الدويلات، وتعرضها لكثير من غزوات أمم الشمال المتبربرة. فتحكمت الكنيسة في الاتجاه الفكري تحكماً جعلها تستخدم الفلسفة الغربية، فبقيت الفلسفة خادمة للدين لعدة قرون، لكن الكنيسة أسرفت في التحكم، وصادرت كل نشاط عقلي، وهذا سبب العقم والجمود الذي أصاب الفكر ولكن اتصال الغرب بالمسلمين خلال الحروب الصليبية. نشر قبسا من روح العلم والتفكير الحر في العالم الغربي. ويقول الفيلسوف (لاكي): لم تبدأ النهضة الفكرية في أوروبا إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة إلى الجامعات، وإلا بعد أن حطمت العلوم الإسلامية والاستقلال الصناعي سلطان الكنيسة.

وسوف نتكلم عن آراء بعض المفكرين:

في هذه الفترات الحرجة ظهر عدد من المفكرين أثروا في المجتمعات تأثيراً كبيراً — ولم يكن هؤلاء المفكرين من سلطان ولا اعتبار ديني خاص. ولكن الشعوب اعتبرتهم رسل نهضة فكرية، فدرسوا مذاهبهم في الجامعات، ولقنوها للأجيال، ولا زالت أفكار هؤلاء الناس إلى الآن (حتى في جامعاتنا) تلقن لأبنائنا، ويصورونهم للشباب على أنهم قادة الفكر في العصر الحديث، ومن هنا ظهرت أهميتهم. فكان من هؤلاء المفكرين — مثلاً — (مرسيليو دي بنوا) الذي توفي سنة ١٣٤٢م وهو يرى أن الدولة أهم من الكنيسة، وكان (دانتي) يقف من هذه القضية موقفاً محايداً، لكنه وهو الذي نادى بفصل السياسة عن الدين والأخلاق، كما نادى بأن (الغاية تبرر الوسطة) ثم جاء (ميكافلي) بعده سنة ١٥٢٧م. وكان واحداً من هؤلاء السياسيين الذين دعوا إلى فصل الدين عن السياسة، وتقسيم الأخلاق إلى شيء شخصي وشيء اجتماعي. وقال بأن الدين ان كان لا بد منه فهو قضية شخصية، ينبغي ألا تدخل في أمور السياسة والدولة، وأن الديانة النصرانية، إنما موضوعها الحياة الآخرة فقط. وأن المستدين لا يفيدون الله ولا يفيدون الحياة شيئاً. وكان ميكافلي يرى أن الحياة في المجتمعات تقوم على استخدام القوة، لأن ميل الإنسان إلى الشر يفوق في رأيه الميل إلى الخير.

وقد حاول متأثراً بما ساد في القرون الوسطى من بأساء الحياة وصراع الطبقات وظلم الكنيسة، حاول أن يؤسس على ذلك نظريته في الفن السياسي، والتي تركز على تحليل اتجاهات القوى المتعارضة بسبب الفراغ الناشيء عن انحراف المعتقدات الدينية، وضعف المبادئ الخلقية، التي تميزت بها العصور الوسطى، ولذلك استفاد من التجربة الرومانية، وأخذ منه السياسي الذي يضع مصلحة الدولة في القمة، دون رعاية لأي اعتبار ديني أو خلقي...

واحتدم الصراع بين الفلسفة والكنيسة، وظهر الفلكيون الذين ذهبوا إلى ضرورة دراسة طبيعة هذا النزاع بين الدين والحياة.

ولكن حركة الإصلاح هذه لم تستطع أن تتجاوز اعتقاد المسيحية في الخطيئة الأولى لآدم، والتي انسحبت على أبنائه من البشر، كما أنها لم تستطع أن تحرر من كثير من التصورات الكنيسية التي تصطدم مع العقل، فامتدت الفجوة بين الفلسفة والدين، فكان طبيعياً أن تنشأ الفلسفة المادية المحضة على أنقاض الكنيسة، بتقاليدها وفلسفتها. ونشأ ما يعرف بالفلسفة المادية في النظر الغربي، والفكر الاجتماعي الحديث.

إحياء الوثنية: كانت اللاتينية هي لغة هذا النوع من الثقافة آنذاك، وقد ارتضت حركة إحياء العلوم تلك اللغة، وحولتها إلى وسيلة أخرى يفيد منها الإنسان، روحاً مقبلة على الحياة، ولذا فقد وصفت عملية إحياء العلوم في مطلع العصور الحديثة في كتب التاريخ الأوربي أنها الحركة الإنسانية.

وفي هذا الجو ولد الفكر الاجتماعي (**بيكون**) كانت فلسفة بيكون تنزع إلى الروح الميكافيلية، وكان محارباً في الأصل ولا يميل إلى السلم ولذلك كان يناهز بقيام حكومات مستبدة تدير أمر الدهماء. أما (**المدينة الفاضلة**) التي نادى بها (**دانتي**) فهي فكرة حكومة يملك زمامها رجال الفن، والمهندسون والفلكيون والنباتيون. وهي لا تصب سلطانها على الإنسان، وإنما توجه نشاطها إلى الطبيعة، لتوسيع نطاق مملكة الإنسان. وكانت هذه الحركة أيضاً تميل إلى الاتجاه الوثني الفردي، فقد ولد (**فرنسيس بيكون**) سنة ١٥٦١ وولد ديكارت سنة

١٥٩٦ وقد غلبت على ديكارت هذه النزعة اليونانية الوثنية فحملة ذلك على أن يعد الأخلاق أمراً واقعياً، وأن الآله الحديث هو الطبيعة وعلومها، وكان يقول (أن الذي يقصد إلى الفلسفة الطبيعية والفنون والآداب لا بد أن يعرج على اليونان، وفي هذه الفترة أيضاً ظهر مذهب الشك، الذي أنشأه السفسطائيون قديماً وتبناه الفيلسوف (هيوم) وكان هذا التمهيد الذي قام به (كانت) هو الذي حول البحث إلى دراسة تاريخ الإنسانية، واهتمام بالأشياء الخارجية والعلوم الطبيعية، وقد نشأت في هذا العصر (نظرية النشوء والارتقاء) التي قال بها (داروين)، والتي لفتت أنظار الباحثين من مؤيدين ومعارضين. ومن هنا يتأكد أن الفكر الحديث، في نشأته وتطوره لم يتعد عن اللاهوت الوثني، إلا بأن يفرق بين فكر وثني بطابع يوناني، وفكر وثني بطابع روماني.

ويواجه الباحث في المسألة الاجتماعية، خلال هذه القرون الأربعة من السادس عشر الميلادي إلى التاسع عشر الميلادي، عدداً من التيارات والاتجاهات الفكرية.

وأوضح من كانت لهم آثار في هذا الموضوع تلك المحاولات التي قام بها الانجليزي (توماس مور) سنة ١٥٣٥م فقد ألف باللاتينية ما سماه (يوتوبيا) أو جزيرة الخيال، وأجراها على لسان برتغالي يقال له (رافائيل) عن جزيرة تطبق النظام الشيوعي.

ويعتبر الاشتراكيون هذا الكتاب المرجع الأول للاشتراكية الحديثة أو الشيوعية. وهويتناول بالنقد نظام أوربا السائد، وأسباب البؤس وكثرة العاطلين، ويقترح إلغاء الملكية الفردية.

ومن ذلك ما كتبه القديس الايطالي (توماس كامبانيلا) المتوفي سنة ١٦٣٦ حول ما يسمى (مدينة الشمس) وهوينادي بالغاء هذه الأنظمة الحالية ويزعم أن الأسرة هي أساس غريزة الملكية، ويرى من الضروري التخلص من نظام الأسرة. وكذلك (تورلي) المتوفي سنة ١٧٠٥ الذي أصدر كتاباً سماه قانون الطبيعة. وقال أن الملكية الخاصة هي التي أفسدت الإنسان، وكذلك ظهرت

نظرية التعاقد الاجتماعي، وأبرز من كان يمثل هذا الاتجاه هو (هوبز) (وجان جاك روسو) وظهر فيها الاتجاه لتفسير التاريخ وأبرز من كان يمثل هذا الاتجاه الفيلسوف (فيكتور هيجو) (وكانت) ثم تلقف (كارل ماركس) هذا الاتجاه، وتأثر بفلسفة هيجل. وجاء للناس بما يسمى (المادية التاريخية) وأقام هيكلها على المادية الجدلية. وكذلك ظهرت ظاهرة دراسة الإنسان بتطبيق مناهج العلوم، وأبرز من كان في هذا الاتجاه (أوجست كونت) (وسبنسر) (ولبلاي) (ودور كيم) (وكانتلا).

ومن هذه الصورة يتضح أن التفكير الاجتماعي في العصر الحديث سار في تيارين متميزين أولهما تيار ينحى منحى التقليد الأفلاطوني/ في المجادلة ورسم مدن خيالية ومدن فاضلة. والثاني التجريبي الذي يحاول أن يقيم التفكير الحديث على قواعد من الانتفاع بالتصور العلمي، وما رافق الحياة السياسية في العصور السابقة من دروب التبدل.

وقد انتهى هذا الاتجاه فيما بعد بقيام علم الاجتماع الحديث.

أما نظرية (العقد الاجتماعي) فخلاصتها أن الإنسان ليس اجتماعياً بطبعه، فالبشر في حالتهم الفطرية يتنازعون ويتقاتلون ويملأهم الخوف والشك. وبناء على ذلك فقد، لجأوا إلى اتفاق بينهم على معيشة في مجتمع مدني، تكون له حكومة تحميهم من الفوضى التي تسود المجتمعات، وقد غالى (هوبز) مغالاة شديدة حين جعل الدولة هي كل شيء، فلا حقيقة إلا ما تنادي به، ولا حق إلا ما ترضاه الدولة، ويجب أن تقاس قيم، أي عمل من الأعمال بما تفرضه من قانون. فهي عنده كما وصفها في كتابه (التنين الجبار) بأنها تبتلع في جوفها كل الأفراد، بحيث تمنحهم شخصياتهم واراداتهم أمام شخصيتها وارادتها. أما صورة هذه الحكومة فلم يتكلموا عنها كثيراً، فقد تكون في شخصية إنسان رئيس مستبد، ولكنه يرجع في تصرفاته إلى الشعب الذي هو مصدر السلطات، وقد تكون قيادة جماعية، بمعنى أن عدداً من الناس يتولون الإدارة فيما بينهم.

وحقيقة الأمر أن الحكام وجدوا في هذا الفكر خلاصاً لهم من هيمنة

الكنيسة وجبروتها، واعانه لهم على الثبات والاستقرار في الحكم، بصرف النظر عن سعادة الشعب أو شقائه .

ومن هؤلاء الفلاسفة المشهورين الألماني (عمانوئيل كانت) المتوفي سنة ١٨٠٤م والذي تكلم أيضاً بنفس الروح عن الصراع بين الفرد وبين المجتمع . وعنده أن المبدأ الطبيعي لأي نظام هو ذلك الصراع الذي يجده متأصلاً في الفرد ضد المجتمع، ويدعم فكرته بأن هذا الصراع هو الذي يستحث الإنسان ويدفعه إلى مزيد من تطوير قدراته الطبيعية .

وأما بالنسبة إلى الشعوب . فيقول أن هذه الروح الفردية تدفع كل شعب للممارسة حرية طليقة من كل قيد في العلاقات الخارجية و يترتب على ذلك أن تتوقع كل دولة الشر والعنف من الدولة الأخرى ، وهذه الأفكار ليست محل تسليم من المفكرين طبعاً ...

نعود إلى الكلام عن تزايد سلطة الكنيسة التي كانت تصدر قانون الحرمان ضد أي ملك أو أي أمير فيسقط عن عرشه ، أو يتوارى عن الناس نهائياً ، فخاف الجميع من هذه السلطات الهائلة ، وحدث ذلك التناقض في المجتمعات / ولجأوا إلى تفكير بعيد عن الألوهية وعن الربانية ، التي لم يجدوا لها طعماً .

وبسبب التعصب الديني الموروث لم يطبقوا لحقائق الإسلام فهماً ، وبدأوا يفكرون من عند أنفسهم لاصلاح الدنيا ، وهذا هو الخطأ الذي تورطوا فيه ، وهذا هو الذي نشأت عنه البأساء العالمية بسبب التقنين الوضعي ، الذي زاد في اذلال الناس وشقائهم ، ولا يستطيع مؤرخ منصف أن يتجاهل أثر اليهودية العالمية في هذا الاتجاه الضار ، فإن كثيراً من هؤلاء المفكرين تقريباً كانوا من اليهود أمثال دوركيسم واسيينوزا وداروين ، وفرويد وخبجل وكارل ماركس ، وكان الباقون من الملاحدة الذين نفضوا غبار الدين عن أنفسهم ، وصاروا يفكرون كأنهم آلهة هذا الكون ، فنشأت تلك الحضارة الزائفة التي هي أقرب إلى الوثنية منها إلى الربانية .

وانتشرت هذه الأفكار التي سمى أصحابها أنفسهم بالإنسانيين ، وبدأت

نظرياتهم تدرس في الجامعات ، وصارت مؤلفاتهم تتداول وترجم إلى شتى اللغات ، وأداروا ظهورهم للكنيسة والبابا ، فنشأت أجيال تتلمذت على هذه الأفكار، ثم نشأت الثورة الفرنسية وهي كانت أول انتفاضة عملية حققت هذه الأفكار في ميدان الواقع ، فبدأت بإلغاء الملكية ، ومن الثورة الفرنسية تولدت ثورات مشابهة ثم تلا ذلك بعد حين قيام الثورة البلشفية . ويقول اليهود في بروتوكولاتهم أنهم هم الذين أنشأوا الثورة الفرنسية ، ولما استقر في أذهان الناس أن الشعب هو مصدر السلطات ، قامت طبقة أخرى من العلماء تفكر في طريقة لتقييد سلطة الحاكم ، أو رئيس الدولة .

ثم أن عدداً من الفلاسفة رجعوا أيضاً في ذلك إلى الفكر اليوناني واقترحوا ما يسمى (بالديمقراطية) وهي كلمة يونانية الأصل ، وصاروا ينظمون القوانين ، وتكلموا عن الفصل بين السلطات الثلاث وهي السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية . فالسلطة التشريعية يمثلها نواب الأمة الذين ينتخبون بطريقة معينة ، ويجلسون تحت قبة البرلمان أو مجلس التشريع ، ثم تعرض عليهم مشروعات القوانين فيقرونها ، وتنتقل إلى مجلس آخر كمجلس الشيوخ ، أو مجلس اللوردات — للنظر والاعتماد .

وعندما تتم هذه المرحلة تصبح هذه القوانين نافذة المفعول ، بصرف النظر عن اتفاقها أو معارضتها لأي دين من الأديان ، أو أي تقليد من التقاليد ، وبذلك تتم صناعة الجهاز أو القالب الذي تصب من خلاله القوانين الوضعية .

فهنالك أولاً: الدستور: وهو يشمل المبادئ العامة التي قررت الدولة أن تسير عليها ، ومن خلال مواد الدستورية يتم تفصيلها بشكل أوسع في مدونات مختلفة ، تسمى بالقوانين منها قانون تحقيق الجنايات ، قانون العقوبات وقانون الاجراءات ، وقانون المرافعات ، والقانون المدني والبحري ، والقانون الجنائي ، والقانون الدستوري ، والقانون التجاري ، وغيره من القوانين . وكل منها يختص بناحية من نواحي الحياة .

وتلحق بهذا النظام أجهزة النيابة وهي السلطة التي تمثل الاتهام ، والمحاماة

وهي السلطة التي تمثل الدفاع عن المتهمين . ثم هناك محاكم الدرجة الأولى والثانية والاستئناف والنقض .

وقالوا بزعمهم أن هذا أمثل وأعدل ما يمكن أن يصل إليه البشر من خلال التطور التاريخي لصناعة الدساتير والقوانين ، ثم أحاطوا تلك الدساتير والقوانين بهالة من القداسة والتخويف . فمن خرج عن الدستور أو على قانون من القوانين توقع عليه أشد العقوبات ، وقد نصت القوانين ذاتها على ذلك لحماية وجودها ، ثم قالوا أنه لا عقوبة إلا بنص . ففات عليهم كثير من القضايا التي لا يوجد عليها نص في التشريعات الوضعية الموجودة ، كما استبعد بهذا التحديد أي قانون ديني أو عرفي ، والقضايا تستجد في كل يوم بشكل كثير ، بينما البشر عقولهم محدودة . ثم ظهرت فكرة الاحتياط على القوانين ، فالذي وضع القانون بشر والذي ينفذه بشر ، والذي يحتال عليه بشر فصارت هيئة المرافعات وهيئة المحامين ، أدوات لتعطيل كثير من الأحكام واسقاطها عن كثير من المجرمين ، بينما يتورط فيها كثير من الناس البراء ، لأنهم لم يجدوا من يدافع عنهم ، أو لم يستطيعوا أن يوقفوا سلطات القوانين ، أو حتى أن يحيطوا بها علماً ، ومعلوم أن القوانين متخلفة عن المجتمع ، فقد وضعت لتلاحق المكر الذي يكره الناس ، بعضهم على بعض ، أو الحيل أو الاختلاسات أو الجرائم أو السرقات ، بينما القوانين الآلهية سبقت فكر البشر ، فقد احاطت الناس بدءاً من قلوبهم وعواطفهم ، قبل أن يتصرفوا ، وليس بعد أن يتصرفوا .

وكانت الدول ذات النفوذ تفرض العمل بالقوانين الوضعية على الدول التي تخضع لنفوذها ، أو التي تنوي السيطرة على خيراتها .

وبالنسبة للبلاد المصرية بالذات ، عندما أرادت أن تستقل وعين (أحمد فؤاد) سلطاناً . اشترط عليه لكي يصبح ملكاً أن يضع الدستور ، حتى تعطى البلاد استقلالها ، وقد شكلت لجنة الدستور وبمعرفة المندوب السامي البريطاني .

هذا الدستور اقتبس من الدستور الفرنسي والدستور البريطاني والهندي وكان من أعضاء لجنة الدستور رجل فرنسي وآخر بلجيكي وآخر بريطاني ، وآخر

هندوسي ، وعضو ايطالي ، وآخر مسيحي مصري . ولم يكن في هذه اللجنة مسلم واحد ، والغرض من ذلك واضح ومعروف .

ثم صدر الدستور وهلل الناس له ، وأقسم أعضاء البرلمان على احترامه والسير تبعاً لأحكامه ، ومن الدستور انبثقت القوانين ، ثم نشأت كلية الحقوق في الجامعة لتدرس هذه المسائل الجديدة للطلاب ، فنشأ جيل يخضع لهذه القوانين ، ويعكف على حفظها ، ويعيش في ظلها ويتعامل بها ، وتركت آيات الله وشريعته وراء الناس ظهرياً .

أما بالنسبة للأزهر ، الذي هو مدرسة الشريعة الإسلامية من قديم ، فلقد كان هناك هيئة كبار العلماء من ٢٥ عالماً وهم ينتخبون شيخ الأزهر ، انتخاباً حرّاً . ثم امتدت يد السلطة إلى هذه الهيئة فالغيت حوالي سنة ١٩٣٦ ، وصار تعيين شيخ الأزهر يتم من قبل الملك مباشرة ، ويعتبر موظفاً كسائر موظفي الدولة ، بينما كان يسمى (شيخ الإسلام) وكان يمثل السلطة الدينية في العالم الإسلامي .

ولما استقر هذا الوضع في البلاد المصرية ذات الثقل الدولي المعروف ، طلبت سلطات الاحتلال والانتداب من باقي الدول الإسلامية والعربية أن تحذو حذو مصر ، في الأخذ بالقوانين الوضعية ، واستبعاد الأحكام الشرعية — ففعلت ذلك مكرهة ... أو كئثمن للاستقلال ... ولا زال الحال كذلك .

وإذا انتقلنا إلى الأنظمة الدولية : فقد نشأت عصبة الأمم في مطلع هذا القرن الميلادي ، وكانت تفصل في النزاعات الدولية ... ثم فشلت المرة بعد المرة — فنشأت هيئة الأمم المتحدة كبديل عنها . وكان أعضاؤها — الممثلون للدول الأعضاء فيها ، وانبثقت عن هيئة الأمم المتحدة هيئة تسمى (مجلس الأمن) وهو مكون من ١٣ عضواً ، منهم أربعة أو خمسة لهم حق الفيتو ، وهم ممثلو الدول الكبرى .

فكل قرار يصدر من هيئة الأمم يعتبر توصية لمن يريد أن يقبله أو لا يقبله ، ثم يعرض على مجلس الأمن كجهاز تنفيذي ، وهذا الجهاز لا ينفذ شيئاً وإنما يصدر

قرارات أيضاً، وكل مشروع قرار يعرض على مجلس الأمن، فإن لم يعجب دولة من هذه الدول الخمس صاحبة الحق (الفيتو) يمكن أن يرفض أو يسقط. وهكذا يتعب السفراء وتنفق الأموال الطائلة لتجهيز قرار معين، ثم يرتفع أصبع من أحد الأعضاء الذين لهم حق (الفيتو)، فيسقط القرار. وهذا هو الوضع العجيب الذي أدى إلى ضياع حقوق الإنسان، بل ضياع قضايا الشعوب، وحتى لو صدر القرار فإنه يعتبر اختيارياً بالنسبة للدولة المحكوم عليها، أو يعتبر إدانته أدبية لها، كما هو الحاصل مع جرائم إسرائيل، لقد أدانها مجلس الأمن أكثر من مائة وخمسين مرة، لكنها لم تبال بتلك القرارات، استناداً إلى مبدأ سيادة كل دولة على أراضيها — ولذلك فإنها منظمة قليلة الجدوى من ناحية تحقيق العدالة، لكن هيئة الأمم لها فروع أخرى تؤدي خدمات للإنسانية، مثل محكمة العدل الدولية ولجان تصفية الاستعمار ومنظمة العمل الدولية، ومثل منظمة الأغذية والزراعة، منظمة اليونسكو للآداب والعلوم والفنون.

ولقد سألت أحد السفراء الأجانب: قلت و(ما بالكم تهتمون بقضايا المجتمع المسيحي الأوربي ولا تحكمون لشعوب العالم الثالث؟) فقال الرجل بصراحة (اننا أنشأنا هذه المؤسسة لتفصل بيننا نحن الأوربيين. ثم انكم طلبتم الانضمام إليها فقبلنا ذلك، لكن ليس من حقكم أن تطمعوا في أن تنالوا فيها من الحقوق مثلنا، وهذا كلام صريح يؤيده الواقع فهم يكيلون بكيلين، ويزنون بميزانين، فلا نكاد نجد خصومة معلقة بين دولة أوروبية وأخرى، إلى سنين عديدة، مثل ما نراه في قضايا جنوب افريقيا وقضايا اريتريا وقضايا فلسطين وغيرها، من تلك البلاد التي تسيل فيها الدماء أنهاراً، فالعصبية الدينية المختفية في قلوبهم، موجودة وإن لم يعلنوها.

ننتقل الآن للكلام عن: النظرية الإسلامية في العلاقات الدولية وفي التشريع: يقرر الإسلام أن الله تبارك وتعالى هو مصدر السلطات، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (السيد الله) فالسيد هو الذي يطاع طاعة مطلقة، ويستحق أن يكون ملك كل شيء، ورب كل شيء، ومصدر كل شيء، وصاحب الشريعة كذلك — فالأمور الأساسية في ديننا مقيدة بشريعة الله، وهي

واضحة مقررة ولكن الإسلام سمح للناس أن يتصرفوا وأن يضعوا من اللوائح ما ينظم علاقاتهم في الأمور المستحدثة، وفيما لا نص فيه من قرآن وسنة، بحيث لا يتعارض مع أصول الشريعة الإسلامية.

وقد عاب الله على قوم من المنافقين قولهم: (نؤمن ببعض ونكفر ببعض) فقال عنهم (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً... أولئك هم الكافرون حقاً)، فالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض يعتبرون هذا القليل مرفوضاً وغير صالح — وفي هذا احتجاج على الله، وزعم منهم بأنهم أوسع علماً أو أعدل من الله، تعالى الله عن ذلك، فالإقتباس من الشريعة الإسلامية لا يعتبر حكماً بما أنزل الله، إنما كما قال الله عز وجل (تؤمنون بالكتاب كله) وكما قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك. فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلين يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون).

من التاريخ الإسلامي

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، أما بعد فهذه المحاضرة عنوانها « من التاريخ الإسلامي » . نبدأ بعون الله بالكلام على أهمية التاريخ :

إن التاريخ هو معمل التجارب البشرية التي مرت بالأفراد والبلاد عبر القرون ، ليستفيد الحاضر من عمل الماضي ، ولينظر الأحياء إلى ما فعل الأموات ، وما نالهم من جزاء في الدنيا ، وما ينتظرهم من جزاء في الآخرة ، على أعمالهم التي قاموا بها ، إن كان خيراً فهو خيراً ، وإن كان شراً فيكون شراً .

والتاريخ يوفر للناس التجربة و يوقفهم أمام المرآة في سنن الله الكونية التي تمربهم ، ولقد عنى القرآن الكريم بذكر أنواع من قصص السابقين ، لكي يعلمنا ، ولكي يثبت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) ويقول تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك) ويقول تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين) .

والذي لا تاريخ له لا حاضر له ، والأمم الآن تقرأ الأحجار ، وتنش الأرض وتجمع الآثار ، لتعرف على ما كان من أمجاد أجدادهم ، إما ليستعلوا به على خلق الله ، أو ليستفيدوا مما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم ، ولكننا نقرأ التاريخ ، لنرى سنن الله الماضية في الكون ، ولنعلم أن الله على كل شيء قدير ، قال تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت بعيشها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين) .

تحريف التاريخ ولقد حدث في عصور شتى ، أن حُرِّف الحق وظهر الباطل ، وضاعت أكثر الحقائق المهمة في التاريخ ، ذلك لأن الذين قدروا على التدوين

والاملاء والحفظ، أو النقش في الأحجار، كانوا هم الأغنى والأقدر... أما الكادحون والفقراء والمسحوقون، فلم يكتبوا شيئاً، ولم يثبتوا شيئاً، إنما شغلهم هم الرزق وثقل الحمل على أكتافهم، فمروا في العصور صابرين، يشكون إلى الله ظلم القادرين، لذلك فإن الآثار والأحجار والأوراق المحفوظة، لا تدل دلالة صريحة على التاريخ، وإن كانت تعطينا مؤشرات يستفاد منها أحياناً.

ولقد أسيء استخدام التاريخ بسبب هذا التحريف، وفرضت من أجله نظريات على الناس لا أصل لها ولا حقيقة، يذهب العالم من العلماء فيطوف في الأرض يحفر هنا وهناك لكي يجمع العظام والآثار، حتى يصل إلى حقيقة هو قررها من قبل، أو لتحقيق افتراض قام في ذهنه مسبقاً/ كما فعل «داروين» في قضية النشوء والارتقاء في كتابه «أصل الأنواع».

كما أسيء استخدام التاريخ، كما حدث في تزيف فلسفة التاريخ. ولكن النظريات غير القوانين العلمية الذي تثبت بالبراهين، أو ما أخبر عنه خالق الأشياء.

ولقد جاء القرآن الكريم بتصحيح التاريخ، فذكر أشياء سبق أن ذكرتھا الكتب السماوية السابقة، فقد تحدثت التوراة والانجيل عن الطوفان، وعن موسى وعيسى بن مريم، وعن أهل الكهف وعن أصل الخلق، وتحدثت أيضاً عن أشياء من المعجزات وأمور الغيب، ولكن القرآن تناولها من زاوية أخرى، ليصحح ما حرفه الكهان والرهبان والمترجمون، ولذلك فالذي في القرآن كثيراً ما نجده يعارض تلك القصص والروايات، التي وردت في الكتب السابقة وشروحها لأنها ليست من كلام الله ولا من كلام الأنبياء.

والتاريخ قسمان تاريخ قديم وتاريخ حديث. فبالنسبة للتاريخ الحديث: فقد تم توثيقه وتمت البرهنة على صحته بسبب انتشار الكتب والتدوين، وانتشار التعليم وتوفر الأجهزة والآلات والشواهد، وقرب العهد به، والتاريخ الحديث أكثره موثق لمن أراد أن يعرف الحق فيه، وإن كان قد وقع فيه التزوير من جانب الأقوياء أيضاً بدرجات متفاوتة، وكان ذلك التزوير مقصوداً، لا بسبب الجهالة ولكن بسبب الهوى والعمالة.

وكل التواريخ الحديثة للدول والأمم موجودة مدونة ، لها مراجعها ولها وثائقها ، وبعضها مصور ثابت محقق .

أما التاريخ القديم فقد وقع فيه الكثير من الخلط والخطأ والنسيان ، ولما كان الإسلام آخر الديانات ، فقد كان تاريخه موثقاً ، ولما كان المسلمون في تدوين القرآن الكريم والحديث الشريف على خوف شديد من عقاب الله وكانوا على جانب عظيم من الحذر ، خصوصاً فيما يتصل بالشريعة والعقيدة ، فقد حفظت الآثار المرتبطة بدين الله وتنزهت عن كل تغيير وتحريف ، بأمانة علمية لم يشهد التاريخ لها نظيراً .

أما التاريخ المتعلق بالأشخاص والأفراد والحكام في الإسلام ، فمنذ نشأت الأحزاب والفرق بعد القرن الأول حصل خلط كثير ، وحصل كذب كثير ، واقتراء على ناس صالحين ، وأبراز الناس فاسدين ، قال هذا واعترف به بعضهم ، وقال مثله خصومهم .

إذن هناك من السير والتواريخ ما له سند وما لا سند له ، ومن خلال ذلك أيضاً نستطيع أن ننفذ إلى الحق الذي يؤخذ به بوجه عام ، وعلى كل حال فإن أخبار الرجال والأحداث ، مما لا يبنى عليه حكم شرعي ، ولا يقوم به دين يعتد به .

لكن التاريخ الإسلامي من بعد القرون الأولى ، يحتاج لاعادة النظر فيه ، ولتصحيح ما يجب تصحيحه منه ، والتواريخ الأخرى خصوصاً المتعلقة بالاديان القديمة جداً ، وإذا نظرت في تواريخ الملل الأخرى (غير أهل الكتاب) رأيت مجموعة من الخرافات قالها ناس ودونها قبل آلاف السنين ، ثم تناقلها أتباعهم أو نقشوها وأقاموا لها المعابد الهياكل ، وسار على ذلك الملايين من البشر في أنحاء الأرض ، وأنت حيث تقف عند تلك الأساطير لا تجد لها هدفاً ولا معنى ، ولكن هناك من يتحمس لها ويراهها عبادة واجبة الاتباع .

مناهج دراستنا للتاريخ الإسلامي ليس التاريخ الإسلامي تاريخ فكر وأحداث ، وظواهر اجتماعية وأوضاع سياسية فقط ، بل هو أيضاً تاريخ عقيدة شاملة ، لها سماتها وخصائصها ومقوماتها المميزة ، ولذلك فإن نظرة المستشرقين له

عموماً، تختلف على نظرتنا نحن المسلمين، فنظرتهم في كثير من الأحيان، مجانية للواقع، وكثير منهم لا يفهمون طبيعة هذه العقيدة، فيخطئون في فهم تطبيقاتها. ولا بد من البيان هنا، بأن في جهود بعض المستشرقين ما كان مخلصاً ونافعاً أحياناً، وإن في بعض ما قدموه خدمة لثرائنا، مهما كانت الدوافع التي وراءه.

لكنهم لا يؤمنون بالإسلام، ولا يعترفون به، ولا بما ينتج عنه، فنحن وهم مختلفون، ليس فكراً أو ثقافة فحسب، بل أيضاً ولأء ومنطلقاً من الأساس/ أما الاستشراق الماكر فهو وليد التبشير، وإن لبس لباس البحث العلمي، كما لبس التبشير من قبل لباس الرحمة، وتظاهر بالعطف على الناس، وادعى الانقاذ ونشر المعرفة، ثم استطاع المبشرون أن يسيطروا على كثير من بلداننا الإسلامية، لأنه كان مقدمة مهيأة للاستعمار.

فيجب ألا تقتصر دراسة التاريخ الإسلامي في كافة المراحل على سرد الأحداث المعنية، ولكن لا بد من الالتفات إلى الجوانب الأخرى، الفكرية والحضارية والاجتماعية، وتقويمها ودراسة أبطال هذه الأمة، ومواقفهم في كل الميادين خاصة أيام المحن والنكبات، وهذا الأمر تبدو الحاجة إليه كثيراً في مرحلتنا الحالية.

أما الإسلام فلم يكن يعوزه لكي ينتشر سوى أن يخلى بينه وبين الناس. ومن هنا كانت ضرورة الجهاد.

كان القتال في الفتوحات الإسلامية، لازاحة العوائق التي تمنع الناس من استعمال عقولهم، وتحول بينهم وبين ما يختارون لأنفسهم، كانت الصعوبات التي لاقاها الإسلام في الدعوة كبيرة جداً، وفي مقدمتها مقاومة المشركين العنيدة. ومع ذلك فقد بقي المسلمون خلال فترة طويلة صابرين على ذلك، معترزين بأصالة الدعوة ووضوحها وإشراقها، وقيامها على الجدية والصدق والأمانة والشرف، مستلهمين من طاقة التحمل الكبيرة عند الداعية الأول صلى الله عليه وسلم، وإن دعوة الإسلام بقوتها العقيدية وسموها، انتشرت بعد ذلك بسرعة، واستمرت وستبقى بعون الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فهل كان ذلك بدافع مادي أو نفع اقتصادي؟ كلا بل العكس هو

الصحيح . لقد كان المسلمون يحافظون على إسلامهم و يلتزمون به طوعاً .

تسامح الإسلام والمسلمين

لقد كان التسامح الإسلامي مثالاً جداً ، لا يمكن أن يصدر عن قوم غير المسلمين ، وعن دين غير الإسلام . وإلى القارئ الكريم هذه الصورة التي أثمرها هذا التسامح .

روى التاريخ أنه لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فيه كتب الأهالي النصارى إلى المسلمين يقولون ، يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا ، وأغلق أهل حصص أبواب مدينتهم ، دون جيش هرقل وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم ، أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم .

مخطط الدرس على التاريخ الإسلامي :

انها أمور قديمة وهي متنوعة وكثيرة وجهت نحو حصون الإسلام .

وهي عقائده — وحماته (رجاله ودولته) ، وتاريخه وحضارته ...

ثم تلك الحركات والتيارات المتنوعة خلال التاريخ التي قامت ضده .

ولذلك رأى أعدؤنا أنه لا بد من دراسة التاريخ وتدريسه ، بشكل معين ، لا يحقق إلا أغراضهم . إما بإخفاء الحقائق المهمة ، أو بالاختصار على موضوعات معينة ، وعرضها بأسلوب خاص . ثم توجيه الأنظار إلى تواريخ الأمم الأخرى ، لزرع الإعجاب بها وصرف الأنظار إليها .

حتى ليصور للدارس أحياناً ، بأن تاريخ الإسلام في المدينة المنورة وهو الذي يمثل ذروة انتصاره وانطلاقه إلى الوجود الواقعي ، ليس إلا تاريخ معارك وحروب ، وحتى هذه المعارك ، فهي تدرس بدوافع معينة ، صورتها لهم أفهامهم المنحرفة ، حتى أننا لو حذفنا هذه المعارك لما بقي في كتب المدارس إلا قليل من صفحاته .

ثم ماذا نعرف بعد ذلك؟، لا نعرف إلا قليلاً عن نشاطات المسلمين الأخرى في المدينة، بعد أن أقاموا المجتمع الجديد، الذي لم يكن جديداً في وجوده فقط، لكنه كان جديداً في عقائده وأفكاره، وفي مفاهيمه وتعاليمه، في موازينه وآفاقه، في روحه ومشاعره وفي كيانه وبنائه، في طبيعته وأهدافه، ويعبر عن هذا المستشرق الفرنسي «ماسينون» في أكثر من موقف تعبيراً سيئاً، علماً بأن هذا المستشرق كان يعمل في الجيش الفرنسي في لبنان، في المكتب الثاني للتجسس برتبة نقيب. ومن مآثره ما يروى أنه هو الذي أشرف على الاستفتاء في لبنان (بعد الحرب العالمية الأولى أيام الاحتلال الفرنسي) فزور هذا الاستفتاء، حيث كان يوزع الليرات الذهبية لشراء التأييد لما يريد، وما علمنا أنه تغير، بل إن مواقفه من الإسلام والمسلمين بقيت تنم عن الحقد والكراهية.

عروبة أم إسلام

أولاً: لقد كان من نتائج هذا الاتجاه، أن عرّب أصحابه الانتاج الإسلامي الحضاري، كما عربوا تاريخه، ولعلها محاولة لتعريب الإسلام، ثم إلى تعطيله، وعلى هذا الأساس، أعطى للمسائل ذات الطابع الإسلامي طابع العروبة، وهكذا وجدنا مثلاً سلسلة تراجم لمشاهير المسلمين. منهم ابن جرير الطبري، والظاهر ببيبرس، وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم (وهم ليسوا عرباً) تسمى سلسلة أعلام العرب، أليس من الصواب أن يطلق على هذه السلسلة «أعلام الإسلام» ثم رأينا كتاباً آخر يخرج بعنوان «محمد والقومية العربية» فيا لله، هل كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم داعية لقومية؟ كلا... بل كان محارباً لها، وحين كان يأتي الرجل مسلماً، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن هويته الشخصية لمعرفة جنسه أو نسبه، أو أي شيء آخر، ما كان يهمه غير صدق انتمائه إلى هذا الدين، وكان النسب الذي يعتز به الجميع هو الإسلام.

ثانياً: أن اللغة العربية هي اللغة التي كتب بها أكثر التراث الإسلامي، والانتاج الفكري لم يكن ذلك دائماً مرتبطاً بجنس أو قومية. بل لأنها لغة القرآن الكريم، الذي انزل بها، لذلك اتخذها البربر مثلاً — بعد إسلامهم لغة لهم — وذلك لحبهم الشديد للإسلام، ولقد لاقت اللغة العربية حرباً عنيفة من

أعداء الإسلام، لأنها لغة القرآن، فقامت دعوات متعددة، هدفت إلى إضعافها، بل إلى إطراحها كالدعوة المافونة إلى اتخاذ اللهجة العامية بديلاً عن الفصحى.

عوامل الضعف في هذه الدولة:

كانت الشعوبية (العنصرية غير العربية) موجودة بشكل ظاهر ثم وضع للعباسيين تزايد نفوذ الفرس وهم الوزراء الذين جلبوا أقاربهم من الفرس وصاهروهم، ومالوا إليهم واستوزروهم، فأقصوا العرب ثم استعانوا بالعنصر التركي، واستكثروا منهم في الجيش، في عهد الخليفة المعتصم، ودارت الأيام دورتها، وجاء ثأر الله لهم، فوجدوا من الأتراك عنتاً شديداً، وأصبحوا لا أمر لهم معهم ولا نهى، وانتهى الحال بأن أصبح الخليفة زمن الأتراك السلاجقة، خليفة بالاسم فقط، والنفوذ كله للسلطان السلجوقي، وربما قام بين الجانبين من الصراع والمغالبة ما قام به البابوات والأباطرة في أوروبا، في العصور الوسطى، إلى أن جاءت غارة التتار في القرن السابع الهجري، فأتت على الدولة العباسية، وقضت عليها قضاء تاماً.

وكان قد تطرق إليها الضعف قبل ذلك بسبب الخلاف بين الفرق الإسلامية، داهمها الشيعة والخوارج، ثم بسبب قيام الحركات الشعوبية، ونشوء القوميات، داخل الدولة. هذا إلى جانب إتساع رقعة الدولة، وصعوبة الاتصال بين أجزائها، من جانب الحكومة المركزية، وكان من نتائج هذا الضعف الذي دب في الخلافة العباسية نشوء دويلات انفصالية في أقصى الشرق، في فارس والعراق وما وراء النهرين، (يعني نهر السند) وكان طابع الرئاسة في هذه الدولة، خليطاً من العرب والعجم والموالي والأتراك، بل يمكن القول بأن العنصر غير العربي كان هو الغالب في أكثر الأوقات.

ملحوظة:

وبحسن هنا أن نقتصر على التاريخ الهجري (ويمكن معرفة الميلادي بإضافة نحو ٦٢٠ عاماً على الهجري) لقد استقل الزيدون وبني يعفر في اليمن عن الخلافة العباسية سنة ٢٠٤ هـ

تدوين التاريخ:

وأما بالنسبة لنا نحن المسلمين فقد بدأ تاريخنا الديني بعصر النبوة — عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم — أي في مطلع القرن الأول الهجري ومنتصف القرن السادس الميلادي . وفي هذا العصر وعصر الخلفاء الراشدين — تم التدوين بدقة كاملة كما أشرنا — فوضع المؤرخون كتب السير سيرة النبي صلى الله عليه وسلم — وتاريخ الجهاد والتربية والتعمير، ونشأة الحضارة المتميزة وغيرها — ثم سيرة الخلفاء الراشدين — كما دونت كتب التاريخ للدولة الأموية — التي استمرت قرابة ثمانين عاماً — والدولة العباسية ثم الدويلات — انشعبت عنها في أقطار الأرض — عندما اتسعت رقعة الإسلام فلم يكن شيئاً مجهولاً ولا محلاً للتخمين .

بدء التاريخ الإسلامي: عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد عشر عاماً بعد هجرته إلى المدينة المنورة، ومن حادث الهجرة يبدأ التاريخ الإسلامي — ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم — عام ١١ هجرية — ٦٣٢ م ترك مسألة الحكم من بعده دون أن يبت في أمرها — لكي تكون شورى بين المسلمين عملاً بقوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم» — يقررون فيها ما يستقر عليه رأيهم — ثم اتفقت كلمتهم على مبايعة أبي بكر رضي الله عنه بيعة عامة — وبذلك بدأ عصر الخلفاء الراشدين — وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين . وامتدت الفتوحات في هذا العهد المبارك — حتى شملت العراق واليمن وليبيا وبلاد فارس — وشطراً من أرض الروم — فضلاً عن جزيرة العرب — التي دانت للمسلمين بكاملها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم — واستمر هذا العهد إلى سنة ٤٠ هجرية (٦٦٠ ميلادية) .

ويعد لمؤرخون الإسلاميون علي بن أبي طالب آخر الخلفاء الراشدين، وكانت المدينة المنورة عاصمة العالم الإسلامي حينذاك .

الدولة الأموية

ولقد بويع «لمعاوية» بعد مقتل «علي» بيعة عامة ٤٠ هجرية، وتنازل له الحسن بن علي بعهد مكتوب .

ونحن لا نقول في معاوية إلا خيراً — لأنه صحابي جليل وكان من كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم — ولكنه رأى في آخر أيامه أن يرشح ابنه يزيد للخلافة، خوفاً من قيام حرب جديدة — وقد بويع له أيضاً بيعة عامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولكن بعض المسلمين رأى في ذلك ميلاً إلى فكرة الملك، والله أعلم بالنيات — وكانت دمشق مقر حكم الأمويين، وكان طابع الرياسة عربياً قرشياً في هذه الدولة.

وامتدت رقعة الإسلام إلى أن شملت جزيرة العرب والبلاد الشامية كلها — «سوريا ولبنان وفلسطين والأردن» — ثم العراق وإيران والسودان ومصر والشمال الأفريقي كله: «ليبيا وتونس والجزائر والمغرب» وفي نفس الوقت هاجر عبد الرحمن الداخل الأموي إلى المغرب — حيث استولى على بلاد الأندلس في هذا العهد — ثم سقطت الدولة الأموية على يد العباسيين سنة ١٣٣ هـ ٧٥٥ م أي أنها استمرت تسعين عاماً — بينما استمرت أسبانيا تحت أيدي المسلمين إلى ثمانية قرون.

الدولة الأموية : وقد حكم منهم (١٤ رجلاً) هم :

معاوية ويزيد ومعاوية بن يزيد — مروان بن الحكم بن أمية . عبدالله . الوليد . سليمان — عمرو بن عبد العزيز — يزيد بن عبد الملك — هشام بن عبد الملك — الوليد بن يزيد — يزيد بن الوليد — إبراهيم بن الوليد ثم مروان بن محمد بن مروان وهو آخر حكامهم .

الدولة العباسية : ثم انتقل الحكم إلى العباسيين — على أثر انتصارهم على آخر الأمويين في موقعة «نهر الزاب سنة ١٣٣ هـ» — وكانت عاصمة حكمهم مدينة بغداد وكانت دولة قوية — واستمرت تحكم زهاء خمسة قرون — وبدأت الدعوة إليها سرّاً في أطراف إيران وخراسان — وهم أيضاً يستندون إلى قربتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم — عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب .

وقد حكم منهم «سبعة وثلاثون رجلاً» أشهرهم عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس «المسمى بالسفاح» ثم أبو جعفر المنصور — ثم المهدي والهادي —

وهارون الرشيد والأمين والمأمون — والمعتمد والواثق — والمتوكل — والمكثفي — والمقتدر — والناصر — ثم آخر خلفائهم المستعصم الذي قتله التتار بقيادة هولاء سنة ٦٥٦ هـ، وأزالوا نفوذ هذه الدولة .

نبذة عن التتار: كان المستعصم قد عهد بجميع أموره إلى وزيره « مؤيد الدين ابن العلقمي » الرافضي الشيعي — وكان ذلك سبب هلاكه وزوال ملكه — وكان من أعوانه ابن أبي حديد — (شارح نهج البلاغة) . فصار ابن العلقمي يكتب هولاء كوسراً — ويطمعه في ملك بغداد — ويخبره بكل أخبارها وصورها — وصار يحسن للمستعصم توفير الخزائن — وعدم الصرف على العسكر — ويأذن لهم أن يذهبوا حيث شاءوا — وحضر التتار وجالوا في الأرض يخربون كل شيء — وابن العلقمي يخفي عن الخليفة الأخبار — حتى حاصروا بغداد — فخرج المستعصم لقتالهم — وصبر أهل بغداد حتى هلك أكثر الناس ، واستمر الذبح في المسلمين أربعين يوماً — وقيل أن القتلى بلغوا ألف ألف رجل ، وسبيت النساء والأطفال ، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أوقناة .

وزين الوزير للمستعصم أن يصالح هولاء — على أن يصاهاه . فخرج الخليفة في أعيان دولته ، وأعدت خيمات كبيرة لحضور الوفود من الأعيان والفقهاء — لأجراءات العقد ، فكانت تضرب أعناقهم فوجاً بعد فوج — حتى هلك الناس . ثم أن الخليفة حُمل إلى هولاء كواً ، فأمله أياماً حتى استصفى كل أمواله وأملاكه ، ثم وضعه في غرارة ، وأمر جنوده أن يرفسوه بالأرجل حتى مات . وأخذ هولاء كوجميع النقود وأمر بحرق الباقي — ورمى الكتب في دجلة حتى كانت جسراً يمشون عليها مشاة وركباً .

دويلات مختلفة :

أما في مصر والشام فقد استقلت الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هـ ثم تبعتها الدولة الإخشيدية — في نفس تلك الأقاليم سنة ٣٢٥ هـ . وفي ليبيا وتونس انفصلت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ .

وفي الجزائر قامت الدولة الرستمية سنة ١٥٩ هـ .

وفي المغرب قامت دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ.

ثم جاءت الدولة الفاطمية الشيعية بعد الإخشيديين سنة ٣٥٨ هـ واتسع ملكهم فشمّل جزيرة العرب والبلاد الشامية في مصر والشمال الأفريقي — بينما حكم السلاجقة منطقة العراق وجزيرة العرب والخليج وجزء من الشام سنة ٤٣٥ هـ.

الدولة الفاطمية:

مؤسس هذه الدولة هو عبيد الله (الملقب بالمهدي) وهو ينسب نفسه إلى آل البيت ولكن أكثر المحققين يذكرون أن جده كان يهودياً حداداً والعبيديون هم من طائفة الإسماعيلية المنبثقة عن الشيعة.

وكان قد استفحل أمرهم بالشمال الأفريقي — وحاولوا غزو مصر مرات عديدة — إلى أن تم لهم ذلك على يد جوهر الصقلي الرومي سنة ٣٥٨ هـ واختط مدينة القاهرة، وحضر المعز لدين الله (حفيد عبيد الله المهدي) — واستقر في مصر — وأظهر التشيع — وبنى الجامع الأزهر — لتدرس فيه علومهم.

وقد حكم منهم أحد عشر رجلاً من أشهرهم المعز لدين الله الفاطمي — ثم العزيز نزار — ثم ابنه الحاكم بأمر الله (الذي يعتبر معبوداً عند الدروز) ثم الظاهر — ثم المستنصر — ثم العاضد وهو آخرهم وكان من وزراء العاضد الوزير شاور الذي اتصل بالصلبيين سرّاً — ودعاهم للقدوم إلى مصر. وجاء بعده أسد الدين شيركوه.

الدولة الأيوبية

وقد استوزر العاضد صلاح الدين — ثم استقل صلاح الدين بحكم مصر — وأزال الدولة الفاطمية — وبدأت الدولة الأيوبية السُّنيّة إلى ٥١٦ هـ. وقد حكم من هذه الدولة أحد عشر رجلاً في مصر والشام وامتد سلطانهم إلى اليمن.

ومن أشهر حكامهم صلاح الدين الأيوبي الذي استرد بيت المقدس وأجلى الصليبيين عن البلاد — وأراح الناس من شرهم — وهو كردي الأصل — ثم

ولده العزيز عثمان — ثم المنصور ثم العادل والكامل والصالح نجم الدين وتوران شاه وشجرة الدر التي حكمت باسم توران شاه وباسم زوجها الملك الصالح ، ثم الأشرف موسى .

وقويت شوكة المماليك بعد ضعف الدولة الأيوبية ، ونشأت دولة المماليك التركمانية وكان احتلال الصليبيين للبلاد الشامية ومصر إبان عهد الدولة الفاطمية ، والدولة الأيوبية ودولة المماليك وكان حقد الصليبيين عظيماً فقتلوا مئات الألوف من الخلائق بدون ذنب — وأخلوا بيت المقدس — واستمرت بقاياهم إلى عهد المماليك — الذين قاتلوهم في مصر قتالا عنيفاً ، ومن أشهر حكام الدولة الأيوبية نور الدين محمود وهو عم صلاح الدين ، وكان رجلاً صالحاً ورعاً ، حكم البلاد الشامية .

فالدولة المملوكية التركمانية حكم فيها ٢٤ رجلاً وأشهرهم الملك المعز أيبك التركماني الصالحى وابنه منصور نور الدين علي ، ثم ابنه المظفر قطز ، الذي رد التتار عن بلاد الإسلام وهزمهم في موقعة (عين جالوت) وكان من القادة معه أحمد بن تيمية — وخلص الله العباد من شرهم — ثم الظاهر بيبرس — والمنصور قلاوون الألفي — والسلطان حسن بن قلاوون والأشرف شعبان .

ثم قامت على أثر ذلك دولة المماليك الشراكسة : وقد حكم منهم ١٧ رجلاً أشهرهم سيف الدين برقوق ، وقد أحضر المستعين بالله العباسي من بغداد (لكنه كان يحكم بالاسم) والأشرف برسبائي — والظاهر جقمق — والأشرف قايتبائي والعادل طومان باي — والأشرف قانصوه الغوري ، وهو آخر هؤلاء المماليك .

ثم جاءت الدولة العثمانية على أثر ذلك .

هذه الدولة أسسها عثمان أرطغرل في أواسط آسيا ، ومن أشهر حكامهم أورخان بن عثمان — والسلطان مراد بايزيد — ومحمد الفاتح ، وسليم بن بايزيد ، والسلطان أحمد بن مراد — والسلطان مصطفى — وعثمان بن أحمد — وابراهيم بن أحمد — ومحمد بن ابراهيم — وعبد الحميد وعبد المجيد الثاني —

وهو آخرهم . وكان عدد خلفاء هذه الدولة خمسة وعشرون (رجلا) وبدأت سنة ٨٢٢هـ واستمرت إلى سنة ١٣٠٥هـ (أي ١٩٢٤م) .

وكانت هذه الدولة تحكم جزيرة العرب والبلاد الشامية ومصر والخليج والشمال الأفريقي وأجزاء شاسعة من أوروبا وآسيا، فكانت بحق من أقوى الامبراطوريات الإسلامية، ولكن بدأ الضعف يدب إليها وتستقل الأقاليم عنها، فاستطاع الأشراف أن يحكموا المغرب، وأسر الباي — بعد مدة حكمت تونس، والزيدون يحكمون اليمن — لكن الدولة العثمانية — والحق يقال — كانت رباطا قويا للأمة الإسلامية — وكانت مهيبة الجانب، حتى وقعت في الترف والاستعلاء — وحصل الفساد في فرق الجيش — ودخل يهود «الدونما» إلى القصر وتسلبوا بأسماء إسلامية وكان الأتراك يفرحون باسلامهم، ويولونهم أعلا المناصب، فأفسدوا سمعة الدولة، وبذلك أصبح القرن الثامن عشر من تاريخ الدولة العثمانية هو نقطة التحول، وساعد الأعداء على ظهور النزعات القومية، التي تنادي بالاستقلال عن تركيا — على حين أخذت الدولة تنكمش رويدا رويدا — وتغرق في الديون. وفي نفس الوقت أخذت الدول الأوروبية المجاورة — تزيد من مساحتها على حساب الدولة التركية — وفي سنة ١٩١٤ قامت الحرب العالمية الأولى وكانت بين فريقين من الدول الأوروبية — إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا في جانب، وألمانيا والنمسا في جانب — وحاربت تركيا إلى جانب هؤلاء الحلفاء وانتهت الحرب بعد أربع سنوات بهزيمة ألمانيا وحلفائها، واحتل الانجليز وحلفاؤهم سواحل بحر مرمرة/ وحاصروا العاصمة اسطنبول سنة ١٩٢٢ ثم عقدت هدنة «موراقيا» التي نصت على جلاء إنجلترا وحلفائهم عن هذه البلاد، مع اقتسام بعض الأملاك التركية — ثم أعلن المجلس الوطني الكبير إلغاء السلطنة العثمانية — واعلنت الجمهورية التركية في أكتوبر سنة ١٩٢٣ وانتخب مصطفى كمال أتاتورك رئيساً لها — فلم يلبث أن أعلن إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤، وإزالة الطابع الإسلامي عن تركيا. وأخرج من تركيا آخر خليفة كان موجودا بها إذ ذاك وهو السلطان عبد الحميد الثاني — وحرم استعمال اللغة العربية، وبذلك خلا العالم الإسلامي للمرة الأولى في تاريخه ممن

يحمل لقب الخليفة — ولم تقم للخلافة قائمة بعد ذلك حتى الآن — وكان لنبا الغاء الخلافة الإسلامية دوي بالغ، ووقع أليم في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية والعربية — وكانت الخلافة قد استمرت زهاء خمسمائة سنة رمزاً لوحدهم — واستمراراً لتاريخهم — وقد نعى الشعراء والأدباء ضياع الخلافة بقصائد كثيرة. منها ما قاله أحمد شوقي أمير الشعراء في القصيدة الطويلة التي مطلعها:

ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواحي
الهند والهة ومصر حزينه تبكي عليك بدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحي من الأرض الخلافة ماحي
ثم إن أعداء الإسلام قد عمدوا إلى إزالة معالم الشريعة الإسلامية — في التعامل والتطبيق في معظم دول العرب والإسلام — يقول المستشرق «جيب» وهو من الخبراء المعروفين في شئون التبشير والاستعمار — يقول: «لا ضرورة بأن تطالب الشعوب غير المسيحية بالتخلي عن أنظمتها الدينية، بل يكفي أن نقتنعهم — بصناعة الدساتير الوضعية — ومن خلال ذلك يمكن أن يتم الكثير الكثير» وهذا ما حصل فعلاً — فإن أكثر بلاد الإسلام قد أهملت شريعة الإسلام، وتركته واكلت بالدساتير التي انبثقت عنها القوانين الوضعية، التي لا تزال يتعامل بها برغم أديانهم ومعتقداتهم — ومعلوم أن الإسلام شريعة عملية، وينتج القوة للأفراد — وليس كباقي الديانات، إنه دين جماعي متجدد الحيوية — فكل المعسكرات المعادية للإسلام تحذر قيامه على الوجه الصحيح — لأنه ينشئ فيها القوة والجد ويجهزها لأن تغلب غيرها، وهم يحذرون ذلك، ويعرفون آثاره منذ الحرب الصليبية — فقد كانت الحروب الصليبية — حروباً قائمة على العقيدة الدينية، وقد جمع جنودها من عدة دول نصرانية، ثم طردوا من بلاد الشرق بعد مدة — ثم امتد الفتح الإسلامي إلى أن وصل إلى أراضيهم — وهم لا يريدون أن تتكرر عليهم تلك النكبة مرة أخرى.

أهمية التاريخ في العلوم:

نتقل إلى جانب آخر من جوانب أهمية التاريخ في العلوم، إن دراسة التاريخ ممتعة، وهي توقف الإنسان على حقائق الأشياء، وعلى أسبابها، ليعلم كيف

نُشعب شيء من شيء، وكيف بنى المتأخرون على آثار المتقدمين .

فمثلاً إذا نظرنا إلى العلوم الإسلامية، ودرسنا تاريخ التفسير نتساءل من أول من كتب في التفسير وكيف استقى منهجه، كانوا يعتمدون على المأثور، مما قره النبي صلى الله عليه وسلم أو أصحابه الثقات . وكانوا لا يقولون شيئاً من عند أنفسهم، ويحذرون أن يقولوا شيئاً ربما يكون على غير مراد الله، ثم تطور الأمر عندما انتشرت الفرق والمذاهب، فأنحاز كل مفسر إلى نصرته مذهبه من الشيعة والمعتزلة والقدرية وغيرهم . فدخل في كتب التفسير ما لا يوافق العقل ولا الشرع، وكثر التأويل، ثم في العصور التأخرة بدأ الناس يكتبون بوجهات نظرهم الخاصة، يحملون آيات الله غير ما تحمل . هذا التدرج والتتبع لتاريخ علم التفسير يجعلك عالماً بما يجب أن يكون، ووازناً للصحيح من السقيم وكذلك في علم الحديث الشريف، فكيف اصطلاح الناس على أن يضعوا قواعد معينة، يميزون فيها الضعيف من الحسن من الصحيح؟ وكيف يؤخذ بالحديث؟ وكيف تدرس تواريخ رجاله؟ من صدق أو ضبط من الناحية التاريخية؟ ومن الناحية الجغرافية؟ هل لقي فلان فلاناً أم لا؟ ومناهج التحقيق في علم الحديث . إن هذا التاريخ مهم جداً، كذلك فن التجويد متى بدأ ولماذا بدأ وما الذي دفع الناس إلى ضبط نغمات القرآن وأدائه على طريقة معينة، ومن هم العلماء الذين اشتركوا في هذا الجهد؟ حتى حفظ لنا القرآن الكريم من التحريف . وكذلك علم اللغة، ومن الذي عمل على تبين أسرارها؟ جتى وصلت إلينا سليمة لم تضطرب؟ أمام الفتح الواسع، وأمام انتشار المسلمين في الشرق والغرب، ودخول أمم بلهجات أعجمية مختلفة .

وإذا انتقلنا إلى تاريخ الفقه الإسلامي: يحسن أن نعرف لماذا دَوّن الفقه الإسلامي؟ وما معنى الفقه؟ ولماذا اختلف الفقهاء المعروفون في الفروع ولم يختلفوا في الأصول؟ هذا التاريخ يسمى تاريخ العلوم...

وإذا انتقلنا إلى تاريخ الفرق مثلاً نعرف متى نشأ التصوف ومن أين جاء وما هي الأمم التي سبقت على الإسلام وكان فيها تصوف مشابه لهذا ولماذا عوقب بعض المتصوفة واتهموا بالكفر والزندقة .

وكذلك الحال في تاريخ التشيع « فمتى بدأ التشيع ؟ وما أسبابه وما الدافع إليه ؟ ولماذا اختلفت الشيعة إلى تلك الفرق وكانت شيئاً واحداً ؟ ومن هم الخوارج ؟ ومن هم المعتزلة ؟ وما تاريخهم ؟ وما الذي حصل منهم ؟ ... »

هذا التاريخ أيضاً لا يستغني طالب العلم عن أن يحيط به — وكل إنسان يريد أن يكتب في فرع المعرفة يقدم مقدمة تاريخية، حتى يربط العلم الحديث بالتاريخ القديم .

وإذا انتقلنا إلى تاريخ الاستشراق نعرف ما هي أهدافه — ولحساب من يشتغل — ومن هم أهم المستشرقين الذين كتبوا في الإسلام، سواء له أو عليه ؟ وما أقوالهم وما أفكارهم ؟ وكيفية الرد عليهم ؟ إن دراسة الاستشراق أمر مهم . لأن الثقافة المستوردة وهي التي تدرس الآن في الجامعات المحلية والأجنبية، قد اثرت على أفكار المسلمين وجعلتهم شيعة وأحزابا، يضرب بعضهم وجوه بعض، ثم عين تلاميذهم غالباً في التدريس بالجامعات، وفي مناصب التعليم، بناء على توصيات المستشرقين والمستشارين الأجانب، فوجهوا الدولة إلى غير وجهتها الصحيحة، ونحن هنا لا نتبع حقائق التاريخ، وإنما هي فكرة عاجلة عن أهمية علم التاريخ .

— وإذا نظرنا إلى جانب العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع — فمن الذي بدأ علم الاجتماع قديماً ؟ يقولون إنه عبد الرحمن بن خلدون، ثم نقل بعد ذلك إلى أوروبا وغيرها . ولكن علم الاجتماع الحديث تطور تطوراً خطيراً لدرجة أنهم يقررون الآن أن الديانات ظاهرة اجتماعية، وليست وحياً من عند الله، أي أن المجتمعات لما كان فيها من فساد أو تناقض تداعت واتفقت على أن تصنع شيئاً « اسمه الدين » وبهذا يقول « دوركيم اليهودي » مؤسس المدرسة الاجتماعية الحديثة .

كذلك علم الاقتصاد تقوم نظريته على أساس المنفعة الشخصية يقولون أن البيع والشراء والكسب والثراء أساسه النفع الشخصي وهي نظرية مادية صرفة، يكذبها الواقع . لأن أغنياء المسلمين مثلاً « يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » وينفقون المال الكثير لا يرجون من أحد جزاء ولا شكوراً،

و يبنون المساجد والمستشفيات والمؤسسات و ينفقون أموالهم وليس في ذهنهم أي نفع يبتغى في هذه الدنيا، فنظريات الاقتصاد الأساسية التي تقوم على فكرة «أنهيك أو تنهيني» و «أصارعك أو تصارعني» هذه النظريات فاسدة، لأن الاقتصاد في الإسلام يقوم على الأخلاق والدين، وعلى تقوى الله قبل كل شيء.

وهناك نظريات في الطب كذلك على درجة من الخطورة، وفي المبادئ السياسية مثلاً: أنها تقوم عندهم على أساس المصلحة الشخصية، وبذلك تبيع نقض العهد عند اللزوم، أو ما تقضي المصلحة به، «وأن الغاية تبرر الوسيلة» فلم يبق مكان للوفاء بالعهد ولا للصدق.

ثم أن بعض الأفكار المأخوذة عن بروتوكولات حكماء صهيون، صارت دستوراً للسياسيين في كثير من بقاع الأرض، وهي أفكار هدامة وخطيرة تقوم على أساس تدمير العمران، وتدمير الأخلاق والإساءة إلى الخلق، وهذه السياسة بنظرها المادية أصبحت عندهم لا عيب فيها، بينما الإسلام يحرم الكذب إلا في حالات الحرب.

وإذا نظرنا في تاريخ الفلسفة نجد أن أفلاطون وأرسطو وغيرهم وضعوا نظريات ثم تابعهم عليها «البيقوريون» والماديون ومن تابعهم من الفلاسفة، وحاول بعض علماء المسلمين من أطباء ومخترعين أن يستفيدوا بتلك الفلسفات، فترجموها ونقلوها في العصر العباسي، وحاولوا أن يلبسوها ثوب الإسلام، وسموها «الفلسفة الإسلامية» فجاءت خليطاً لا هو إسلامي ولا هو يوناني. وحوكم بعضهم على ذلك — ولقد أحدثت هذه الأفكار عند الناس قضايا ليست لها حلول، بينما جاءت الأديان بحلول المشاكل سهلة ظاهرة لا تحتاج لمن يفوضون عليها في الأعماق.

وإذا انتقلنا إلى علم مقارنة الأديان نجدهم في هذه المقارنة قد خلطوا ما هو سماوي بما هو أرضي أو خرافي، وخلطوا ما هو موثق بما هو غير موثق، وقالوا كلها أديان، فعلم الأديان أصبح علماً كبيراً واسعاً، ولكنه لا يقوم على منهج صحيح في غالب الأحوال.

خذ مثلاً تاريخ القوانين الوضعية فمن هو أول من أنشأ القوانين الوضعية ، ولماذا أعرضوا عن شريعة الله ، وإذا قرأنا محاولات «مونتسكيو» «وجان جاك روسو» وغيرهم ممن ظهوروا في عصر النهضة الأوربية ليضعوا القوانين البشرية ، وليستغنوا بها عن تعاليم الكنيسة ، وظهرت نظرية فصل الدين عن الدولة ، ونظرية أن السيادة للأمة وغيرها من الأفكار التي تحكم العالم اليوم ، يجب أن نعرف تاريخها وكيف بدأت .

كذلك إذا نظرنا إلى تاريخ الفنون نجد أن الفنون أخذت أهمية كبيرة في هذا العصر . وقال المهتمون بها أنها الوسيلة الوحيدة لتقريب الشعوب ، فالرقص والغناء والتمثيل والموسيقى لها صفة القبول دولياً . ثم تجرءوا وقالوا إن الفن والدين ينبعان في النفس من أصل واحد ، هذه النظرية شائعة في مجال العلم الآن ، وهي قريبة من تعاليم التلمود اليهودية ، التي تقول «اعبدوا الله برقص ومزمار وطبل وناي» . والحقيقة أن الفن ليس قريباً من الدين أبداً ، فالتدين عبارة عن زهد وإيمان وخشية وربانية ، والفن عبارة عن لهو وعبث ومعضية في الغالب . ولكننا نرى أثر هذا الفكر السيئ ، في الفنون التي نراها صادرة عن التلفزيون والاذاعة والمرئيات ، أنهم يأتون بالأناشيد الدينية ومعها الموسيقى والطبل مختلطين ، وأحياناً تعرض أصوات النساء وأجساد النساء ، على أنها نوع من العبادة ، والإسلام يرفض هذا رفضاً باتاً ، فالخلط الذي نراه هذا ليس مجرد صدفة ، ولا اجتهداً من محطة اذاعة واحدة ، ولكنه مستند إلى نظريات تسمى علمية .

ومن الدراسات التاريخية المهمة دراسة تاريخ الرجال ، أو علم التراجم فكل إنسان قام بعمل جليل أو اختراع أو بحث ، أو كشف أو قدم للعالم شيئاً — يجب أن يعرف تاريخه ، وماذا عمل وماذا ترك ، والآثار التي خلفها وراءه لنفع البشرية فهناك طبقات المفسرين ، وطبقات الفقهاء والمخترعين ، وطبقات الأدباء فقد حفظ التاريخ الكثير منهم ، وبعضهم سيرته وحدها تعتبر درساً في التربية .

ومما يؤسف له أن الدعاة والوعاظ لا يتناولون هذا الجانب ولا يبصرون به

شباب الإسلام — فهذه روايات «جورج زيدان» وفيها تحول بطولات الإسلام إلى دوران حول شهوة حكم، أو تنافس على فتاة جميلة، أو طمع في ثروة زائلة، ويستبعدون أنه جهاد لإعلان كلمة الله. فقد أخرج هؤلاء مؤلفات متداولة مشهورة، وهي مليئة بالدس الرخيص.

ففي روايات كربلاء — وفتاة غسان، وغادة الأندلس، تلاحظ كيف يصورون أبطال العرب والإسلام، بصورة بدو يلبسون ملابس واسعة، وعمائم كبيرة، ويركبون الجمال والخيول، وطابعهم العدوان، وإذا جلس أحدهم في مجلسه فأمامه كؤوس الخمر، وحوله النساء والجواري، وهذه الصور نقلوها عن الثقافة الغربية، وهي كبيرة الضرر في فهم الإنسان للإسلام، فهذا كله من تحريف للتاريخ.

ومثل ذلك — سرقة الحركات — فمثلاً حركة الجزائر قام بها العلماء المسلمون المجاهدون، ثم يقال إنها اختطفت لحساب اليساريين. وحركة تحرير فلسطين لقد حدث بعد أن دخل اليهود إليها بعد زوال الانتداب البريطاني، أن قامت حركة فتح التي أنشأها الحاج أمين الحسيني ومن معه، لتكون جهاداً في سبيل الله ثم اشترك فيها أخطا من الناس، ما بين شيوعي وغير مسلم ثم اندمجت هذه الأخطا وسميت «بمنظمة التحرير»، كذلك حركة تحرير سوريا، لقد قام بها العلماء واختطفها غيرهم، وحركة تحرير نيجيريا قام بها علماء الإسلام هناك ثم آل الأمر إلى أن يحكمهم غير المسلمين، وحركة تحرير أرتيريا قام بها مجاهدون ليجاهدوا باسم الإسلام ليتخلصوا من ظلم الحبشة، ثم دخلت عناصر أخرى يسارية وتكونت جبهة جديدة لم تتضح هويتها.

وخلاصة القول أن هناك تخطيطاً دولياً مستمراً، من أجل سرقة الحركات أو تحريفها، والخطورة على المجاهدين من ذلك قضية هامة لا بد أن تدرس ويبحث تاريخها، وما هي الوسائل التي تحفظ الحركات على المبدأ الذي قامت عليه، دون أن تذوب أو تسرق، وكذلك الحال في سائر الأعمال، فقد يطغى الفن على الحق، فتأتي الروايات والتمثيلات والأعمال الأدبية مشوهة للحق، مخالفة لواقع التاريخ، وهذا واضح بالنسبة للتاريخ الإسلامي بالذات.

مثلاً يظهرون رابعة العدوية رضي الله عنها بأنها كانت امرأة منحرفة ، سيئة السلوك أو راقصة يلهو بها الرجال ، وهم في هذا يكذبون ليعطوا الرواية تشويقاً معيناً ، أو كما يقولون ليبرزوا العنصر النسائي ، الذي يشبع ميول المتفرجين . وكذلك في فيلم « ظهور الإسلام » يأتون فيه بعدد من الخليعات الماجنات ويقولون كانت هذه هي الجاهلية ، ويتمادون في تصوير تلك الجاهلية بما يشوق الناس إليها ، وهذا حرام — ومن هذا القبيل أنهم يصورون معاوية رضي الله عنه على أنه كان ظالماً هو وأبوه ، مع أنه كان من كتاب الوحي وأمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عينه أميراً على الشام ثم أقره أبوبكر ثم أقره عمر وعثمان وقد جاهد في الله هو وأبوه واخوته جهاداً عظيماً . وهذا التحريف للتاريخ من الأعمال الخبيثة لأن الإسلام — يجب ما قبله ، والكلام في هذا افتراء على الذين خدموا هذا الدين ، وأفضوا إلى ما قدموا لأنفسهم .

ولا بد للمسلمين أن يقوم منهم من يرد على هذا الباطل ، وأن يصحح التاريخ الإسلامي ، حتى يظهر بجلاله وروعته ، وحتى يكون نبزاً لمن يريد أن ينتفع به ، من هذا الشباب ، ومن هذه الأمة الخيرية على مفترق الطرق .
نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

نتكلم الآن على طريقة اختيار رئيس الدولة: الإسلام لا يعبأ بالكثرة، لقوله تعالى (وان تطع أكثر من في الأرض يضلون عن سبيل الله) فطريقة الانتخابات التي يحشر فيها الدماء والعوام والأطفال والنساء من مسلمين وغير مسلمين، هذه ليست الطريقة الشرعية، وإنما يجتمع أهل الحل والعقد من العلماء والفقهاء وأصحاب المصالح العملية ثم يختارون رئيس الدولة بالشروط المنصوص عليها في الفقه الإسلامي.

والتي جرى عليها العمل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. فيجب أن تتوفر في الإمام شروط معينة، فإذا اختير الإمام فهو رئيس أو أمير للمؤمنين أو خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في ذلك مقيد قيدياً تاماً بكل ما أنزل الله من شريعة، فإن حاد عنها قليلاً أو كثيراً فمن حق هؤلاء الذين اختاروه أن يعزلوه، فإن تمسك بوجوده ولم يقبل فيعتبر باغياً من الباغين على الأمة... قال تعالى (فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله) ثم أن أهل العقد والحل يستشارون في الأمور السياسية، لقوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) وعلى الحاكم أن يقيد نفسه بالحكم بما أنزل الله، وستكون مهمته حينئذ سهلة، لأن الله لم يترك شيئاً إلا قرر فيه حكماً وأنزل فيه شريعة واضحة، ميسرة للناس.

وبالنسبة للحقوق الأساسية للإنسان المسلم: فالإنسان هو أرقى الكائنات... وقد اهتم الله تبارك وتعالى بالإنسان، باعتباره خليفة في الأرض، وتأتي مصلحته مقدمة على كل شيء، فأعطى الإسلام للإنسان حقوقه الأساسية، وأعطاه حرية العمل فلا حجر على إنسان أن يعمل وأن يكسب، وحرية التنقل، فلا حجر على إنسان أن ينتقل من مكان إلى آخر، ولا يطرد من بلده إلا بحق، وحرية القول، فله أن يقول وأن يكتب في غير تناقض مع ما آمن به من دين الله، فإن كان شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقام بحق ذلك فلا حجر عليه في أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر.

كذلك حرية الزواج والطلاق، وحرية التملك، فله أن يمتلك ما شاء متى أخرج الزكاة المستحقة عليه، قال تعالى (والذين في أمواهم حق معلوم

للسائل والمحروم) وهناك حق سوى الزكاة بالنسبة للأغنياء، إذا وقعت الضوائق أو الحرائق أو النكبات العامة، كذلك من حق كل مسلم أن يجاهد، وأن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر، ومن حق الفرد المسلم أن يعلم غيره، وأن يتعلم.

من غيره ومن حقه كذلك أن ينال القوت والعدل ولا يقتل مؤمن بكافر وكل هذه الحقوق مضمونة لأهل الإسلام. ولا يسوى بين رجل وامرأة في كل الأمور/ لأن الله قال (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وما أنفقوا من أموالهم).

على أن الإسلام قد أنصف المرأة ورفع قدرها، وأعطاهها حرية التملك بمعزل عن زوجها، وليس للرجل أن يفتال مالها، أو يستولي عليه كرهاً عنها، وأعطاهها حرية السعي على الرزق عند الضرورة، وحرية طلب العلم — والقول — وأكثر الحقوق التي أعطيت للرجال. قال تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهم درجة).

كل ذلك مضمون لها في حدود العفة وعدم التبرج والعدوان على أخواتها، لأن الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لأن المرأة الزانية تعوق أكثر من مائة امرأة عفيفة عن الزواج، فضلاً عما يصيب الناس من اضطراب في الأنساب، ومن أمراض وعلل، فإذا قامت المرأة بنشاطها الإنساني لخدمة الإنسانية، أو عند ضرورة تقتضيها، فلها الحق في ذلك، وقد أنصف الإسلام الضعفاء، بكافة طبقاتهم، فقد أنصف اليتيم والرفيق، وأنصف الخدم وأنصف الأبناء من الآباء والآباء من الأبناء ودعا إلى العمل والكسب وشجع عليه ودعا إلى البحث العلمي، وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وقال عليه الصلاة والسلام: طلب العلم فريضة على كل مسلم (أي وكل مسلمة بالتبعية). فإذا كان الإسلام قد أكد هذه الحقوق وربط الناس بالله، وعلمهم أن ينسبوا إليه وأن يستغفروه، وأن يلجأوا إليه عند الشدائد، وأن يعلموا أنه هو الذي خلقهم وهو الذي رزقهم، وهو الذي يحدد لهم الحلال والحرام، والجائز

والممنوع، فقد أراحهم من متاهات الفلسفة، وعدوان الأشخاص بعضهم على بعض.

أما تلك الحضارات: الوثنية أو الملحدة، فهي مضادة لسنن الله وكتبه ورسله.

وبقي لنا أن نشير إلى الآداب الاجتماعية في الإسلام: فمن أول الواجبات في الإسلام التخلق بأخلاق الإسلام وقد تكلمنا عنها في محاضرة سابقة.

وإنما يجب أن يتكون عند المسلم شعور بما يكره و يعاب، وشعور بمعنى الحرام والحلال. وأن يتكون عنده ذوق للجمال والقبح، علماً بأن الحضارة الغربية ليس واضحاً فيها معنى العيب؛ فلا يستحي أحد منهم أن يفعل الكثير مما يعاب. وعندما تكلموا عن الحرية الشخصية جعلوها حرية حيوانية، فأطلقوا العنان للشباب والنساء والرجال، في أن يفعل كل إنسان ما يريد، بطريقة همجية وهذه الخصلة أورثتهم مصائب، ونكبات لا حصر لها، وهم يعانون منها الآن.

أما المسلم فإن شعوره بالعيب أو شعوره بالاثم والحرام، يجعله منضبطاً في كل حالاته.

ومن الآداب الاجتماعية في الإسلام رعاية النساء واحترامهن، وغض البصر عنهن وعدم التطلع إليهن، قال تعالى (ولا تمدن عنك إلى ما متعته أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) فالمرأة في الإسلام محترمة، وكلما كبر سنها كلما زاد احترامها، وليس الأمر كذلك في تلك الحضارات الزائفة.

ومن الآداب الاجتماعية في الإسلام رعاية المعوقين والمكفوفين وأصحاب العاهات، ومد يد المعونة إليهم، وحياتهم مالياً وأدبياً واجتماعياً، حتى يشعروا أنهم أخوان لنا، وحتى لا يثقل عليهم ما ابتلاهم الله به...

ومن السنة إذا رأينا مبتلياً أن نقول: «الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به

كثيراً من عباده». وهذا الدعاء يشعرك بأنك في نعمة، وعليك أن تؤدي شكرها، لهذا المبتي. وهذا من أرقى ما وصلت إليه الإنسانية... إن الدعاء تربية وتهذيب للنفس.

ومن الآداب الاجتماعية أيضاً مقاومة الجريمة، وقد حد الله لها حدوداً عليها عقوبات مقررة في الإسلام، فالزنا له عقوبات قررها القرآن الكريم، لأنه من أفحش الفواحش كذلك السرقة وقتل النفس، وقذف المحصنات، فاتهم الرجل أو المرأة بالفاحشة بغير دليل ولا بينة عليه عقوبة هي حد من حدود الله، ومن القواعد الاجتماعية ما يسمى بالتعزير، وهو معاقبة الرجل أو المرأة عن الفعل القبيح، بحيث لا تبلغ حداً.

ويقع التعزير على شرب الخمر، وعلى الأخطاء المختلفة كاللطم ونحوه، فإذا رفع الأمر للحاكم فإنه يعاقب صاحب الذنب بعقوبات مختلفة، يترك تقديرها له، حسب الحالة، وليس على الحاكم قيد شديد كما في القوانين الوضعية، وإنما من حقه كلما رأى فعلاً قبيحاً أن يوقع الحد أو التعزير، لأن الثقة متوفرة في تقواه وفي عدالته أيضاً.

ومن الآداب الاجتماعية تشجيع الفضائل، فمن عمل خيراً نقول له جزاك الله خيراً، قال تعالى (ان تبدوا الصدقات فنعما هي)، أي نعم اعلانها (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم) وكذلك انكار المنكر، أو الأمر بالمعروف.

ومن الآداب الاجتماعية في الإسلام: ابداء التهاني عند حدوث النعم، وتقديم التعازي للمسلم إذا أصابته مصيبة، فنزوره ونواسيه لنشره بالأخوة، ولنخفف وقع المصائب عليه.

ومن الآداب كذلك: الشكر لمن أحسن (فمن لا يشكر الناس لم يشكر الله)، وكذلك الاعتذار عن الخطأ، فالمسلم أواب غير عنيد، فمن أخطأ فليعترف بخطئه، ويعتذر لأخيه، ويطلب منه السماح والصفح في الدنيا قبل أن يوقف موقف الحساب في الآخرة.

ومن الآداب الاجتماعية كذلك معرفة الحق والواجب ، فعلى كل مسلم أن يعرف حقه فيطالب به ، ولا يستحي من المطالبة به ، لأنه حق مقرر له في الشريعة ، ومن قبل الظلم فهو أحد الظالمين ، وأن يعرف الواجب الذي عليه فيؤديه ، فأداء الواجب من أخلاق المسلمين ، دون أن ينتظر شكراً على هذا الواجب .

وهذه الآداب الاجتماعية وغيرها كثير ، نجدها في نصوص القرآن الكريم ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فنعلمها ونعمل بها ، لنظفر برضوان الله يوم القيامة ، أما الآخرون فإنهم لا يرجون لقاء الله .

قال تعالى : (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) .

تلك حضارة الإسلام أما تلك الثقافة المنحرفة فالارتباط بها من ضياع العمر فيما لا طائل منه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(تلخيص الرسائل)

هذه المحاضرة فيها بيان وتعريف بالرسائل التي ألفها الأستاذ حسن البنا — رحمه الله ، وهي تقرب من عشرين رسالة ، شرح فيها دعوة الإخوان المسلمين ، أو دعوة الإسلام في العصر الحديث ، وبين للناس وللشباب وللحكام ولكافة طبقات الأمة — ما يجب أن يكون عليه فهم الدين بشكل صحيح — خالفاً من تحريف المغرضين — وأكاذيب المبطلين — ومما علق بهذا الدين مما ليس منه .

والفرق بين الرسالة والكتاب — إن الرسالة بحث مختصر يعالج قضية محدودة — لها ظرف خاص — أما الكتاب فهو بحث علمي كامل لموضوع من مواضيع العلم — وأكثر هذه الرسائل صغير الحجم — وقد سئل رحمه الله ذات مرة «لماذا لم تؤلف كتباً ل الإخوان تكون مرجعاً لهم في المكتبات» ؟ فقال : «إنني مشغول بتأليف الرجال — فإن تم ذلك فسيؤلفون الكتب هم إن شاء الله» .

من هذه الرسائل دعوتنا — نحو النور — إلى أي شيء ندعو الناس — رسالة الجهاد — رسالة المأثورات — رسالة الله في العقيدة الإسلامية — رسالة الشباب — القانون السياسي — اللائحة الأساسية — رسالة التعليم — رسالة المؤتمر الخامس — دعوتنا في طور جديد — بين الأمس واليوم — الإخوان المسلمون تحت راية القرآن — مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي — رسالة المناجاة — نظام الأسر — مذكرات الدعوة والداعية وهناك رسائل أخرى أخذت اسم رسائل الإخوان المسلمين وهي ليست من كتابة الأستاذ حسن البنا — لكنه اعتمدها ضمن مجموعة رسائل الإخوان — وهي «هل نحن قوم عمليون» ؟ للأستاذ فهمي أبو غدير المحامي «وكيف ندعو الناس» للأستاذ عبد البديع صقر — ثم انشأ الإخوان بعد ذلك جملة من الكتب — كما توقع رحمه الله — بعضها في غاية الجودة ، وهي مطبوعة متداولة . وقد ترجم بعضها إلى كثير من لغات العالم .

منها رسالة تجمع الأناشيد الحماسية التي كان يقوها الاخوان، ومن هذه الأناشيد ما وضعه الأستاذ أحمد حسن الباقوري، ومنها ما كتبه الأستاذ عبد الحكيم عابدين، والأستاذ ابراهيم مأمون — والأستاذ سيد قطب — رحمهم الله جميعاً... ومنها ما كتبه الأستاذ يوسف العظم وغيرهم من كتاب الاخوان — الذين بلغت كتب بعضهم الأربعين كتاباً في بحوث إسلامية شتى، كالشيخ محمد الغزالي السقا والدكتور يوسف القرضاوي — جزاهم الله خيراً.

ومن ناحية التواريخ: فليس بين أيدينا ما يوضح تاريخ كل رسالة، وهذا لا يعنيننا كثيراً — لأن بعض هذه الرسائل — طبع مرات عديدة — وفي أوقات مختلفة — وبعضها كتبه المرشد وهو في السجن — وبعضها كتبه وهو مغترب أو مريض، والمهم في الموضوع، أن نحيط علماً بمحتوى هذه الرسائل — حتى نوفر على القارئ جهد البحث أو ندفعه للاستزادة — لأن هذه الرسائل تعتبر الأساس الفكري للجماعة، ويمكن الاحتجاج بها على فكرهم. وقد حوكم المرشد عليها عدة مرات — ونوقش فيها أمام القضاء والنيابة — فلم يستطع أحد منهم أن يدينه بشيء — كما لم يقل عالم من العلماء في عهده ولا بعد موته، أن فيها ما يخالف تعاليم الإسلام — أو أحكام الفقه — ومن توفيق الله أن يقوم رجل بمثل هذا العمل، ويسلم من النقد.

وبعض هذه الرسائل لها صفة الثبات العلمي، بمعنى أنك حين تقرؤها اليوم فكأنها تصف هذا المجتمع بالذات، أو كأنها كتبت الآن، وبعض هذه الرسائل يضع حداً لخلافات العلماء والفقهاء في أدق المشاكل وأعقدها. ومع ذلك فقد سلمت من اعتراض الأطراف المتنازعة في حياته وبعد مماته.

ولنبداً الآن برسالة: «الله جل جلاله في العقيدة الإسلامية» إن أول شعارات الإخوان المسلمين قولهم: «الله غايتنا والرسول زعيمنا — والجهاد سبيلنا — والقرآن دستورنا — والموت في سبيل الله أسمى أمانينا» فكان من الواجب البدء بتعريف الناس بحقوق الله عز وجل — وبأسمائه وبصفاته — باعتباره المبدأ الأول. وقد تكلم المؤلف عن عناصر العقيدة الإسلامية — وعن تطور عقيدة

الألوهية في مختلف الشعوب — وقال ان دليل الفطرة هو أول الأدلة — وأورد الأدلة على صدق العقيدة في الله — من شهادات علماء الكون — وقصور العقل الإنساني عن ادراك هذه المعاني العليا، إذ لا سبيل إليها إلا بالإيمان، ثم تكلم عن القضاء والقدر، وإن الإيمان بالله تعالى هو الدواء، وذكر الأخطاء التي وقعت فيها الشعوب — خاصة عقيدة الألوهية — وموقف القرآن منها، وتكلم عن قوم نوح وإبراهيم — وقوم موسى — وقوم إلياس — وعن الوثنية في بلاد العرب وخلص إلى توحيد الخالص النظيف من كل الشوائب التي علقّت بهذا الموضوع الهام.

وفي تلخيصنا لرسالة الجهاد يقول :

إن الجهاد فريضة على كل مسلم كالصوم والصلاة سواء بسواء، ثم أورد بعض آيات الجهاد في سبيل الله / ونماذج من الأحداث النبوية الشريفة في الجهاد، وحكم الجهاد عند فقهاء الأمة، ولماذا يقاتل المسلم، وبين أن الجهاد يكون بالنفس والمال، وتكلم عن السبب الذي من أجله يقاتل المسلم؟ وأنه يقاتل لإعلاء كلمة الله، والدفاع عنها لتحقيق الحرية في دنيا الناس — ولو تحققت الحرية للدعوة فلا داعي للقتال، وتكلم عن الرحمة في الجهاد الإسلامي ومظاهرها، وما يلحق بالجهاد من واجبات وأحكام... ثم أنهى الرسالة بخاتمة جميلة.

وأما رسالة «إلى الشباب» فهي موجهة للشباب عامة وإلى الطلبة خاصة، وقال عنهم أنهم عماد كل نهضة، وعماد الإنتاج والحيوية في كل شعب من الشعوب، وأهاب بهم ورفع من معنوياتهم، لوجوب اليقظة والعمل، مع توجيههم إلى ما يجب أن يكونوا عليه خاصة في بلاد الإسلام، وأن يكون منهم الدعاة لأنهم الطليعة وهم أدوات الجهاد، وهم الذين ينظر إليهم ويعتمد عليهم، ثم قال: وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباباً...» ثم شرح لهم معالم دعوة الإخوان في هذا العصر (وهو القرن الرابع عشر الهجري) وقال إننا لم نأت بجديد، أنها دعوة الإسلام وتستطيعون أن

تحاكمونا إلى هذا الإسلام، فلا فضل لنا في شيء، وإنما نحن نجدد هذا الدين عندما ضاعت بعض معاله...

«رسالة المناجاة» تكلم فيها عن فضل قيام الليل، في وقت السحر خاصة وما جاء في فضله من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وتكلم عن المأثور عن السلف رضوان الله عليهم في ذلك، وكيف كانوا يناجون الله ربهم في جوف الليل. وفضل الدعاء والاستغفار وآدابهما، وما جاء في ذلك من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وتكلم عن آداب الدعاء، والأوقات التي ترجى فيها الإجابة، وأورد نماذج من الأدعية من القرآن الكريم، وما فيها من الشاء على الله تبارك وتعالى، وفي فضل الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأورد كذلك نماذج من مناجاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن مناجاة ابن عطاء الله السكندري، ومن مناجاة أحمد بن إدريس، وأبي الحسن الشاذلي، ومن دعوات الامام الشافعي، ونماذج من منتور الدعاء، وهي رسالة جلييلة في بابها، ونلاحظ هنا أنه عندما تكلم عن مشايخ الطرق الصوفية، اجتهد أن يبرئهم مما نسب إليهم أتباعهم، من الأكاذيب والمبالغات التي لا جدوى منها، وقال أن هؤلاء الناس كانوا علماء صلحاء وعباداً أتقياء، وإن الخطأ لم يقع منهم — وإنما وقع من أتباعهم، وهي لفته جميلة تؤلف قلوب الناس ولا تفرقهم.

وبين يدي الآن كتاب يقع في نحو (٣٨٠) صفحة من القطع الكبير بعنوان «مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» صدر عن دار الشهاب التي يملكها الأستاذ أحمد سيف الإسلام بن حسن البنا وهو محام فاضل أنشأ هذه الدار لإصدار رسائل والده وغيرها من كتب الإسلام، ولكن هذه الرسالة لم تستوعب كل الرسائل، فالذي ضمَّنه فيها ثلاثة عشر رسالة ذكرنا بعضها، وسنأتي على البعض الآخر باذن الله، وبعض الرسائل طبعت مستقلة، ولكن مجموعة الرسائل هذه يعتبر مرجعاً مهماً، توفر على الباحث الكثير من الجهد في تقصي هذه الرسائل.

ونتكلّم الآن عن رسالة دعوتنا انها من أقدم ما صدر لتعريف الناس بهذه

الدعوة ربما كان صدورها حول سنة ١٩٣٠ ميلادية وهي تبدأ في الفقرة الأولى بعنوان «مصارحة». فالمرشد يصارح الناس بما يريد الإخوان، ثم عنوان «براءة» وهو يعني البراءة من كل تبعية لأشخاص أو لهيئات — ثم عنوان عاطفة فليست للإخوان عاطفة نحو شيء غير الإسلام — وذكر أن الله الفضل في قيام هذه الدعوة التي لم يستملها أي أغراء، ولم يخوفها أي تهديد، وقال إن الناس على أربعة أصناف — مؤمن — متردد — نفعي — متحامل — ثم تكلم عن موقف الجماعة من سائر الدعوات والمواقف.

وتكلم عن الدعوة الوطنية: وقسم الوطنية إلى وطنية الحنين، ووطنية الحرية والعزة، ووطنية المجتمع، ووطنية الفتح، ووطنية الحزبية. وقال إن حدود وطنيتنا هو كل بلد فيه من يقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وقال إن لنا غاية من هذه الوطنية، ويمكن الانتفاع بها لخدمة الدعوة الإسلامية...

وتكلم عن القومية وقسمها إلى قومية المجد — وإلى قومية الأمة وقومية التنظيم، وقومية الجاهلية، وقومية العدوان. وتكلم عن خواص دعوة العروبة وعن رباط العقيدة الذي هو أوثق الروابط وأشار إلى الخلافات الدينية. قال إن موقفنا أمام الخلافات الدينية — إننا نجمع ولا نفرق، وإن الخلاف ضروري، وإن الإجماع على أي أمر فرعي متعذر — تماماً، ونحن نعتذر لمخالفينا ونحسن الظن بنواياهم، ودعا الناس إلى العلاج، وقال هذه القاعدة الرائعة: نتعارف فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه (وذلك في غير الأصول طبعاً) وكان هدفه من هذه الرسالة في واقع الأمر أن يبين للناس أن المصيبة الكبرى التي وقعت على المسلمين في هذه العصور المتأخرة هي الفرقة وذلك عندما قعدوا عن الجهاد في سبيل الله، فقد جاءت الفرقة — إما من العلم وإما من التحزب للمذاهب والآراء والأفكار، ورأى أن هذا أخطر الأخطار ولا بد أن يعاد النظر في مواقف العلماء ومواقف الناس بعضهم من بعض، حتى تتم الوحدة الجامعة لصالح الإسلام.

أما «إلى أي شيء ندعو الناس» فهي في موضوعها قريبة من الرسالة

الأولى ، ولكن دعت الحاجة إلى إضافة بعض المعاني إليها ، فمن عناوينها — يا قومنا — غاية الحياة والقرآن — وصاية المسلم ، توضيح . وقال : أين المسلمون من هذه الغاية ؟ وسأل وأجاب على عدة تساؤلات منها من أين المال ؟ إنه يأتي من جيوب اخواننا الفقراء ، ونحن نكتفي به ولا حاجة لنا في كثير المال .

ثم قال تحت عنوان «نحن والسياسة» معنى السياسة ومفهومها عند المسلمين ، ومدى تحريفها لدى غير المسلمين ، وهدفهم أنها تبتلع كل شيء ، ويبقى الإسلام خالياً من كل حياة ، وتحدث عن قوميتنا ، وعلى أي أساس ترتكز؟ وما هي أعظم مصادر القوة؟ قال إن قوميتنا نسبة عالمية ونحن رهبان بالليل وفرسان بالنهار، وتكلم عن الاستعمار وأنواعه ، وقال ان منه استعمار الأستاذية واستعمار الإصلاح ، وقد آن لنا أن نفهم أين نحن من القوتين الكبيرتين ، وقال ان المنهاج واضح ، ولا بد أن يتبع دين الله ، وحذر إخوانه في هذه الرسالة بعنوان: احذروا الانحراف ، اصلحوا القانون ، اصلحوا مظهر الاجتماع ، حاربوا الإباحية ، نظموا التعليم ، انتفعوا باخاء اخوانكم المسلمين في العالم غير العربي . وقال في عنوان آخر اخوة تعلن الإنسانية ، وأفق الوطن الإسلامي ، ونظرة فلسفية اجتماعية ، ونظرة تاريخية . ثم تساءل قائلاً — هل هناك طريقة أخرى ؟ وذكر قصة أمة تتكون من ضعف إلى زعامة ، ثم تكلم عن الصراع بين الإيمان والكفر ، وغير ذلك من البحوث ... والواقع أنها رسالة قيمة جداً ، وهذه الرسالة كانت في الواقع أول ما أثر في نفسي ، عندما أهديت إليّ فعرفتُ منها طريقي :

أما رسالة «نحو النور» فهي كما يبدو من مقدمتها ، خطاب مفتوح ، بعث به المرشد العام إلى الملك فاروق الأول ملك مصر ، في رجب سنة ١٣٦٦ هـ ، وإلى مصطفى النحاس رئيس حكومة مصر حينذاك ، وإلى ملوك وأمراء حكام بلدان العالم الإسلامي المختلفة . كما بعث بها إلى عدد كبير من أصحاب الصفات الدينية والدينية ، كأنه يريد أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، في تبليغ الدعوة والإعذار إلى الله تعالى ، وتوجيه النصيح إلى كل صغير وكبير من المسؤولين ، عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام «الدين النصيحة» قلنا لمن يا سول الله ؟ قال

لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

و يبدأ الرسالة بعبارة: حضرة صاحب... السلام عليكم ورحمة الله وبعد: فانما حملنا على التقدم بهذه الرسالة إلى مقامكم الرفيع، رغبة أكيدة في توجيه الأمة التي استرعاكم الله أمانتها، ووكل إليكم أمرها في عهدنا الجديد، أن توجهوها توجيهها صالحا، يقيمها على أفضل المسالك، ويرسم لها خير المناهج، ويقيها الزلل والاضطراب، ويجنبها التجارب المؤلمة الطويلة، نحن لا نبغي من وراء ذلك شيئا، إلا أن نكون قد أدينا الواجب وتقدمنا بالنصيحة، وثواب الله خير، وأبقى.

ثم تتناول الرسالة الموضوعات الآتية: تبعة الراعي — وعلى مفترق طريقين ومزايا التوجيه الإسلامي — المدنية الغربية الآن وما هي عليه، والإسلام كفيل بامداد الأمة بما تحتاج إليه، والإسلام والأمل، والإسلام والعزة القومية، الإسلام والقوة والجندي، والإسلام والصحة العامة، والإسلام يحمي الأقليات، والإسلام لا يعكس صفو العلائق، ورجال الدين غير الدين نفسه — وخطة جريئة نقترحها عليهم ولكنها موفقة، وبعض خطوات الإصلاح العلمي والناحية السياسية والقضائية، والادارية والناحية الاجتماعية، والعلمية والناحية الاقتصادية.

وقد أوضح وركز على المعاني المقصودة، في أقل كلمات ممكنة.

وهذه رسالة «دعوتنا في طور جديد» يقول في بعض عناصرها هذه الدعوة ربانية عالية، بين العقلية والغيبية، والعقلية العلمية.

و يتضح من كلامه أن الإيمان بالغيب واجب وفريضة لا يتم إيمان المؤمن إلا به، لقوله تعالى «يؤمنون بالغيب» وأما إدعاء معرفة الغيب، فضلالة وزندقة — لأن الغيب لله، ويجب أن يفرق الناس بين هذين الأمرين، وتكلم عن مكان القومية والعروبة مرة أخرى، والاضطراب في مفهومها عند الناس بسبب الفكر المستورد، وتحدث عن الشرقية والعالمية في هذه الدعوة، وعن يقظة الروح، وعن الفرد المسلم، والبيت المسلم، والأمة المسلمة، بين الصفة الاستقلالية والصبغة التقليدية، ووسيلتنا العامة، والفرق بين الجماعة والفكرة، يريد أن يقول إن

دعوة الاخوان المسلمين هي عبارة عن شطرين شطرتله الجماعة المترابطة المتآخية في الله ... ثم الفكرة التي تعتنقها هذه الجماعة وهي مبادئ الإسلام لا غير.

أما رسالة «بين الأمس واليوم» فهذه رسالة أشبه ما تكون بسرد تاريخي، خلص منه إلى نتائج معينة، تكلم عن رسالة النبي الأمين، ومنهاج القرآن الكريم في الإصلاح الاجتماعي، والشعائر العملية لهذا النظام، والدولة الإسلامية الأولى، وعوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية، والصراع الاجتماعي، والطغيان المادي على بلاد الإسلام، وحب الدنيا والمنفعة وقال ان دعوتنا دعوة البعث والانقاذ، ثم ألقى بوصية، وحدد واجبات المسلم، الذي يريد أن يعيش في هذا التيار.

أما رسالة «المؤتمر الخامس» فهي خلاصة الخطاب الجامع الذي ألقاه في المؤتمر الدولي الخامس، بمناسبة مرور عشر سنوات على قيام هذه الجماعة، وكان ذلك في قصر آل لطف الله بالزمالك، حيث لم يقبل أحد من المسلمين أن يقام المؤتمر في داره أو قريباً من داره، فتبرع هؤلاء المسيحيون بأن يكون المؤتمر في دارهم، وقد شاركت أنا فيه واستمر أربعة أيام متصلة، في مكان واحد لم نبرحه، وتكلم فيه عن غاية الاخوان وخصائص دعوتهم، وعن رسائل الاخوان وخطواتهم ومناهجهم، وعن موقف الاخوان من الهيئات المختلفة، ورسالة «المؤتمر الخامس» هي رسالة جامعة مفيدة، لأنه تكلم فيها كذلك عن بعض خصائص دعوة الاخوان، ومنها البعد عن مواطن الخلاف، والبعد عن هيمنة الكبراء والأعيان، والبعد عن الهيئات والأحزاب، والتدرج في الخطوات. وقال: إنها كانت فكرة في نفوس أربعة أشخاص، من أهل «المحمودية»، وقال أنها تضم كل المعاني الإصلاحية، وتكلم عن سرعة الانتشار في المدن والقرى، وأوضح منهاج الاخوان المسلمين، والغاية الوسيلة، وعن الحكم والموقف من الثورة والقوة، ومن الحجكم ومن الدستور المصري، ومن القانون، وموقف الاخوان من الوحدة، ومن القومية العربية والإسلامية وعن الجماعات المعاصرة، مثل الشبان المسلمين، والأحزاب، ومصر الفتاة، وغيرها. والموقف

من الدول الأوربية . ثم دعا الناس إلى أن يتكاتفوا وأن يترابطوا على أساس الإسلام وحده ، ولا شيء غيره .

وهذه رسالة أخرى هي «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» تكلم فيها عن نظرات ثلاث ، وأي لون نختار؟ واعتراضات الناس على الأخذ بالإسلام ، وقال : إن قضيتنا وطنية ، وكيف تحل في ضوء التوجيه الإسلامي ، وعن الوحدة في ضوء التوجيه الإسلامي ، وتكلم عن نظام الحكم المقترح ، بشيء من التفصيل وعن الحكومة في الإسلام ، ودعائهم ، ومسئولية الحاكم ، ووحدة الأمة ، واحترام ارادتها ، وموقف الإسلام من النظام النيابي ، والدستور المصري ، ومسئولية الحاكم والوزارة ، وغموض الدستور ، ووحدة الأمة . ودعا كل الأحزاب إلى احترام رأي الأمة ، وعيوب نظم الانتخاب الحالية في مصر ، واقترح تعديلا معيناً ، وتكلم عن ضعف الحكومات ، وعن ضعف هيئة القانون ، وانتقد الحزبية العمياء ، وما جرفته على الناس من فرقة وخلاف . ثم تكلم عن النظام الاقتصادي ، وقال أن لدينا غنى طبيعياً ، وإن الاستغلال الأجنبي هو الذي أضاع هذه الثروة ، وتكلم عن وجود ثراء فاحش في المجتمع ، بجانب فقر مدقع ، حتى أنه أحضر احصائية بالأرقام ، تدل على أن نفقة الحمار في مصر ، تتكلف أكثر من ابن صاحب الحمار ، وتكلم عن التخطيط الاقتصادي الحاصل ، ودعا الناس من جديد إلى الأخذ بالإسلام ، وشرح قواعد النظام الاقتصادي في الإسلام ، وهي أن المال الصالح هو قوام الحياة ، وأن العمل واجب على كل قادر ، ودعا إلى الكشف عن منابع الثروات ، وتحريم الكسب الخبيث ، والتقريب بين الطبقات ، وحرمة المال ، ومسئولية الدولة ، وعدم استغلال النفوذ ، وطالب باستغلال النقد ، وتمصير الشركات ، واستغلال منابع الثروة والصناعة ، واقترح نظاماً للملكيات في مصر ، ووجوب تحديداتها ، وتنظيم الضرائب ، ومحاربة الربا ، وتشجيع الصناعات المنزلية ، وتقليل الكماليات ، وكان كل ذلك حول سنة ١٩٤٠ ميلادية في وقت لم يكن أحد فيه يستطيع أن يتكلم بهذه الجرأة ، ولا أن يطرق هذه الموضوعات فضلاً عن أن يقترب منها . وكانت الجماعات الصوفية تخاف أشد الخوف من أن يذكر أحد أعضائها كلمة تتصل بالنظام ، أو الإدارة السياسية .

وننتقل للكلام عن «رسالة التعاليم» ان هذه الرسالة من أهم ما أنتجه الأستاذ رحمه الله، وقد كتبها عندما كان معتقلاً في سجن قنا، ثم أرسلها سرا إلى اخوانه في القاهرة، وكنا ننسخها على مصابيح الجاز والشموع في ذلك الوقت، وكنا نخبئها ونحرص عليها، لأنه كتبها بروح المدح، كوصية، إذ كان يتوقع أن يقتل في ذلك السجن البعيد — وهذه مقدمتها:

«الحمد لله، والصلاة والسلام على امام المتقين — وقائد المجاهدين — سيدنا محمد النبي الأمين — وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين — أما بعد فهذه رسالتي إلى الاخوان المسلمين، الذين آمنوا — بسمودعوتهم، وقديسة فكرتهم، وعزموا صادقين — على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الاخوان فقط، أوجه هذه الكلمات الموجزة، فهي ليست دروساً تحفظ، ولكنها تعليمات تنفذ، فإلى العمل أيها الاخوان الصادقون، «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم عما كنتم تعملون» «وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون».

أما غير هؤلاء، فلهم دروس ومحاضرات وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات، «وكلا وعد الله الحسنى» أيها الأخوة الصادقون: أركان بيعتنا عشرة فاحفظوها: الفهم والاخلاص والعمل والجهاد والتضحية والطاعة والثبات والتجرد. والأخوة والثقة.

إنما أريد بالفهم، أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صميمة، وأن تفهم الإسلام كما نفهمه في حدود هذه الأصول العشرين، الموجزة كل الایجاز...

(١) أن الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً — فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو هو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة مخلصه سواء بسواء.

(٢) والقرآن الكريم، والسنة المطهرة، مرجع كل مسلم في تعرف أحكام

الإسلام، ويفهم القرآن الكريم طبقاً لقواعد اللغة العربية، من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة، إلى رجال الحديث الثقات.

(٣) وللايمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة، نور وحلاوة، يقذفهما الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر، والكشف والرؤى، ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه...

(٤) والتمائم والرقي، والودع والرمل، والمعرفة والكهانة، وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان في هذا الباب، منكر تجب محاربته، إلا ما كان آية من قرآن، أو رقية مأثورة.

(٥) ورأي الامام ونائب الامام، فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة، وفي المصالح المرسلة معمول به، ما لم يصطدم بقاعدة شرعية. وما جاءنا عنه السلف الصالح قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع، ولكن لا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح (ونتركهم) أو نكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا، يعني حسابهم على الله.

(٧) ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع، أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه، وأن يتقبل كل ارشاد مصحوب بالدليل، متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وإن يستكمل نقضه العلمي، إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر.

(٨) والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرقة في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي للنزاهة في مسائل الخلاف، في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب، (المراء هو الجدل).

(٩) وكل مسألة لا يبنى عليها عمل، فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً، ومن ذلك كثرة التفريعات في الأحكام التي لم تقع، والخوض في

معاني الآيات الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم، وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته، وجزاء نيته، وفي التأول مندوحة (أي أننا نتأول الأحداث ولنا في ذلك سعة بدلا من اصدار الأحكام).

(١٠) ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثه الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه تؤمن بها كما جاءت، من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه: «والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا».

(١١) وكل بدعة في دين الله لا أصل لها، استحسناها الناس بأهوائهم، سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه، ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها، بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها.

(١٢) والبدعة الإضافية فيه والتركية (أي بدعة بترك واجب) والالتزام في العبادات المطلقة، خلاف فقهي لكل فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

(١٣) ومحبة الصالحين واحترامهم، والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربا إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى «الذين آمنوا وكانوا يتقون» والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع افتراض انهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم، أو بعد مماتهم، فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم...

(١٤) وزيارة القبور أيا كانت، سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، لكن الاستعانة بالمقبرين أيا كانوا، ونداؤهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشديد القبور عليهم وسترها واضاءتها والتمسح بها، والحلف بغير الله، وما يلحق بذلك من المبتدعات، كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة، (أي سدا لهذا الباب).

(١٥) والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه، خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة (أي نصحح الأسلوب للجاهل ولا نحكم بكفره).

(١٦) والعرف الخاطيء لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة، والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

(١٧) والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من أعمال الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعاً، وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

(١٨) والإسلام يحلر العقل ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

(١٩) وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لم يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤل الظني منها حتى لا يختلف مع القطعي، فإن كانا ظنيين / فالنظر الشرعي أولى بالا اتباع / حتى يثبت العقلي أو ينهار.

(٢٠) ولا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاها وأدى الفرائض، (لا نكفره) برأي أو معصية، إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسر على وجه لا تحمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويل غير الكفر.

وإذا علم الأخ المسلم دينه في هذه الحدود فقد عرف معنى هتافه دائماً «القرآن دستورنا والرسول قدوتنا». وبقية الرسالة تمضي في شرح القواعد التسعة التي أشرنا إليها آنفاً.

أقول: ان هذه الأصول العشرين قد ترجمت إلى لغات شتى وألفت لها شروح كثيرة واهتم الناس بها اهتماماً عظيماً، لأنها أساس صالح لوحدة الفكر بين المسلمين.

رسالة نظام الأسر: ان نظام الأسر في جماعة الأخوان، يقوم على فكرة أن يتآخى في الله عدد قليل من الأفراد ويجتمعون في بيت أحدهم، أو في مسجدهم، أو في مكان عام، يتدارسون فيه كتاب الله، ويأمر بعضهم بعضاً بمعروف، أو ينهى بعضهم بعضاً عن منكر، ويتكافلون فيما بينهم، عملاً بقول الله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه».

ونظام الأسر هذا، كان له فضل عظيم في تربية أعداد كبيرة من الخلق في سائر أنحاء الدنيا، فهو يبدأ في التعارف ثم بالتفاهم ثم بالتكامل، إن هذه الرسالة تبين هذه العلائق، وتحددها، ومعلوم أن بعض السلطات الحكومية لا تحب ذلك ولا تسمح به.

رسالة العقائد فيها تعريف العقائد — درجات الاعتقاد — تقدير الإسلام للعقل — أقسام العقائد الإسلامية (الالهيات) والكلام عن ذات الله تبارك وتعالى، والتفكر في ذات الله، وأسماء الله الحسنى، واسم الله الأعظم، وصفات الله تعالى، وبجمل صفات الله في القرآن الكريم، والأدلة على إثبات صفات الله، وكلام العلماء الطبيعيين في إثبات وجود الله، ومذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها، ومذهب الخلف وترجيح مذهب السلف، هذه الرسالة تجعل قارئها سليم العقيدة، لا يقع تحت طائلة الانحرافات التي شاعت وكثرت في هذا الزمان.

رسالة المأثورات وهي من أقدم ما كتب الامام الشهيد حسن البنا رحمه الله، وقد فقدت النسخة الأصلية التي كتبها بخطه بعد أن طبعت وتداولها الناس، ووقع فيها بعض الخطأ والتحريف، فقام الأخ العالم الشيخ رضوان، محمد رضوان بتحقيقها من جديد، على كتب السنة المعتمدة. والسبب في تأليف هذه الرسالة — أن دعوة الإسلام قامت على اتباع الصوفية في كثير من البلدان، فقد كان أكثر المتدينين في مصر يتبعون الطرق الصوفية، وكانت لهم أوراد وأحزاب يقرأونها في الصباح والمساء، ثم لاحظ الامام (رحمه الله) بأن هذه الأوراد في بعضها خروج عن المأثور، وفي بعضها اختراع من كلام المشايخ لا أصل له، وفي

بعضها عبارات سريانية وأعجمية لا يجوز التعبد بها ، وقرر أن يقتبس من تلك الرسائل رسالة واحدة ، مستندة في جميع ما كتب فيها إلى القرآن الكريم ، أو إلى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في مناسبات شتى ، بدلا من أن يقول لهم لا تقرأوا ورد الشيخ فلان ، يقول لهم اقرأوا هذه المأثورات ، أي الدعوات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان من سياسته أنه قبل أن ينهك عن شيء يقدم لك البديل ، النافع الذي يجعلك تحب الحق وتترك الباطل .

إن رسالة المأثورات هذه تشتمل على عدة أقسام ، فالقسم الأول فيه الوظيفة ، يعني (ما يوظفه الإنسان على نفسه من الذكر والدعاء) وقسمها إلى قسمين : وظيفة صغرى ووظيفة كبرى ، أي اختصر الوظيفة الكاملة التي يقال كل دعاء منها ثلاث مرات ، اختصرها إلى مرة واحدة ، وحذف بعض المطولات ، بحيث لو كنت مستعجلا أو تريد أن تسافر أو تنصرف للعمل ، فتكتفي بالوظيفة الصغرى ، وقال أنه لا ينبغي الالتزام بهذه الأدعية وإنما تقال عند الفراغ ، وعندما لا يكون القلب مشغولا بالدنيا فينشغل بذكر الله تعالى ، وبدأها بمقدمة لآداب الذكر وأهميته ، وفضل الذكر والذاكرين ، والذكر في جماعة . ثم تكلم عن الورد القرآني ، وقال أنه قدر من القرآن ، يقرؤه الإنسان يوميا مهما يكن قليلا ولا يترك ذلك حتى لا يهجر القرآن قال تعالى « وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » وتكلم عن فضل القرآن الكريم ، وعن مقدار الورد ، وعن سور يستحب الاكثار من تلاوتها ، وعن آداب التلاوة ، وعن مجلس الاستماع ، تكلم كذلك عن أدعية اليوم والليلة ، كما وردت في كتب السنة ، مثل كتاب الاذكار (للنووي) وغيرها تكلم عن دعاء الاستيقاظ من النوم ، ودعاء لبس الثوب وخلعه ، ودعاء الخروج من المنزل ، ودخوله ودعاء المشي إلى المسجد ، ودعاء التخلي والمباشرة ، ودعاء الوضوء والغسل والأذان ودعاء النوم وختام الصلاة ، وختام المجلس ، وأدعية في حالات مختلفة أيضاً ، مثل دعاء الاستخارة الشرعية ، وصلاة الحاجة وأدعية السفر ، وأدعية الظواهر الكونية وأدعية الزواج ، وأدعية المراثيات ، وأدعية السلام والتحية ، وأدعية عوارض الحياة وأدعية المرض

والوفاة، وصلاة التسبيح... الخ.

هذا ومن أורاد الأخوان: ورد الدعاء وورد الرابطة، وورد المحاسبة، كذلك لكي يظل لسان المسلم رطباً بذكر الله تعالى، ولكي لا يشغله شيء أبداً عن ذلك، وعن تلاوة القرآن الكريم.

رسالة الأخوان المسلمون تحت راية القرآن: كان هذا خطاباً ألقى في دار الاخوان المسلمين بالقاهرة، في سنة ١٣٥٨ هـ ابريل سنة ١٩٣٩ م وبه طابع الحماس، وكان عدد كبير من الشباب قد حضر هذا المؤتمر، ونكتفي بقراءة مقدمة هذا الخطاب.

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً، أحييكم بتحية الإسلام أيها الاخوان المسلمون، أيها الناس أجمعون.

في هذا الصخب الداوي من الكوارث الكثيرة المريعة، التي تلدها الليالي الحبالى، في هذا الزمان وفي هذا التيار المتدفق الفياض، من الدعوات التي تهتف بها أرجاء الكون، وتسري بها أمواج الأثير، أنحاء المعمورة، مجهزة بكل ما يغري ويخدع، من الآمال والوعود والمظاهر، نتقدم بدعوتنا نحن الأخوان المسلمون، هادئة ولكنها أقوى من الزوابع العاصفة، متواضعة ولكنها أعز من الشمم الرواسي، محدودة ولكنها أوسع من حدود أقطار الأرض جميعاً، خالية من المظاهر الزائفة، والبهرج الكاذب، ولكنها محفوفة بجلال الحق وروعة الوحي ورعاية الله، مجردة من المطامع والأهواء، والغايات الشخصية والمنافع الفردية، ولكنها تورث المؤمنين والصادقين في العمل لها، السيادة في الدنيا والجنة في الآخرة، هذه رسالة الماضي القوي الملتهب إلى الحاضر الفتى المضطرب.

إلى الشباب الزاخر للجد التليد، إلى الأمة الحيرى على مفترق الطرق، إلى ورثة الدم القاني، الذي سطر على هام الزمان آيات الفخار، إلى كل مسلم يؤمن بالسيادة في الدنيا والسعادة في دار القرار.

وتستطرد الرسالة بهذا الحماس الملتهب، فتقول اننا على قدم الدعوة الأولى، ونسير على ضوئها ونتكلم عن مهمتنا ودعوتنا، وتمضي تعدد توجيهات من هذا النوع...

ومن رسائل الأخوان المسلمون كذلك «القانون الأساسي» هذا القانون وضع سنة ١٩٢٩م عند بدء قيام الدعوة لينظم العلائق ويرسم الشكل الإداري لهذه الجماعة، وأذكر كذلك أنه عدل مرة أخرى سنة ١٩٤٦م، تعديلاً طفيفاً، وهو ينص في مادته الأولى على الغاية والوسيلة فيقول: «إن غاية الأخوان المسلمين هي العمل على تربية جيل جديد، يفهم الإسلام فهماً صحيحاً، ويتأثر به ويعمل بتعاليمه، ثم ينطبق عليها، ويدعو الناس إليها إنه امتداد لرسالة الإسلام.

ثم يفصل القانون بعد ذلك الأمور التي يتناولها كل قانون لكل جماعة. ولكن تغلب عليه في كل فقرة من فقراته روح القرآن الكريم؛ وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

فكل مادة منه يمكن أن نرجعها إلى أصل من أصول هذا الدين.

ومن الرسائل المهمة كذلك اللائحة الأساسية:

وهي التي تنظم العلاقات الداخلية والأنظمة المالية وكل شئون تلك الجماعة الكبيرة التي نمت وازدهرت حتى بلغت شعبها أكثر من ثلاثة آلاف شعبة في القطر المصري وحده فضلاً عن الفروع التي لها في العالم العربي وكان قانون الجماعة يدرس من عامة الأفراد لكن اللائحة الأساسية كان يدرسها القائمون على الإداريات حتى تتم الوحدة الفكرية بينهم.

أما مذكرات الدعوة والداعية: — فهي آخر ما كتبه المرشد تقريباً.

ومعلوم أن الذي يريد أن يتعرف على كتاب ما — يقوم بقراءة المقدمة والفهرس وفيما يلي شيء من المقدمة لهذه الرسالة.

يقول رحمه الله لا أدري لماذا أجد في نفسي رغبة ملحّة في كتابة هذه المذكرات بعد أن أعرضت عن ذلك اعراضاً تاماً، على أثر عثور النيابة على مذكرات خاصة، التي كتبتها سنة ١٩٤٠، وما لقيت من المحقق من عنيت وارهاق، في غير جدوى ولا طائل ولا موجب، إلا تحويل الألفاظ غير ما تحمل،

واستنباط النتائج التي لا تؤدي إليها المقدمات ، بحجة أن هذه هي مهمة النيابة العمومية باعتبارها سلطة اتهام . ولعل ضياع معظم هذه المذكرات بعد ذلك هو السبب المباشر في هذه الرغبة ، لأنه من العزيز عن المرء ، أن تضيع من بين يديه هذه الذكريات العزيزة ، وهي صفحات حياته ، التي يسري باستعراضها عن نفسه ، ويتركها لغيره من بعده ، بالرغم من هذا الضياع للمذكرات ، فأنني لا زلت أذكر الوقائع كأنها بنت الساعة ، ولعل هناك سبباً آخر للكتابة ، حتى لا تأتي على هذه المذكرات عوادي الزمن ، (واختلاف الليل والنهار ينسى) . ومهما يكن من شيء ، فسأكتب نزولاً عن هذه الرغبة ، فإن لم يكن الخاطر رحانياً فالحمد لله ، وإن يكن غير ذلك فاستغفر الله ، وهي إن لم تنفع فلن تضر ، والخير اردت ، والله ولي التوفيق . وإن كنت أوصي الذين يعرضون أنفسهم للعمل العام ، والاحتكاك بالحكومات ، ألا يحرصوا على الكتابة ، لأن هذا أروح لأنفسهم وللناس ، وأبعد عن فساد التعليل وسوء التأويل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

ان هذه المذكرات تقع في نحو ٢٧٠ صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير وقد قدم لها الأستاذ الشيخ أبو الحسن على حسن الندوي عميد ندوة العلماء بالهند ، مقدمة جيدة ، قال فيها بعد الحمد :

«يسعد كاتب هذه السطور ويشرفه ، أن يكتب تصديراً أو مقدمة لكتاب مذكرات الدعوة والداعية ، للامام الشهيد حسن البنا رحمه الله و يعتبر ذلك من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله ، ويحسن بها إلى نفسه قبل أن يحسن بها إلى غيره ، فهو كتاب ليس ككل كتاب ، ومؤلفه ليس كالمؤلفين ، وموضوعه ليس كالموضوعات التي يعالجها الكتاب و يتناولها المؤلفون والمحرفون ، فيتهيب رجل مثلي في قلة بضاعته في العلم والعمل ، أن يتقدم بالكتابة والتعليق على هذا الكتاب ومؤلفه العظيم ، ولذلك تأخرت كتابة هذه السطور ، مدة استطالت حتى بلغ حرج النفس كل مبلغ ، وحتى غدوت أخشى وزر احتمال مزيد من التأخير ، ومن حرمان الشباب المسلم ، وجنود الدعوة ورواد الإصلاح من خير

غزير، كفى برهاناً على خلود الإسلام وعلى أنه دين الله المختار، وعلى خلود هذه الأمة وعلى أنها منجية منتجة مورقة مزهرة، كفا برهاناً على ذلك وجود هؤلاء المصلحين والمجاهدين، والعباقرة والموهوبين والمؤيدين والمربين، وقادة الإصلاح، الدين ظهروا ونبغوا في أحوال غير مساعدة، وأجواء غير مواتية، بل أزمنة حالكة مظلمة وبيئات قاتلة، وشعب أصيب بشلل الفكر وخواء الروح، وضمور العاطفة وضعف الإرادة، ورخاوة الجسم ورقة العيش، وفساد الأخلاق، والاخلاد إلى الراحة، والخضوع إلى القوة، والبأس واليأس من الإصلاح.

وأصبح الجيل المعاصر كله، كأنه طبعة واحدة من كتاب واحد، خرجت من مطبعة متقنة، لا تختلف نسخها وصحائفها، فحسبك أن تقرأ كتاباً فتقيس على الباقي، فلا تنوع ولا اختلاف، ولا طموح ولا استشراف ولا شيء غير المعتاد، وأصبحت الحياة قطاراً واحداً، تجره قاطرة واحدة، هي قاطرة اللذة والمنفعة.

وهكذا يمضي الرجل في نقد الأوضاع والأسف على حالة الأمة، ثم يقدم في كتابه مقدمة رائعة جليلة تعتبر هذه المذكرات في الواقع كتاباً من كتب العلم المستقلة.

ويدهشك أن ترى مؤلف المذكرات رحمه الله؛ متذكراً للأسماء والأشخاص، والحوادث والجزئيات الصغيرة، التي مرت به منذ أن كان طالباً في الدراسة الابتدائية، إلى أن كتب هذه المذكرات، ومات عنها حوالي سنة ١٩٤٩ تقريباً، ومن عناصرها مدرسة الرشاد الدينية، العودة إلى الجمعيات الإسلامية في القاهرة، فكرة تكوين دعاة إسلاميين، وموجة الاحاد والاباحية في مصر، جمعية الشبان المسلمين، جمعية الاخوان المسلمين، نماذج من تصرفات الرعيل الأول، مشروعات الوعظ والارشاد، دار الاخوان ومسجدهم في الاسماعيلية، المساجد في الاسماعيلية، وافتتاح مسجد الاخوان، الدعوة خارج الاسماعيلية، نماذج من الكيد الحقيق، ذكرى الهجرة سنة ١٩٤٨ الجاه والمال، المؤامرة الأولى، المؤامرة الثانية، نصوص من ذكريات الاسماعيلية، ميثاق عربي، الدعوة في القاهرة،

ابتداء نشاط الاخوان في القاهرة، مجلة الاخوان الاسبوعية، مجلة النذير، جماعات الاخوان المسلمين في ذلك العهد، اجتماع مجلس الشورى العام، الجماعات والتبشير، نموذج من رحلة في سبيل الدعوة، التضحية بالمراكز والألقاب، هيئة مكتب الارشاد العام للاخوان المسلمين، مجلس الشورى العام الثاني، مشروع المطبعة الأولى، الاخوات المسلمات بالقاهرة، نماذج من مؤتمرات الاخوان في الأقاليم، نموذج من اجتماع الجمعيات العمومية للاخوان في الأقاليم، عقيدة الاخوان في نظر كاتب أوروبي، ويتكلم عن الجلسات وجدول الأعمال، الدعوة في الأقطار العربية، الاخوان المسلمون في دمشق، دار الاخوان في القاهرة، الدعوة في بيروت، قضية فلسطين والاخوان، مذكرة سنة ١٩٣٦ والمطالب الخمسون من الاخوان المسلمون إلى سفير بريطانيا، أول مساعدة حكومية للاخوان كانت ١٥٠ جنيه لشعبة الأقاليم، مكتبة الارشاد العام، المؤتمر الرابع للاخوان، ألوان من التنظيم المالي للاخوان، المؤتمر الدوري الخامس، الحفلة الكبرى للاخوان، مجلة المنار، نماذج من معسكرات الاخوان، نموذج من مواقفهم مع الحكومات، نموذج من حديث الثلاثاء والخميس، رأي الاخوان من موقف مصر الدولي، رأي الاخوان في الإصلاح الداخلي، في سبيل فلسطين العربية.

وقد كتبت هذه المذكرات بأسلوب ممتع وشيق، يذكر أسماء الناس والحوادث، ويصور حالة الشعب المصري في هذه الفترة، ونماذج من أعمال الصالحين، ومقاومة مشايخ العلم للباطل وللظلم، وجراتهم على مقابلة مثل الخديوي توفيق، أو الملك فؤاد أو غيره، من أشياء تتصل بالإسلام والعقيدة، والدفاع عن المستضعفين، ومدى ثقة الطلبة في أساتذتهم، ونماذج من تدريس الأساتذة له في دار العلوم، كالشيخ محمد عبد المطلب، الشاعر الأديب البدوي، الذي كان هو معجباً به.

ان قراءة الكتاب في ذاته متعة — لا تكاد تمسكه حتى تتمه، هذا وهناك رسائل أخرى ضاعت ولم يمكن العثور عليها، وهذا ما تيسر لنا من تلخيص عام للروح والظروف أو لرسائل الاخوان المسلمين، التي كتبها الامام الشهيد، أو

أذن أن يكتب عليها هذا العنوان لعل ذلك يدفع الناس للبحث عنها والاطلاع على ما فيها من كنوز العلم والمعرفة. نسأل الله أن يغفر لنا وله، وأن يلحقنا به على ما مات عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسة في الأديان والمذاهب الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على آله وأصحابه ومن دعا بدعوته
إلى يوم الدين .

هذه نظرة عاجلة في التعريف بالديانات السماوية ، والمذاهب التي أخذت
شكل الأديان ، مع مقارنتها بسميزات الإسلام والغرض من ذلك أن يحيط المسلم
علماً بما أنزل الله من ديانات سابقة على الإسلام ، وبما وضع الناس من ديانات
ومذاهب ليست سماوية ، ولم يقل أصحابها أنها من عند الله .

وقد اعتمدتُ بالدرجة الأولى في هذا البحث على كتاب «مقارنة الأديان»
للشيخ محمد أبوزهرة رحمه الله ، والذي طبع في مصر في دار الفكر العربي ، وهو
مختصر جامع محقق — ثم أضفت إليه بعض الآراء ، من مشاهداتي التي رأيتها في
حياتي .

وسوف نبدأ بمقدمة عن أصل التدين ثم نتكلم عن الديانة المصرية القديمة
ثم البرهمية ثم البوذية ثم الكونفوشوسية ثم اليهودية ثم المسيحية ووثنية
اليونان وديانة الرومان ونختم بسميزات الإسلام .

هذا البحث ليس انتقاداً لدين معين ، وليس هجوماً على مبدأ أو على فكر
بذاته ، وإنما هو استعراض محايد ، مدعم بالوثائق والمراجع المعتمدة عند أهلها ، وقد
سبق نشر مثله من قبل ، فأنا لم آت فيه بجديد ،

حاجة البشر للتدين

إن احتياج الناس للتدين أمر فطري ، قال رجل لعبدالله بن عباس «دلني
على الله» : قال هل ركبت البحر؟ قال نعم . قال : واشتدت بك الريح في يوم
عاصف؟ وظننت أنك هالك لا محالة؟ قال نعم . قال واتجهت نفسك إلى أن
هناك من يستطيع أن ينجيك؟ قال نعم . قال ذلك «هو الله» . ثم تلا قول الله

عز وجل «حتى إذا ركبوا في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموت من كل مكان، وظنوا أنهم قد أحيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين».

ان بعض الذين لا يؤمنون بالله ولا بالإسلام، يلجأون إلى الله تلقائياً عند الشدة فعلاً.

عندما كانت تنزل القنابل على مدينة الاسماعيلية بمصر أثناء الحرب العالمية الثانية، وكنت فيها، كنا ننزل إلى الأدوار السفلى وكان معنا أخلاط من غير المسلمين — وكانوا يقولون لنا: أيها المسلمون، قوموا صلوا، قوموا ادعوا الله حتى ينجينا من هذه المصيبة، وكنا نعرف عن بعضهم أنهم لا يرتبطون بدين، ولم يسجدوا لله سجدة، ولكن الإنسان ضعيف، محتاج إلى قوة هائلة تحميه من عوادي الزمن.

والخلاف بين أصحاب الديانات هو خلاف عناد وكبر، وتمسك بموروثات خاطئة، وأحياناً بمصالح شخصية، أساسها حب السيطرة — إن الله عز وجل موجود، وآياته تملأ الكون — لا يحتاج إثبات وجوده إلى كلام كثير — لكن الذي ضل فيه الناس هو تصور الألوهية، ونحن نسميه «التوحيد».

الفرعونية

نتكلم الآن عن الديانات المصرية القديمة يقول المؤرخ «هيرودت»: إن المصريين كانوا من أشد البشر تديناً... ولا يعرف شعب قديم بلغ في التدين مبلغهم، فإن صورهم وهم يصلون أمام إله، شاهدة بذلك، وكتبهم في الجملة أسفار عبادات ونسك، فتلک الآثار الباقية التي تحكي لنا حياة المصريين كلها قائمة على أساس من التدين والاعتقاد، لكن المصريين لم يكونوا موحدين، لأنه كانت لهم آلهة شتى — فعندهم إله الموتى، وإله العناصر، وإله الشمس، ولكل شيء إله، فكانوا مشركين في عباداتهم، مع إيمانهم باليوم الآخر — وكان إيمانهم باليوم الآخر أيضاً مشوهاً، فكانت عقيدتهم تقوم على أنه من كان سعيداً في الدنيا يكون سعيداً هناك في الآخرة، ومن كان غنياً في الدنيا سيكون غنياً في

الآخرة — ولذلك كانوا يحملون مع الميت ثروته وذهب، وأحياناً يقتلون حصانه وامراته ويدفنونهم معه، حتى إذا بعث يبعث بهؤلاء جميعاً معه.

وهي عقيدة فاسدة، لأن الذي يكون ظالماً في الدنيا لا ينبغي أن يكون ظالماً في الآخرة، والذي يكون غنياً في الدنيا ليس شرطاً أن يكون غنياً في الآخرة، وربما شوّه الكهان فكرتهم عن الديانة، فأخذوا جانباً منها (ونسوا حظاً مما ذكروا به) وورثوا ديانات كانت صحيحة ولكنهم حرفوها، وسارت إلى ما نرى، من آثارهم المنقوشة، ولقد مكن الله ليوسف في أرض مصر — واستولى على خزائنها وصار ذا سلطان ورسولاً من عند الله. فالمعتقد أن يكون قد دعاهم إلى الدين القيم، ولا بد أن يكون قد أجاب منهم أناس وكنل عن الاجابة غيرهم، وتعتمد العقيدة الرسمية عند قدماء المصريين كما قرأنا في نقوشهم على اسطورة قديمة، هي أن إله الخصوبة «أوزوريس» قد عمل على تكوين أسرة إلهية مكونة من أخته وزوجته (إلهة الحكمة) وأسماها «إيزيس» ووزيره إله التدبير والعلم واسمه «توت»، وغيرهم من الآلهة ولكن «أوزوريس» وهو إله الشر والقحط حسد على أخيه وما ناله من عطاء، فدفعه الحقد إلى إيذائه فغدر به. ثم وضعه في تابوت وأغلق عليه وألقى به في اليم، ولما تفقدته زوجته ولم تجده، أخذت تنقب عنه حتى عثرت عليه وجمعت أشلاءه وقرأت عليه بعض التعاويذ فعاد إلى الحياة، ولكنها حياة قصيرة بقدر ما أنسل ابنه «حوروس». ثم غادر هذه الحياة إلى الحياة الأخرى ليقوم بإجراء الحساب والميزان لأهل الدنيا.

ونشأت معركة بين «حوروس» وعمه «توت»، لأنه أنكر نسبه، ووقع بينهما النزاع الدائم ولذلك تقرر أن تكون دائرة «حوروس» في الانتاج والعمارة ودائرة «تي» في الاسكان والتعمير.

والفراعنة أول من قالوا بالتثليث فكان فرعون هو موضع القداسة، ثم «حوروس» خليفته في الألوهية، ثم ارتقى حتى صار يحل فيه «رع» كبير الآلهة.

إن عقيدة التثليث هي التي انتقلت من بعد إلى النصرانية، وعندما نتكلم عن عقيدة الفراعنة نتكلم عنها باعتبارها أثرت في الديانات التي تلتها فيما بعد.

ولم تستمر عقيدة التثليث هذه بل انتقلت إلى تقديس «كاسوع» بدلا من «كاليه» فقد افترضوا أن العنصر الأول الذي تكونت منه الأشياء هو الماء، وأول ما ظهر في الماء هو «رع» وهو الشمس، ومنها ظهر الهواء والفراغ، ومن اجتماعهما وجدت الأرض والسما، ثم قام بالانتاج توت وازوريس الأرض الخصبة — أوزيس الأرض القاحلة — وإلى غير ذلك من المعتقدات العجيبة. وأطلقوا على رب الأرباب اسم «توم» وهناك آلهة أخرى منها «ميآت بني فرع» وهو إله الحقيقة والعدل — وخرافات لا تحصى.

وقد بين الله تعالى هذا بقوله: «إن فرعون وهامات وجنودهما كانوا خاطئين» على أنهم قدسوا الحيوان أيضاً، ورسموه وعبدوه، ونراه في نقوشهم فعبدوا العجل وكان اسمه «أبيس» لأنه عجل شاب لا تستطيع أمه أن تلد غيره، ومن آثارهم «كتاب الموت» وهو كتاب مشتمل على آداب وفضائل، وعلى ما يجب أن تلقنه الروح لتحسن الاجابة أمام محكمة الحساب يوم القيامة، وهو يعد الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين، ويتعبدون بتلاوته وهم أحياء، ويوضع معهم في قبورهم وهم أموات.

ومهما تكن في الديانة المصرية القديمة من أوهام وعقائد فاسدة وسلبيات لا تستمد من المنطق قوة — فإنها اشتملت على بعض الآداب التي اقتبست منها الديانات غير المنزلة، وأخذت بعض الحكم من أفكار المصريين القدماء فتأثرت بها اليونان على وجه الخصوص كما سيأتي.

البرهمية

نشأت البرهمية في الهند/ والهند من الأمم ذات التاريخ الطويل، وبها مدنية قديمة وحضارة توغل في القدم — إلا أن هذه الحضارة قد اندثرت في فترة وصارت كنزاً مدفوناً لم يكشف عنه التاريخ إلا من خلال الآثار التي وصلت إلينا، وهي جزء من تاريخهم الذي بدأ بالغزو الآري — ويذكر التاريخ أن قبيلة آرية غزت الهند في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفرضت على الهنود مدنيتهما وحضارتها وديانتها، وجاءوا إلى حضارة الهند التي كانت موجودة قبل الغزو فطمسوا معالمها.

فهناك ما يدل على أن الهنود كانوا يعبدون النار والشمس وبعض الحيوانات المخيفة، كالنتين المفزع والوحش الهائل وغير ذلك .

وقد استمرت تلك الديانة هي السائدة في الهند إلى أن جاءت البرهمية، وهي التي نتكلم عنها الآن .

يقول أبو الريحان البيروني في الهنود، أنهم عبدوا الله وحده وكانوا يؤمنون بتوحيد الله تبارك وتعالى، وهذا هو اعتقاد الخاصة، أما العوام فإنهم خلطوا وأشركوا — ويقول إن الخرافات التي اتخذت أساساً لعبادة الأوثان فيما بعد، كان سببها أحد ملوكها، فقد كانوا يعبدون القوى المؤثرة في الكون، ثم لم يلبثوا أن جسدوا تلك القوى، بأنهم اعتقدوا حلولها في بعض الأجسام، فعبدوا الأصنام باعتقاد أنها حلت في تلك الأصنام، كما فعل العرب في الجاهلية تماماً، وتعددت آلهتهم حتى وصلت إلى ثلاثمئة إله — ثم انحصرت في ثلاثة أقانيم . أولها «براهما» وهو الإله الخالق مانح الحياة في زعمهم، وقد صدرت عنه جميع الأشياء وينسبون إليه الشمس التي يكون بها الدفء والانتعاش .

ثانيهما «سيفا» وهو الإله المخرب المفني الذي تصفر منه الأوراق الخضراء ويأتي به الهرم بعد الشباب وتفنئ مياة الأنهار في لجج البحار، وهو إذا تأجج لا يبقى ولا يذر .

وثالثهما «فشنو» وهو يحل في المخلوقات ليحي العالم من الفناء التام .

وهذه الآلهة الثلاث هي ثلاثة أقانيم لإله واحد في زعمهم — والإله الواحد هو الروح الأعظم واسمه بلغتهم (آتما) فالهنود يعتقدون أن بعض آلهتهم حلت في إنسان اسمه «كرشنا» التقى فيه الإله بالإنسان، أو حلّ اللاهوت في الناسوت (كما يعبر المسيحيون عن المسيح) و يصفونه بأنه البطل الوديع المملوء ألوهية، لأنه قدم شخصيته فداء للخليقة عن ذنبها الأول، ويقولون إن عمله لا يقدر عليه أحد سواه، وهذا كله من التفكير البرهمي .

ويعتقدون أن الإله «مشنا» هو الثاني من الأقانيم قد حلّ فيه، ومن الغريب أنهم يذكرون حول كريشنا من الأساطير والعجائب ما يشبه ما جاء

بالأناجيل عن المسيح ، فكريشنا في زعمهم قد ولد من عذراء مخطوبة اسمها (ديفاكي) ويصفونه بأنه الاله ، وأن ولادته أحيطت بمعجزات — فالأرض سبحت ، وظهر نجمه في السماء ، إلى آخر ذلك — وهنا يكشف البحث العلمي على أن كتاب الأناجيل الذين قاموا بكتابة مذكراتهم عن السيد المسيح بعد موته بمئات السنين ، قد أدخلوا فيها تلك الأفكار البرهمية ، وسوف نورد بعض النصوص من الكتب الهندية القديمة المقدسة عندهم مقارنة بكتب النصارى .

أقوال الهنود الوثنية في كريشنا: يقولون (إن كريشنا هو الفادي المخلص المعزي والراعي الصالح والوسيط) وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس ، وهو الآب والابن والروح القدس) وقد ورد ذلك في كتاب تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣٢٩ .

ويقول النصارى في المسيح «إن يسوع ابن الله ، وهو الفادي والمخلص والمعزي والراعي الصالح والوسيط — وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن والروح القدس» — ثم جاء في كتاب تاريخ الهند ص ٣١٧ إلى ص ٣٦٧ (عرف الناس ولادة كريشنا من النجم الذي ظهر في السماء) وورد في انجيل مريم في الاصحاح السابع النص الآتي «لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق ، وبواسطة نجمه عرف الناس محل ولادته» .

ويقولون عن كريشنا «شينا يورانا» ص ٥٠٢ (لما ولد كريشنا سبحت الأرض وأنارها القمر بروحه ، وترغمت الأرواح ، وهامت ملائكة السماء فرحاً وطرباً — ورتل السحاب بأنغام مضطربة) وقد ورد في انجيل لوقا الاصحاح الثاني العدد ١٣ قوله (لما ولد يسوع المسيح ، رتل الملائكة فرحاً وسروراً ، وظهرت من السحاب أنغاماً مطربة) .

ويقول الوثنيون الهنود (لما وضعته أمه صارت تبكي وتندب سوء عاقبة رسالته فكلّمها وعزاها) قد ورد ذلك في كتاب تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣١١ — وقد ورد في انجيل الطفولة الاصحاح الأول العدد الثاني والثالث (قال يسوع المسيح لأمه وهو طفل — يا مريم أنا يسوع ابن الله ، وجئت كما أخبرك

جبرائيل الذي أرسله إلى أبيك وقد أتيت لأخلص العالم).

(وقد ورد في كتاب دوان ص ٢٩٧) لما ولد كريشنا أضيء الغاربنور عظيم، وصار وجه أمه «ذيفافي» حينذاك يرسل أشعة نور ومجد) وقد ورد في انجيل ولادة يسوع الاصحاح ١٢ و ١٣) لما ولد يسوع المسيح أضيء الغاربنور عظيم، أعيا بلمعانه عيني القابلة، وعيني خطيب أمه يوسف النجار.

وهناك ما يقرب من ثلاثين نصا كلها متشابهة بين كتب الهندوكية وبين الأناجيل المسيحية.

نظرية الكون في البرهمية وتناسخ الأرواح هذه النظرية عندهم تقرر أن النفس لا تفنى، ولكنها خالدة باقية وقد صرحت بذلك كتبهم، يقولون لا نحن بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه، فإن الأرواح غير مائة ولا تتغير، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة ثم تعود في أجسام أخرى، وهذا ما يقوله بعض فرق المسلمين مثل «الدروز» أيضاً وتقول به بعض فرق المسيحية.

وقد قامت عقيدة التناسخ عندهم على دعامة اعتقاد خلود الروح، واعتقاد أن الروح بعد مزاوله الجسم تكون في حالة تدفعها فتتركب في أجسام أخرى.

نظام الطبقات في الديانة الهندية الناس في نظر الديانة البرهمية ليسوا سواء لا من حيث العبادة ولا الزهادة ولا طلب الزلفى، بل هم مختلفون من حيث الطبقات والأعمال، وقد قسم الناس فيها من حيث مهنتهم وأصولهم إلى أربع طبقات:

الطبقة الأولى هي طبقة البراهمة وهم رجال الدين — الذين يبينون الشريعة والأحكام وهم في أعلا المراتب، وخلصة الجنس البشري، والعقل المفكر والرأس المدبر.

الطبقة الثانية طبقة الجند، ويسمونهم «كشتر» ويزعمون أنهم خلقوا في مناكب «براهمة» أي من أكتافه وبدنه، وهم بذلك الحماية والغزاة والقوة، ومرتبته دون مرتبة البراهمة وهي المرتبة التي تليها.

الطبقة الثالثة هي طبقة الزراع والتجار، وهم مخلوقون من ركبتى الاله «براهمة» في زعمهم، والمسافة التي بينهم وبين ما قبلهم كبيرة جداً، وقرينة من الطبقة التي تليهم.

الطبقة الرابعة طبقة الخدم وهؤلاء خلقوا من قدمي الاله «براهمة» وتسمى «شودر» أن المنبوذون، ولا يجوز لأي طبقة من هذه الطبقات أن تنتقل إلى حالة طبقة أخرى. فالجند لا يرتقون إلى درجة رجال الكهنة — وهكذا — وهناك طبقة أخرى أدنى من هذه الطبقات الأربع وهم أبناء الزنا والأنجاس، والذين يتناولون الأعمال القذرة الحقيمة في المدن والقرى، ويعتبرون أنهم ليسوا من الهند، ويسمونهم «أومليج» ومعناها الأنجاس، وهم مع أبناء الطبقة الرابعة من المنبوذين.

ولكل طبقة من الطبقات عبادة خاصة، فلا يجوز أن تمارس عبادة الطبقة التي هي أعلى منها، ومن عادات الهند إذا مات أكابرهم تحرق جثثهم بعد الموت، لنظرية أن النار في اشتعالها تأخذ حظاً أعلى من أفق الأرض وبهذا تتجه الروح بهذا الاحتراق، إلى أعلى دائرة تصعد إلى السماء في الملكوت الأعلى في أقرب زمن، وهناك سبب آخر هو تخليص الروح من علائق الجسم تخليصاً تاماً.

ومن أهم كتبهم العبادية كتاب «الفيدا» وهو أقدمها فقد كتب قبل المسيح «بـ ١٥ قرناً» والفيدا مكون من أربع مجموعات، لكل واحدة منها نهج خاص ولهم كتب غير ذلك تسمى «البرهيات».

وهذه الإمامة موجزة لما عليه الديانة البرهمية فقد أثرت في الديانات الأخرى أيضاً كما أثرت الديانة الفرعونية فيها.

البوذية

نشأت هذه الديانة بالهند كما حلت فيها البرهمية وكان منشؤها برهياً في الأصل، وهي في الواقع تخصيص لما في تلك الديانة من تعاليم، وتعديل لما أحدثته من تفريق، بين الناس، حيث تتوارى الفروق بينهم.

ومنشئ هذه الديانة هو «بوزا» واسم أسرته «بوتاما» وأحياناً يطلق عليه

اسم أسرته — أما لقب بوذا فمعناه «العالم» وأحياناً يلقب بـ «سكياموني» ومعناها المعتكف .

ولد بوذا بعد المسيح بنحو ٥٦٠ سنة في بلده على حدود نيبال ، وقد كان من أسرة شريفة ، وقد شب مترفاً في النعيم وأقام آمناً في حياته الزوجية الطيبة حتى بلغ التاسعة والعشرين ، فانصرف إلى الزهد والتأمل ، وهجر زوجته وخرج هائماً في الأحرار والغابات ، راغباً عن الدنيا تاركاً ملاذها ، غير معني إلا بالتأملات ، وعاش على خشونة من العيش وأقام على ذلك ست سنين ، حتى إذا بلغ الثالثة والثلاثين ، أحس بنوع من المعرفة قد أشرق في نفسه ، فعاد إلى بلاده يدعو ، فالتف حوله شباب وصار له تلاميذ يدعون بدعايته ، وانبعثوا في الآفاق مرشدين — وظل عددهم ينمو ومذهبهم ينتشر وبوذا من ورائهم لا يكل ولا يمل ، حتى مات عن الثمانين من عمره .

وكانت مدة دعايته ٤٤ عاماً أو تزيد وفيها نما المذهب ، وازداد أنصاره — ولم يكن بوذا معنياً بتأليف الكتب ، بل كان معنياً بكثرة الوصايا والارشاد العملي — عاش حياة ساذجة لا مغالاة فيها ، ولكن الذين جاءوا من بعده أحاطوها بشتى الأساطير ، وذهبوا إلى القول بأن أمه بشرت به في المنام ، وأن ولادته سبقتها معجزات ، وأن الله حل فيها ، وأن حياته كلها قد كانت معجزات ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى تأليهه .

أما البوذيون أهل الشمال والتبت — فقد نعتوا له أوصافاً شتى ، تتوافق مع ما ينحله البراهمة والمسيحيون لشخصية المسيح بعد تغير النصرانية ، وفيما يلي بعض المقابلات بين نصوص البوذية وبين نصوص المسيحية لتعرف وجه التطابق وهي منقولة من كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» .

ويلاحظ أن البوذية وإن كانت قد نشأت في الهند إلا أن أكثر معتنقيها يوجدون في الصين واليابان وسيلان .

هذه المقارنات وردت في كتاب مقارنة الأديان — ومنها قولهم : (كان تجسد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا) كتاب دوان ص ٢٩٠ وفي

انجيل متى في الاصحاح الثاني عدد ١ إلى ١١ العبارة هكذا: (كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم).

نص آخر (لما نزل بوذا في مقعد الأرواح ودخل في جسد العذراء مايا كان رحمها كالبللور الشفاف الفضي، وصار فيه بوذا كزهرة جميلة) — انظر كتاب دوان. وفي انجيل متى أيضاً (لما نزل يسوع من مقعده السماوي وحل في جسد مريم العذراء، صار رحمها كالبللور الشفاف النقي، وصار فيه المسيح كزهرة جميلة) انظر انجيل متى.

(وقد دلّ على ولادة بوذا نجم ظهر في أفق السماء يدعونه نجم بوذا) ... وهذا نص آخر من الانجيل (وقد دلّ على ولادة يسوع نجم ظهر في المشرق يدعى نجم المسيح) وعن كتاب «هردي» المدعوبالعقائد البوذية ص ١٤٥ (لما كان بوذا طفلاً قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعاً) في انجيل الطفولة الاصحاح ١ عدد ٣ (عندما كان يسوع طفلاً قال لأمه مريم أنا ابن الله).

وفي كتاب تاريخ الديانة البوذية (لما أرسل بوذا إلى المدرسة أدهش الأساتذة بعلم مع أنه لم يدرس من قبل، وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية، والهندسية والتنجيم والكهانة والعرافة).

ويشبهه النص الذي من انجيل الطفولة الاصحاح ٢٠ وانجيل لوقا (لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش استاذة «دقيوس» وقال لأبيه «يوسف» لقد اتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم).

وهكذا تمضي هذه النصوص في مقارنات مشابهة والذي تحت أيدينا منها ما يزيد على ٤٣ نصاً تكاد تكون منقولة طبق الأصل.

ننتقل الآن إلى بعض معالم الديانة البوذية: يقول بعض المؤرخين إن «بوذا» شخصية خرافية لا وجود لها، ولكن الثابت من البحث أنه كان حقاً حياً، وكان على جانب عظيم من طيبة النفس، وحسن الخلق ولطف المعشر، وكان يأخذ هموم الناس على عاتقه، ولكنه كان لا يعتقد بوجود الله، فقد زعم بعض المؤرخين بأن بوذا أنكر وجود إله أنشأ الأكوان، وقال: «وأما الإله فهو

العناصر نفسها» وبوذا لم يزعم أنه أنزل عليه وحي، ولا أن ديانتته من عند الله، وإنما هو مفكر أو فيلسوف، والجزء الخصب في البوذية ومذهبها هو جانب الأخلاق واصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء، فلقد لاحظ بوذا أن هذه الحياة تحفها الأكدار والآلام — وتجعل الإنسان في تنغيص دائم ومنشأ ذلك الرغبات التي استحوذت عليها الملاذ والشهوات، فتخليص النفس من الملاذ والشهوات يجعلها في سعادة.

وقد دعا بوذا إلى السلوك المستقيم، ودعا إلى الاشراق الصحيح في النفس الإنسانية، وإلى دقة تحليل الأشياء، وإلى بذل الجهد في جعل الحياة سعيدة، ويقولون إن كتبه استملت على عشر وصايا منها قوله: (١) «لا تقتل أحداً ولا تقض على حياة أي كائن. (٢) لا تأخذ ما لا يقدم إليك، فلا تسرق ولا تغتصب. (٣) لا تكذب ولا تقل قولاً غير صحيح. (٤) لا تشرب خمرأ ولا تتناول مسكراً. (٥) لا تزن ولا تأتي أي أمر يتصل بالحياة التناسلية، إذا كان محرماً. (٦) لا تأكل طعاماً نضج في غير أوانه. (٧) لا تأخذ طيباً، ولا تكلل رأسك بالزهر. (٨) لا ترقص ولا تحضر رقصاً ولا حفل غناء. (٩) لا تقتن فراشاً، وثيراً، ولا أرائك فخمة ولا حشايًا وثيرة. (١٠) لا تأخذ ذهباً ولا فضة — هذه هي الوصايا العشر الذي يأخذ بها البوذيون.

ولكن هذا التشديد كان سبباً في أن انقسم البوذيون إلى قسمين: بعضهم أخذ بهذه التعاليم لا يحيد عنها قيد أملة، ولا زال على ذلك، وهذه طبقة الرهبان.

والبوذيون المدنيون لم يطبقوا تطبيق هذا المنهاج الشاق، واختاروا لأنفسهم طريقاً وسطاً ليس فيه مثل اسراف الآخرين في الملذات، ولا شدة البوذيين الرهبان، فهو وسط بين البراهمة والبوذية، كما أن البوذية لم تكن بالبحث عما وراء الطبيعة، فلم تشغل بالدراسات التي تتصل بالألوهية — كل ما عנית به هو اصلاح النفس الإنسانية، ولكن البرهمية كان فيها الاهتمام بالجانب الالهي والتقرب للمعبود والفناء فيه.

كتب البوذية ليست منزلة ولا هم يدعون ذلك ، ولكنها منسوبة إلى «بوذا» شخصياً ، والديانة البوذية من أوسع الديانات انتشاراً ، يتبعهم في ذلك مئات الملايين وكذلك البرهمية يتبعها خلق كثير ، فمعظم أقاليم شرقي آسيا وجنوب شرقيها تتقاسمهم أربع ديانات أساسية ، هي البرهمية والبوذية والكونفوشوسية والإسلام .

ونتكلم الآن عن الكونفوشوسية بادئين بالكلام على حياة «كونفوشوس» .

(«ان كلمة كون» هو الاسم «يوس» أي حكيم) وقد حرفها الغربيون إلى كونفوشوس .

ولد عام ٥٥١ ق.م . باحدى قرى مقاطعة الصين ، من أسرة عظيمة يجري في عروقه دم ملكي ، وكان أبوه حاكماً ، لإحدى المدن وعاش حياة هائلة ، ونيف على السبعين عاماً ، وعندما بلغ الثالثة من عمره فقد أباه وعاش على سمعة أسرته ، وتعلم العلم ، وكان له سلطان قام على نفسه ، ثم أصيب بفقر شديد ، ورحل زاهداً في الدنيا يهيم على وجهه في الغابات مثل «بوذا» . ثم تزوج من امرأة أحبها ، وأنجب منها طفلاً وبنثاً ثم بعد ذلك اعتكف على دعوته إلى مذهبه الجديد ، وجمع حوله الأنصار ، وقد فعل ما فعل «بوذا» وجعل يطوف في الآفاق مرشداً رائداً حاثاً أصحابه على الأخلاق القويمة ، حتى استطاع أن يكون هذا المذهب ، ولم يمت كونفوشوس حتى ترك تلاميذه الذين أخذوا على عاتقهم بث دعوته في الأقاليم الصينية ، وكانوا ثلاثة آلاف نبغ منهم اثنان وسبعون ، وكلهم تعاونوا على نشر مذهبهم الخلقي في البلاد ، حتى صار بعد ذلك مذهباً رسمياً لهذه البلاد المترامية الأطراف ، واستمروا كذلك من أواخر القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعد الميلاد .

عقيدة كونفوشوس

لقد عكف على دراسة أصول التعليم الديني ، التي كانت سائدة عند الصينيين الأقدمين ، فأحياها ودون أصولها ، ولم يتعرض في دراسته الخاصة

لنناقشتها، ولم يكن له مذهب يدعو إليه سوى الدعوة إلى السلوك المستقيم، ولم يكن مدعياً للرسالة، ولم يكن رسولا ولا مبعوثاً إلهياً، ولكنه كان حكيماً فيلسوفاً، يبشر بمذهب في الأخلاق، ويستمسك به أشد الاستمساك، فأما عقيدته الدينية فهي ما كان يعتقدّه الصينيون القدماء، ولا تزال عقيدته هذه سارية عند أكثر الصينيين المعاصرين.

وأساسها أنهم يعبدون ثلاثة أشياء السماء الأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء وأرواح الآباء، ومن الغريب أن ترى هذا التوافق في التثليث عند قدماء المصريين إلى البراهمة إلى الصينيين إلى المسيحيين وصدق الله تعالى إذ يقول في شأن هؤلاء (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون).

وأتباع هذا الفيلسوف يؤمنون بالقضاء والقدر، ويقولون إن كل الحوادث مقدرة في السماء، ومن العقائد المتعلقة بذلك أن الملك «أو الحاكم» واجب عليه بأمر السماء أن يحكم الرعية بالعدل، فإن قسا وظلم سلطت عليه من السماء ومن رعيته من يخلعه أو يقتله، ومن عقائد الصينيين أن أرواح الأموات تنفصل عنهم بعد الموت وتبقى في الدنيا مع أسرهم، ولذلك هم يعبدون أرواح الآباء

ديانة اليونان

اليونان القدماء يؤلفون ظواهر الطبيعة، ويعبدونها كما فعل الفراعنة من قبل، فهناك آلهة للسماء والأرض، والبحر والشمس والزمن، وجعلوا لكل واحدة منها إله مذكر، أو آلهة مؤنثة، مثل «سهيра» ربة القوى المنتجة في الطبيعة، «وآريس» أو المريخ إله الحرب، «وأبولو» إله الموسيقى والنور، «وهراميس» رسول الآلهة ورب الفصاحة، وأثينا ربة الحكمة، وهيروديس ربة الحب والجمال، «وبردويس» ربة الخمر والتمثيل «وفراجيني» ربة الحزن.

وكان لكل مدينة أربابها الخاصة، ومعبوداتها الكثيرة، وربما اتحدت في الاسم مع أرباب المدينة الأخرى. «لكن أبولون» في مدينة ليس هوفي مدينة أخرى، ولكن مع هذا الاختلاف كان اليونان يجمعون على عبادتها وتقديسها في

كل مكان، ومنها «بورا» «وأثينا» «وعطارد وزحل كرونوس» وكان اليونان يعبدون النجوم أيضاً وأرباب اليونان، يزعمون تجسداً و يصورون حياتها كحياة الإنسان، لكن على أكمل صورة جسدية أو شهوانية.

من أجل هذا اكثرت التماثيل وكثرت الأصنام، وقد بقيت تلك الديانة حتى ظهرت المسيحية التي غالبتها حيناً من الزمن، وكادت المسيحية أن تقضي عليها، ولكنها بعد فترة من الزمن، استطاعت أن تؤثر في المسيحية، على كل حال لقد اعتقد الرومان كما اعتقد اليونان، بأن كل ما يحدث في هذا العالم هو كل ما قضت ارادة خالق له، ولكنهم لم يعتقدوا بوحداية الخالق، بل عددوا أربابهم بتعدد مظاهر الطبيعة، فهناك رب يحمل البذور وإله يحمي الحقل وآخر يحرس الثمار، ولكل رب اسمه وجسمه وعمله.

فسموا إله السحاب «جوبيتر» وإله الحرب «مارس» وإله الشجاعة «هيراكولس» وهو ما يسمى بهرقل — وقد اقتبسوا بعض أسماء لآلهتهم من المصريين القدماء، فعندهم «أوريس» إله القمر «وأوزوريس» إله الزراعة «وييراميس» إله الشفاء وكلها أسماء مصرية، وعندهم أرباب للمدينة ولكل شجرة رب خاص.

لقد قال الكاتب اللاتيني «نيرون» في إحدى قصصه (إن بلادنا غاصة بالأرباب، بحيث يسهل عليك أن تقابل رباً من أن تصادف رجلاً) وقد مرت عليهم مدة لم يمثلوا هذه الأرباب في تماثيل. ثم اتخذوا بعد ذلك الأصنام من الخشب أولاً، ثم من الرخام. ولم تكن آلهتهم على صور البشر كآلهة اليونان، ولم يفرضوا من الأرباب صهراً ونسباً، وإن لكل إله تاريخاً يبدأ من مولده إلى موته — فكان اليونان يؤمنون بالتشاؤم، فيذهبون إلى أبواب الأرباب ويتبركون بهم، ويرسلون إلى الناس معلومات باسم الآلهة، إلى غير ذلك من الخرافات التي لا نحب أن نطيل فيها.

ولكن هذه العقائد انسحبت فيما بعد على الحضارة الأوربية كلها — فالحضارة الأوربية مقتبسة من حضارة اليونان والرومان وقد كان الرومان

يققدسون الأباطرة، و يقيمون لهم المحاريب وقد ظهر نجم مذنب يوم موت قيصر فكان عندهم اشارة لموته كما يزعمون .

اليهودية

لقد قص علينا القرآن الكريم من نبأ إسرائيل وما فعلوه مع موسى عليه الصلاة والسلام، بما لا مزيد عليه للباحث، ولكننا نود أن نوجز العقيدة اليهودية فيما يأتي:

هي ديانة سماوية إلهية، وقد أرسل الله لهم رسولا ومعه كتاب هو التوراة، وبين لهم فيه الشرائع والآداب والأخلاق التي يجب على كل متدين أن يسير عليها/ وأن الله سماهم المسلمين كما سمي أتباع كل دين .
فالمسلمون الذين أسلموا وجوههم لله عز وجل .

ولكن اليهود عصوا أمر ربهم، وعصوا التعاليم الربانية، واعتدوا في يوم السبت، وارتكبوا جرائم كثيرة وأول هذه الجرائم في نظرنا نحن المتأخرين — اخفائهم للتوراة، إن التوراة الأصلية قد اختفت تماماً، ولا توجد على وجه الأرض، ولا يستطيع يهودي منذ قرون بعيدة أن يقول لك أين التوراة. لكنهم كما أخبر القرآن الكريم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا .

نعم توجد تراجم للتوراة — لكن لا توجد نسخة على لسان سيدنا موسى يمكن اعتبارها موثقة، أو أن فيها ضمير المتكلم المنسوب إلى الله كما في القرآن الكريم — ثم إن كهان اليهود عملوا شروحا للتوراة سموها « التلمود » . وإن هذه الشروح مليئة بالقصص الاجرامية عن الأنبياء والصديقين التي لا يمكن أن تصدر عن إله، ولا عن نبي ولا عن أي إنسان عاقل، كما أن فيها دعوة صريحة لاضطهاد وقتل كل من لم يكن يهودي الأصل .

فكتاب التلمود الآن هو الذي يتعبد به، وهو دستور اليهود وكان تدوينه بهذا الشكل نتيجة لاضطهاد اليهود عبر التاريخ، لذلك فهو مليء بالحقد على أهل الحق، وعلى الأنبياء وعلى المرسلين، وعلى البشرية جمعاء، ومن تعاليم التلمود

اقتبست بروتوكولات حكماء صهيون، وهي قرارات تحمل نفس ألفاظ التلمود الذي يقولون عنه صراحة إنه ليس من عند الله، ولكنه مقدس أي أننا نحن اليهود قررنا أنه مقدس.

إن الشعب اليهودي شعب عبد المادة، وقسا قلبه، وانشغل بالذات الدنيوية قال تعالى «ولتجدنهم أحرص الناس على الحياة» ولذلك تراهم أصل الفساد في كل دولة، ولم يسلم دين الإسلام نفسه من شرهم، فقد اندس في دين الإسلام من تظاهربه، وهم باقون على ديانتهم اليهودية، وأحدثوا فيه أحداثاً ضارة — ومعلوم أن زوال الخلافة كان مؤامرة يهودية.

هذه هي الديانة اليهودية ومعالمها ظاهرة، وكتاب الشريعة اليهودي يسمى «بالعهد القديم» وهو الذي أخذ به المسيحيون في المعاملات إذ لم يكن في كتابهم تشريع، إذن فالتوراة المترجمة التي تشمل على بعض الأحكام الشرعية اليهودية، أصبحت كتاب تشريع للمسيحيين.

وعندما جاءت الديانة المسيحية، كان من أهدافها تقليل غلواء بني إسرائيل، وانحيازهم إلى الدنيا وتكالبهم عليها، وارجاعهم عن معاصيهم المشهورة وعيسى عليه السلام يعتبر نبياً من أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله إليهم لترقيق قلوبهم وتعليمهم ما يجب عليهم، ولتلطيف الحياة التي ملئوها بالفساد وبالشور، فمنهم من آمن به وهم الخواريون وأمثالهم، ومنهم من تأمروا عليه، ووشوا به إلى ملكهم، واتهم بمحاولة لقلب نظام الحكم، وذهبوا لمحاكمته، فقال الملك «إنني لا أرى أن هذا الرجل عليه إدانة تستحق أن يقتل من أجلها» ولكنهم تأمروا مؤامرة أخرى، وحكم عليه بالصلب، وبينما هو في طريقه إلى الصلب ألقى الله شبهه على شخص آخر، ممن وشوا به وهو رجل يهودي، فصلب اليهودي ونجا المسيح ورفع إلى السماء، كما ذكر القرآن الكريم فقد قال الله تعالى «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم».

لكن الذين عملوا في هذه الديانة بتوا عقيدتهم على النظرية الآتية:

أولاً: إن آدم ارتكب خطيئة عندما كان في الجنة وعصى ربه فأكل من

الشجرة، وإن هذه الخطيئة لم تغفر، وأن الغضب الالهي شمله هو وذريته مطلقاً، ثم أراد الله أن يرحم عباده فأرسل ابنه في «زعمهم»، وهو عيسى بن مريم وكلفه أن يُقتل، ليكون فادياً ومكفراً لذنوب بني الإنسان، الذين آمنوا برسالته، فمن آمن برسالة عيسى وبنظرية الصلب تغفر ذنوبه مهما كانت — هذا الأمر أصل من أصول الديانة المسيحية، واعتبروا الصليب شعاراً لدينهم — لكن المسلمون لا يرون هذا الرأي — والقرآن الكريم ينقض هذه النظرية بآيات صريحة كما سيأتي ومن العقائد المسيحية كذلك.

ثانياً: أن مجمع الكهان والقسس، من حقهم أن يضعوا من الشرائع ما يرونه صالحاً للناس، مستندين على آية عندهم تقول «ما حللتموه في الأرض فهو محلول في السماء وما عقدتموه في الأرض فهو معقود في السماء» ومعنى هذا فتح الباب للتشريعات الوضعية، وهي لم تنزل من عند الله.

ثالثاً: وهناك ظاهرة في الدين المسيحي مفادها أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وإن السلطة في الأرض تنقسم إلى قسمين سلطة الله وسلطة الحكام: فأهل الديانة لا يتعرضون لأهل السلطة ولا يناقشونهم، ولا يأمرنهم بالمعروف أو ينهونهم عن المنكر...

وسلطة رجال الدين تختص بالعبادات فقط لا غير.

هذا مجمل الاعتقادات المسيحية، وإن كانوا في مسيرة الحياة عملوا بغير ذلك.

وننتقل الآن إلى الكلام عن الإسلام:

الإسلام هو آخر الديانات الالهية المنزلة من السماء، ونبى الإسلام هو خاتم الأنبياء، وإذا تكلمنا على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نقول أنه عبد من عباد الله، فضله الله بالرسالة، وشرفه بها، وقد عرف عنه قبل الرسالة أنه كان أميناً وصادقاً ولم يكن يُعرف له تاريخ واضح في هذه الفترة، وكان لا يعرف القراءة والكتابة، ولا اطلع على أي شيء من علوم الأولين، مصداق قوله تعالى «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» حتى إذا جاءه الملك بالوحي وأبلغه

القرآن الذي كان ينزل عليه أقساطاً وتدرجياً خلال ٢٣ سنة، فبدأ النبي يبلغ هذا القرآن للناس، ويشرح لهم به هذا الدين — إن تاريخ نبينا موثق، وكل أعماله وحياته ودقائقه واضحة في سيرته المطهرة، التي حفظت في السطور وفي الصدور، حتى معاملته لزوجاته معروفة مسطورة وهناك آثار تدل على ذلك فحياته وجهاده، وعلمه وصبره، وقيامه وحروبه ومشاكله، كلها ثابتة لم تتغير عبر القرون أما كتاب الإسلام، فهو القرآن، أملاه النبي صلى الله عليه وسلم على عدد من كتابه عن جبريل عليه السلام — وتم ذلك في حياته فكتب ودون، وروجع وصحح، في حياة النبي صلى الله عليه وسلم — ثم جمع للمرة الأولى في كتاب واحد في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وجمع مرة ثانية في عهد عثمان رضي الله عنه، فهو أصح الكتب الموجودة على سطح الأرض، فالقرآن الذي تراه في أقصى الشرق من الدنيا هو الذي تراه في أقصى غربها — والقرآن الذي تراه في أقصى شمال الدنيا هو الذي تراه في جنوب الدنيا — لا يتغير منه حرف واحد.

أما ما ترجم من معاني القرآن فلا يسمى قرآناً وإنما القرآن عربي فقط لقوله تعالى «إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون». والقرآن يشتمل على آلاف الأحكام والنصائح — وهو أضخم موسوعة في الأدب والأخلاق والتوحيد فضلاً عن التاريخ والأحكام والشرائع — وقد أكرمنا الله به فلم يضع منه شيء، ولم يتغير منه شيء، وصدق الله إذ يقول: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» الحجر آية ٥.

ولقد آمن بهذا الدين أقوام من البدو الأميون الفقراء، فرشحهم لزعامة الدنيا، فحكموها كأعدل الناس، وساسوها على أحسن وجه، وأسعدوها بالحق والإيمان والرحمة والعدل.

كلام عن التوحيد إن دين الإسلام يقرر الألوهية لله عز وجل، فليس له ولد ولا صاحبة ولا شريك، «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»، وأن الله تعالى قائم بنفسه، قديم «لا تدركه

الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» الأنعام آية ١٠٣ وأنه ليس كمثله شيء، فلا يحّد ولا يصور «وكل ما خطر ببالك فهو هالك، والله بخلاف ذلك» وقد حرم الإسلام صناعة الصور والتماثيل بكل أشكالها، فالمسلمون هم أحسن الناس توحيداً، إذ علموا الدنيا كيف يكون فهمُ الألوهية وتصورها، وقد سلم الإسلام من خرافات أصحاب الأديان، ومن سيطرة الكهان، وطبقة رجال الدين وأمثالهم من القسس والرهبان، وليس فيه شيء من ذلك، فكل مسلم رجل دين، وكل مسلم واعظ، وكل مسلم قوام على أخيه، يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويشد أزره، ويدعوه إلى صراط الحق. قال تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» الكهف آية ٢٨. فالإسلام دين اجتماعي، يرحم الفقير والأرملة والمساكين، «يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى» وكل ما كان مما قرره السابقون في العلوم ومكارم الأخلاق، جاء الإسلام بأفضل منه، ولا حاجة لمسلم في شيء من مبادئ الآخرين، ولا من حكم الآخرين، فهو كتاب كامل شامل، وصدق الله إذ يقول «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» المائدة آية ٣. وقول الله تبارك وتعالى «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ومهيئنا عليه» أي ناسخاً لتلك الديانات، وملغياً لها، وهو وحده الذي يتعبد به، إذ لا يجتمع دينان ونبيان في وقت واحد أبداً — وإلا كان ذلك ضرراً على البشرية ومغرقاً لها، وهكذا كان في القديم فظهور نبي يلغي رسالة من كان قبله، وصدق الشاعر إذ يقول:

الله أكبر إن دين محمد ودليله أقوى وأقوم قِيلاً
لا تذكرُوا كتب السوالف عنده ظهر الصباح فأطفئ القنديلاً

ويتميز الإسلام عن غيره بأمر الخلافة وأمر الشورى فريسي المسلمين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار بشروط معينة منها الصلاح والتقوى، والزهد والورع، والعلم والسلامة، والذكورة والإسلام، لكن عليه أن يعمل بالشورى لقوله تعالى «وشاروهم في الأمر فإذا عزمته فتوكل على الله».

وهو دين يحترم القوة ويعتزبها، و يقرر الجهاد لحماية هذه الشريعة دائماً ، لاستمرار هذا الدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالجهاد مستمر بقرار من الله إلى يوم القيامة، لا يرده جور جائر ولا يوقفه عدل عادل من الحكام، لأنه فرض لاعلاء كلمة الله، وكسر جبوت المتجبرين...

كما اهتم الإسلام بالمرأة، وأعلى شأنها، وأعطاه حقوقها، وجعلها شقيقة الرجل في التكليف وفي المحاسبة وفي الحياة، لقوله تعالى «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» البقرة آية ٢٢٨. وهذه الدرجة حلت مشكلة العلاقة بين الرجل والمرأة، فالمرأة شريكة للرجل، ولكنها أدنى منه منزلة، إذ يستحيل أن تكون في البيت قوتان متعادلتان، فإن إحداها لا بد أن تعادي الأخرى قال تعالى «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» الأنبياء آية ٢٢ فالألوهية واحدة، ورئاسة البيت واحدة، ورئاسة العمل والادارة يجب أن تكون واحدة.

ولكن ذلك لا يمنع من الشورى واحترام الرأي الآخر، ووجود الرحمة والمودة بين الطرفين.

ورعى الاسلام حق الأبناء، فأمر بإحسان أسمائهم، والانفاق عليهم حتى يبلغوا أشدهم، وبتعليمهم الحلال والحرام، وأمرهم بالصلاة لسبع (رجالا ونساء) وضربهم عليها لعشر سنين، والتفريق بينهم في المضاجع، وأمرهم بالفضائل، وتعويدهم عليها وزجرهم عن الشهوات، وعقابهم عليها، حتى ينشأ المجتمع منذ البداية مجتمعاً مجاهداً فاضلاً، سليماً من الانحراف ومن الأمراض.

ولذلك كانت المجتمعات التي تمسكت بالإسلام على درجة عظيمة من النظافة والرقى والعدل، بخلاف تلك المجتمعات، التي انحدرت في أوربا وأمريكا وغيرها إلى درجات من الدناءة والمكيفات، هائمين على وجوههم في الطرقات.

وقد وضع الإسلام قوانين العدل والقضاء في المحاكم، ونهى عن الأنصاب والأزلام وحظر الضرب العشوائي، في قضية بيان الحق من الباطل والحلال من

الحرام، ثم احترام الشهادات وحذر من شهادة الزور، ووضع للناس أحسن ما يمكن أن يصل إليه البشر، فيما يتصل بفض المنازعات، والتغاضي عن الخصومات، وفرض الإسلام زكاة المال على القادرين، يؤدونها إلى المحرومين والجياع، ليتم التكافل بين أفراد المجتمع على خير وجه.

هذا وللإسلام مميزات أخرى لا يناها الحصر، كيف لا وهودين الله الذي سيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والحمد لله رب العالمين.

الحديث الشريف

تعريفه :

الحديث النبوي هو ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم بقصد تعليم الأمة حكماً شرعياً، ومثاله « اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن ». .

والحديث القدسي هو ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم بلسانه، مع اسناده له عن ربه عز وجل. أي أن لفظه من كلام الرسول، ومعناه من عند الله بالالهام، لقوله تعالى « وما ينطق عن الهوى » ومثاله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » فإيا المتكلم فيه منسوبة إلى مقام الله عز وجل .

وهناك اصطلاحات كثيرة لعلم الحديث، تدل على منتهى الدقة، فقلوه « حدثنا » ورمزها في الكتب « ثنا » يقال في الحديث الذي سمعه الراوي من الشيخ مباشرة، وقوله « أخبرنا » ورمزها « رن » يقال فيما كتب به إليه، يعني تلقى كتاباً فيه الحديث، ولكن لم يلق الشيخ ولم يسمعه منه، وقوله « أنبأنا » ورمزها « نا » يقال فيما كتب به إليه أيضاً. وقوله « لم أقف عليه » معناها لم أجد له إسناداً — والسبب في كل هذه الدقة هو الحرج الشديد عند المسلم العالم، بين أن يكذب الحديث، أو يرده أو يرفضه فيكون قد أهمل شيئاً من شريعة الإسلام، ومن رفض شيئاً من شريعة الإسلام فهو آثم، إن كان ساهياً أو شاكاً، وهو كافر إن كان عامداً .

الأمر الثاني : قبول شيء من الحديث لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو حرج جديد — والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « من كذب عليّ

متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» فنحن بين أن لا نستطيع أن نرفض الحديث لأن الأدلة — لا تقوم على الرفض، ولا نستطيع أن نقبل الحديث، لأن الأدلة لا تقوم على القبول، فنشأ هذا العلم الجميل «علم مصطلح الحديث». وهو علم التدقيق في السند والرجال، والمعاني والألفاظ والمطابقات، حتى نصل إلى الصحيح من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

أهمية الحديث النبوي:

لا تخفى مكانة السنة النبوية في التشريع الإسلامي، وأثرها في الفقه منذ عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة إلى يومنا هذا، مما جعل الفقه الإسلامي ثروة تشريعية لا مثيل لها لدى الأمم جميعاً في الماضي والحاضر.

ولا شك أن السنة المطهرة هي ثانية المصادر بعد القرآن الكريم، ولها مثل حجية القرآن تماماً. فهي من أهم العلوم الشرعية وأوسعها فروعاً وأرحبها صدىً، إذ كان كتاب الله متضمناً القواعد العامة في التشريع والأحكام الكلية في الغالب، مما جعله خالداً خلود الحق.

بيد أن السنة عنيت بشرح هذه القواعد، وتفريع الجزئيات على الكليات، فلا يمكن الاستغناء عنها في التفسير العملي، لقولك: «أشهد أن محمداً رسول الله» وقد حدد القرآن الكريم مكانة السنة وصاحبها بقوله تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا عنه واتقوا الله». وقول الله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) النساء آية ٦٤.

فمن طعن في السنة أوفي حديث النبي عليه السلام الذي صح باسناد صحيح فهو مارق خارج عن دين الإسلام، لأن الذي ينكر الحديث النبوي الصحيح ينكر القرآن الكريم، والذي لا يشهد بأن السنة من الله، لم يشهد بأن محمداً رسول الله، والذي يظن بأنه يكتفي بالقرآن عن السنة هو زنديق أو منحرف، لأن الصحابة وهم أقرب الناس عهداً برسول الله عليه السلام وأشدهم حباً له، وهم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، كانوا يلتزمون السنة ويحتكمون إليها في حياتهم اليومية، وقد دعانا الله تعالى إلى الأخذ عن الرسول وأكد عليه

لقوله تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم والله غفور رحيم».

إذن فمن واجب المسلم التعرف على السنة الصحيحة، وعندها يسهل الأخذ بما صح منها ورفض ما زُيف عليها.

محاربة السنة

منذ قام الإسلام بالدعوة إلى الهدى ودين الحق قام أعداؤه بمحاربته، ولم يستطع أشد الناس دهاءً وأكثرهم مكرًا وعداءً أن يقنع المسلمين بالانقطاع عن سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فلجأوا إلى أسلوب آخر وهو التشكيك في الحديث الشريف، وإثارة الغبار حول الرواة، والناقلين عنهم، والظعن في أمانتهم وصدقهم، والتوسع في تدمير هذا التراث الهائل، بفنون ظاهرها البحث العلمي وباطنها الفساد والتخريب.

وقد التقى أعداء الإسلام من اليهود والزنادقة والموالي وغيرهم في عصور الحضارة الإسلامية، مع أعداء اليوم من الصليبيين والمستشرقين والاستعماريين، ومن لف لفهم وتعلمذ عليهم من المفتونين بالحضارة الغربية، فهي سلسلة متتابعة من الجهود ولم تنقطع منذ أربعة عشر قرناً، وستظل قائمة ما دام للحق أعداء، والذين ينخدعون بهم من المسلمين ويسيرون في مهاجمة السنة، لا يوقعهم في الفخ الذي نصبهم هؤلاء إلا أمور أربعة.

أولها — أنهم يجهلون حقائق التراث الإسلامي، ولم يطلعوا عليه من ينابيعه الصافية، وقد ساعدت على ذلك للأسف مناهج التعليم التي أبعدت الناس عن هذه المصادر.

ثانياً — أو انخداعهم بما يسمونه الأسلوب العلمي الماكر، الذي يدعيه أولئك الخصوم.

ثالثاً — أو رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتححرر الفكري، كما قال الله تعالى «وتجعلون رزقكم انكم تكذبون».

رابعاً — أو وقوعهم تحت تأثير أهواء وانحرافات فكرية، لم يجدوا مجالاً للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين والكاتبين .

على أن التشيع وحده كان مدرسة فكرية قائمة بذاتها نشأت منذ قامت الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فقد أثمرت حركة التشيع ظهور طائفة من الغلاة والخوارج وأمثالهم، الذين حذر النبي منهم بقوله لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، «هلك فيك محبٌ غالٍ ومبغضٌ قال» .

وجعلوا يثيرون الغبار بطريقة غير مباشرة حول صحة الكثير من الأحاديث النبوية، ويتسللون تحت سقار المحبة لآل البيت إلى دس مجموعة من الأقوال نسبوها للرسول الكريم، أو لبعض أحفاده خدمة لأهداف سياسية لا مجال للخوض فيها، وهذا ما زاد من يقظة أهل السنة والجماعة، (وهم يمثلون أربعة أخماس المسلمين) في أن يتخذوا جميع الوسائل لصيانة السنة النبوية الشريفة، والمحافظة على أحاديث الرسول بصورة رائعة .

أما أسباب وضع الحديث فمنها :

أولاً — الخلافات السياسية التي انغمست فيها بعض الفرق، واضطرت أن تكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرافضة أكثر هذه الفرق كذباً، سئل مالك عن الرافضة فقال «لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون» .

ويقول شريح بن عبد الله القاضي — وقد كان معروفاً بالتشيع مع الاعتدال فيه، إحمل كل ما لقيت إلا حديث الرافضة، فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه ديناً .

ثانياً — من أسباب وضع الحديث وافترائه على النبي صلى الله عليه وسلم .

الزندقة ونعني بها كراهية الإسلام ديناً ودولة، فعندما اكتسحت دولة الإسلام عروشاً وإمارات وزعامات كانت قائمة، عملوا على تضليل الشعوب في عقائدها، وإذلالها في كرامتها وتسخيرها للأهواء والمغائن الخسيسة .

ثالثاً — العصبية للجنس والقبيلة، واللغة والدم، والامام والقومية، فوضع

الشعوبيون مثلاً حديثاً «إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالعربية، وإذا رضي أنزل الوحي بالفارسية» — فقابلهم جهلة العرب بالمثل فقالوا: «إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالفارسية، وإذا رضي أنزل الوحي بالعربية» وكما وضع المتعصبون لأبي حنيفة حديث: «سيكون رجل في أمتي يقال له أبو حنيفة النعمان هو سراج أمتي» ووضع متعصبون لمذهب آخر قولهم: «سيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن أدریس هو أضر على أمتي من إبليس» وكل هذا من الباطل الذي لا تجوز نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رابعاً — ومن أسباب وضع الحديث كذلك القصص والوعظ، فقد تولى مهمة الوعظ في بعض الأزمنة قصصاً لا يخافون الله، ويروون أحاديث يسرون بها الناس ولا يهمهم إلا أن ييكي الناس في مجالسهم أو يتواجدوا أو يفرحوا، فكانوا يضعون القصص المكذوبة وينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

خامساً — ومن أسباب الوضع الخلافات الفقهية والكلامية، فعندما نشب الجدل بين أتباع المذاهب، كان كل يذهب إلى تأييد مذهبه بأحاديث مكذوبة.

سادساً — الجهل بالدين مع الرغبة في الخير، وهذا ما فعله كثير من الزهاد والعباد والصالحين، فقد كانوا يحتسبون وضعهم للأحاديث في الترغيب والترهيب، ظناً منهم أنهم يتقربون بذلك إلى الله عز وجل، ويخدمون الإسلام. ولما أنكر العلماء عليهم ذلك وذكروهم يقول النبي عليه السلام «من كذب عليّ متعمداً تليتبأ مقعده من النار». قال بعضهم «نحن نكذب لرسول الله ولا نكذب عليه»، وواضح أنه تهرب خفيف، دفع إليه الجهل بالدين، وغلبه الهوى والغفلة، فإن الدين قد أتمه الله ولا يحتاج لمزيد.

سابعاً — التقرب للملوك والأمراء بما يوافق أهواءهم وهوهم وعبتهم، وقد وضعت كثير من الأحاديث لإرضاء الأمراء.

ونتيجة لما ذكرنا من بواعث، نذكر أنواع الموضوعات.

وقد تم كل ذلك بأساليب كثيرة منها:

إسناد الحديث والبحث فيه، ومنها التوثق من الأحاديث ومنها نقد الرواة وبيان حالهم من صدق أو كذب ومنها النظر في المتن والسند في وقت واحد.

أما علامات الوضع فهي أن تعرف إن كان هذا الحديث صحيحاً أو موضوعاً وفي هذا المجال نود أن ننبه للأُمور الآتية:

أولاً - ركازة اللفظ: بحيث يدرك العليم بأسرار اللغة العربية أن هذا اللفظ ركيك، لا يصلح أن يصدر عن أفصح الفصحاء، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانياً - فساد المعنى بأن يكون الحديث مخالفاً لبديهات العقول، من غير أن يمكن تأويله مثل «إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصليت عند المقام ركعتين».

أو أن يكون مخالفاً للقواعد العامة في الحكم والأخلاق كقولهم: «جور الترك ولا عدل العرب» وهذا باطل.

أو يكون داعياً إلى الشهوة المفسدة كقولهم «النظر إلى الوجه الحسن يجلي البصر» - أو يكون مخالفاً للحس والمشاهدة، مثل قولهم: «لا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة».

وكثير من هذه الخرافات لا يقبلها عقل العاقل المسلم.

كذلك مخالفة صريح القرآن، بحيث يأتي الحديث لا يقبل التأويل، ولا يتفق مع القرآن الكريم، كقولهم نسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذباً «ولد الزنا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء» فهو مخالف لقوله تعالى «ولا تزر وازرة وزر أخرى» النجم آية ٣٨. بل هو مأخوذ من التوراة، ففيها ما يشبه ذلك، مثل: «من ولد له ولد فسماه محمداً كان هو ومولوده في الجنة». ومثل «من قضى صلوات الفرائض في آخر جمعة من رمضان كان ذلك جابراً لكل

صلاة فاتته في عمره إلى سبعين سنة» فإن هذا مخالف لما أجمع عليه الفقهاء، من أن الفائتة لا يقوم مقامها شيء من العبادات...

ومن ذلك مخالفة الحديث لحقائق التاريخ المعروفة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، كقولهم: «إن النبي صلى الله عليه وسلم وضع الجزية على أهل خيبر ورفع عنهم الكلة والسخرة بشهادة سعد بن معاذ ومعاوية بن أبي سفيان» هذا الحديث جاءت وقائع التاريخ تكذبه، لأن الجزية لم تكن معروفة ولا مشروعة في عام خيبر، إنما نزلت آيات الجزية بعد عام تبوك، وأن سعد بن معاذ توفي قبل ذلك في غزوة الخندق/ وأن معاوية أسلم زمن الفتح/ فحقائق التاريخ ترد هذا الحديث وتحكم عليه بالوضع.

إذن علماء الحديث يبحثون عدة اعتبارات.

ومن دلائل الوضع في الحديث «أي الكذب» موافقة الحديث لمذهب الراوي إذا كان الراوي متعصباً مغالياً في تعصبه، كأن يروي رافضي حديثاً في فضائل أهل البيت، أو مرجيء يروي حديثاً في الإرجاء، كالذي رواه حبه بن جوين — قال سمعت علياً رضي الله عنه قال «عبدتُ الله مع رسوله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين أو سبع سنين» — قال ابن حبان «كان حبه» مغالياً في التشيع، واهياً في الحديث.

ومن علائم الوضع في الحديث أن يتضمن أمراً من شأنه أن تتوافر الدواعي على نقله (لأنه وقع بمشهد عظيم) ثم لا يشتهر، ولا يرويه إلاً واحداً، مثل حديث «غدير خم» فقد حكم عليه بالوضع والكذب.

قال العلماء إن من امارات الوضع في هذا الحديث أن يصرح بوقوعه على مشهد من الصحابة جميعاً، ثم يحدث بعد ذلك أن يتفقوا جميعاً على كتمانهم — وهذا بعيد ومستحيل في العادة والواقع — فانفراد الرافضة بنقل هذا الحديث دون جماهير المسلمين مع أهميته، دليل على كذبهم فيه، فإن هذا النص لم يبلغه أحد باسناد صحيح، فضلاً عن أن يكون متواتراً، ولا نقله أحد على تنازع الناس في الخلافة، وتشاورهم فيها يوم السقيفة، فلو كان هناك نص في تولية علي لما

اختلف الناس يوم السقيفة على شيء، وهذا دليل على أن الحديث موضوع.

ومن دلائل الوضع إشتغال الحديث على افراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير، والمبالغة بالوعيد الشديد على الأمر الحقيق، وقد أكثر القصاص من مثل هذا النوع ترفيقاً للقلوب، مثل قولهم: «من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أعطي ثواب سبعين نبياً» — ومثل «من قال لا إله إلا الله خلق الله له طائراً له سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون له».

كل هذه المبالغات لا يعقلها أحد، لقوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره).

هذه هي هم القواعد التي وضعها العلماء لنقد الحديث، ومعرفة صحيحه من موضوعه، وهو موجه إلى السند أو موجه إلى المتن، (الذي هو التعبير أول لغة الحديث نفسها) كما سيأتي.

وقد استقام أمر الإسلام بهذه البحوث الجيدة، ووضح الحديث صحيحه من ضعيفه، بعد أن بدأ تدوين السنة — وإن السنة لم تدون رسمياً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — وإنما اكتفى الصحابة بتدوين القرآن — لكنها كانت محفوظة في الصدور ودونها صحابة الرسول عليه السلام ومن بعدهم من التابعين، مشافهة وتلقيناً، وإن كان عصر النبي لم يخل من تدوين أيضاً في أحاديث قليلة — فقد انقضى عصر الصحابة ولم تدون فيه السنة إلا قليلاً إنما كانت تتناقلها الألسن. ولقد فكر عمر رضي الله عنه بتدوين السنة ولكنه عدل عن ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً — ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً.

ومن ثمار هذه الحركة المباركة أن دونت القواعد التي وضعها العلماء أثناء حركتهم لمقاومة حركة الوضع والكذب، والتي قَسَموا فيها الحديث إلى ما ذكرناه، وبذلك نشأ «علم مصطلح الحديث» وهو الذي يضع القواعد العلمية

لتصحيح الأخبار الحديثية وهي من أصح ما عرف في التاريخ من قواعد علمية بالرواية والأخبار، وهذا العلم يبين الشروط المطلوبة في الراوي والمروي، وما يدخل في الأخبار من علل واضطراب وشذوذ، وما تقبل به الأخبار وما يتوقف فيه منها، إلى أن تعضد بمقومات أخرى، وبيان كيفية سماع الحديث وتحمله وضبطه، وآداب المحدث وطالب الحديث وغير ذلك، مما كان في الأصل بحثاً متفرقة.

علم الجرح والتعديل هو علم يبحث عن أحوال الرواة وأمانتهم، وثقتهم وعدالتهم وضبطتهم، وهو من أجل العلوم التي نشأت ولا نعرف مثيلاً له في تاريخ الأمم الأخرى.

وسبب ذلك حرص العلماء على الوقوف على أحوال الرواة، حتى يميزوا بين الصحيح وغيره.

وقد ابتدأ الكلام عن الرواة توثيقاً وتضعيفاً منذ عهد صغار الصحابة كابن عباس المتوفي سنة ٦٨ هجرية، وعبادة بن الصامت، وأنس بن مالك المتوفي سنة ٩٣ هجرية ثم من التابعين سعيد بن المسيب والشعبي وابن سيرين. ثم تتألى أمر النظر في الرجال — وكان منهم شعبة، وكان متشدداً لا يروي إلا عن ثقة، والامام مالك المتوفي سنة ١٧٩ هجرية...

ومن أشهر علماء الجرح والتعديل في هذا القرن الثاني مَعْمَرُ، وهشام الدستواني والأوزاعي، والثوري، وحامد بن سلمة، والليث بن سعد. نشأت بعد هؤلاء طبقة أخرى كابن المبارك والفزاري، وعينية ووكيع بن الجراح، ومن أشهر علماء هذه الطبقة يحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وكانا حجتين موثوقين لدى الجمهور. ثم تلتهم طبقة أخرى من أئمة هذا الشأن، منهم يزيد بن هارون وأبو داود الطيالسي وعبد الرزاق بن همام، وأبو عاصم النبيل، وابتدأ تصنيف الكتب في الجرح والتعديل.

ومن أوائل الذين ألفوا وتكلموا من هذه الطبقة، يحيى بن معين المتوفي سنة ٢٣٣ هجرية وأحمد بن حنبل المتوفي سنة ٢٤١ هجرية، وعبد بن سعد كاتب

الوافدي، وصاحب الطبقات، وعلي بن المديني. ثم تلاهم بعد ذلك البخاري ومسلم وأبو زرعة وحاتم الرازي، وأبو داود الجستاني، وتتابع العلماء بعد ذلك حتى أواخر القرن التاسع الهجري طبقة بعد طبقة — تؤلف وتبحث في الرجال وتتحرى في أمر الرواة، حتى لا يعسر عليك أن تجد في مؤلفاتهم أي رجل يربك اسمه في كتب الحديث، وبذلك ضبط حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

درجات الحديث:

الحديث على درجات أولها وأعلىها: «الصحيح» وهو ما اتصل سنده براوية العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه، وسلم من الشذوذ والعلة، ويسمى الصحيح لذاته، والعدل هو الرجل المسلم الصالح الذي لا تعرف عنه معصية، «الضابط» هو الرجل المحافظ المسلم الذي لا يخطيء في رواية الحديث إلا نادراً..

«الشذوذ» هو مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه/ أول من هم أكثر منه عدداً...

العلة:

هي كل سبب يقدر في ثبوت الحديث.

وهناك نوع من الصحيح يسمى الصحيح لغيره، وهو الذي جاء بإسناد حسن وآخر ضعيف لم يشتد ضعفه، فيرتقي الحديث لمجموعهما إلى درجة الصحيح لغيره، بسبب مساندة بالإسناد الضعيف للإسناد الحسن.

على أنه لم يستوعب الصحيح كله كتاب واحد مطلقاً — إنما جمعت الكتب السنة وفيها جملة كبيرة من الصحيح، ومنها صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، والنسائي، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجه، وفاتها غير قليل منه — ويوجد مبثوثاً في كتب المسانيد والفوائد والأجزاء الحديثية وكتب الحديث الأخرى.

أما الحسن: فتعريفه تعريف الصحيح لذاته، إلا أن أحد رواته خف حفظه عن حفظ العدل الضابط وهذا يسمى الحسن لذاته.

وهناك نوع يسمى الحسن لغيره، وهو الذي يأتي من طرق متعددة، في مفرداتها ضعف يسير، فيرتقي الحديث بها إلى درجة الحسن لغيره، بل وإلى درجة الصحيح لغيره أحياناً إذا كثرت أسانيده، وهو حجة عند أهل العلم، كالصحيح تماماً، إلا أنه إذا تعارض مع الصحيح يُرجح عليه الصحيح.

والضعيف هو الذي لم تتوفر فيه شروط الصحيح ولا الحسن، وأنواعه ثلاثة:

ضعيف — وضعيف جداً — وموضوع. ومن دقة المشايخ في ضبط الحديث أن قَسَمُوا الثلاثة إلى ألقاب أخرى تشمل الحسن والصحيح منها الحديث المعروف، والجيد، والقوي، والمحفوظ، والمتواتر وهناك ألقاب تمثل الصحيح والحسن والضعيف، منها المسند، والمتصل، والمرفوع، والمعنعن، والمؤنن، والمدرج، والمشهور، والغريب، والمسلسل، والعالي، والنازل، والمرسل، وليس هنا مجال تفصيلها.

والمراسيل مهمة.

فالحديث المرسل هو ما رفعه التابعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، عن غير طريق الصحابي، من قول أو فعل أو تقرير، وهو لا يكون حجة عند المحدثين، إلا إذا عضده غيره، لأن الصحابي غير مذكور فيه.

أما ألقاب الضعيف فمنها الموضوع، المقلوب، والشاذ، والمنكر، والمعلل، والمضطرب، والموقوف، والمقطوع، والمعضل، والمتروك، والمنقطع، والمدلس، وأنواع أخرى...

وكل واحد من هذه له تعريف معين يحدد حانة معينة من درجات الضعيف.

بن الفقه والحديث: معلوم أن القرآن الكريم هو أصل العلم، وأن الفقيه عليه أن يأخذ من القرآن ومن الحديث الشريف، ومن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وقضاياه، ومن عمل الصحابة وخصوصاً عمل أهل المدينة، وأن يلم بأساليب اللغة العربية ومعرفة التاريخ والنسخ، والمتقدم والمتأخر، هذه كلها آلات الفقيه، التي يمكن أن يستخرج للناس بها حكماً شرعياً.

ويقول علماء الحديث: إذا صح الحديث الشريف وجب الأخذ به لقوله تعالى «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول» (النساء آية ٥٩) وأن للحديث حجية القرآن في وجوب العمل به — فهذا كلام حق، ولكن له تفصيلاً يجب الانتباه إليه، فلا يستطيع كل عامي وكل طالب علم أن يميز بين الناسخ والمنسوخ، ولا بين ما فيه شبهة تعارض ولا بين الحديث والقرآن، وكذلك فإن القاعدة السابقة ينبغي أن تؤخذ بتحفظ شديد فهو حجة فعلاً ولكن عند أهل العلم، ومن أجل ذلك قام فقهاء المسلمين منذ العصر الأول يجتهدون في تحرير الأحكام من دراسة الحديث الواحد، مقارناً بأشباهه ونظائره في الحكم ومقارناً، بأحكام القرآن الكريم، ومفسراً على ضوء أقضية النبي صلى الله عليه وسلم وفعله، وأقضية الصحابة والتابعين، واعتبارات شتى وذلك هو علم الفقه.

وليس من العدل إذن ولا من العقل أن نتجاهل هذا التراث العظيم، ثم نتسرع في استنباط الحكم الشرعي لمجرد التقاط أي حديث نراه صحيحاً، أو نظنه حجة وحده، وهذا هو سبب الخلاف بين الشباب، خصوصاً شباب الجامعات وغيرهم، فقد يقع أحدهم على حديث تثبت صحته عنده فينطلق يبنى عليه أحكاماً شرعية ويجادل الناس بها، مع أن الفقه على غير ذلك، لأن الفقيه أعمق في الدراسة وأعرف بالمدلولات.

وبهذه المهمة العالية والمناهج الدقيقة حفظ الله سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونحن ورثنا تلك الثروة الهائلة التي لا يقل ما دون منها في اللغة العربية وحدها عن خمسمائة مجلد، وصار علم الحديث علماً قائماً بذاته، له في كل عصر قوم متخصصون، فسقطت بذلك حجة القائلين بأن الحديث النبوي قد اختلط.

وسبب هذا الزعم إنما هو الانعزال عن دراسة السنة، أو الكسل عن تناول مراجعها، وصدق الله إذ يقول «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً ليكتبون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» البقرة ١٤٦ — ١٤٧.

على ضوء هذا العلم يمكننا أن نستفيد من الحديث الشريف، وأن ننشره بين

الناس ، وأن نحفظ على الناس السنة ، فمن لم يقبل سنة النبي فليس بمسلم ، لأن النبي يقول «عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ» .

ومن عجيب أمر الناس ، أن يخرجوا كتباً يسمونها مقدسة ، وترجم إلى شتى اللغات وتنتشر بين القارات فإن سألت أصحابها عنها هل هذا كلام الله ؟ قالوا : لا . اذن فهل هذا كلام نبيكم ؟ قالوا لا . والحق أنها مذكرات كتبها تلاميذ الأنبياء في عصور مختلفة بعد موت النبي بمائة عام أو مائتي عام . ولكننا إذا نظرنا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نلاحظ أنه كلام النبي مباشرة ، بلفظه ، وبشهادة آلاف الخلق على أن النبي قاله بنفسه ، والنبي معتمد من عند الله مستند إلى تأييد الله ، وهو الرسول المبلغ عن الله عز وجل . فحديث رسول الله أمر جليل ، يفوق في حجيته وفي صحته وفي منزلته الدينية أي كتاب يسمى مقدساً على وجه الأرض .

ولقد اهتم المسلمون لهذا السبب بصحة الاسناد ، وتدقيق السماع أو الرواية أو المقابلة لكل حديث ، ولكل كتاب يشتمل على علم الحديث ، وها نحن نعرض نموذجاً واحداً لرواية حديث واحد من كتاب «المسند» للإمام أحمد بن حنبل — قال مؤلف الكتاب :

«فلما منَّ الله تعالى وفتح علينا بالسبيل الأحمد ، ويَسر اسماع هذا المسند الشريف مسند الامام أحمد ، أقول أخبرني بجميع هذا المسند المبارك ، وهو كتاب لم يرو على وجه الأرض كتاب في الحديث أعلا منه ، أخبرني جماعة من الشيوخ سماعاً وإجازة ، ولكن اعتمادي كان على السمع المتصل ، فأخبرني به كذلك مع الزيادات فيه لعبدالله بن أحمد ، وأبي بكر القطيعي ، الشيخ العالم الأصيل رحلة البلاد ، وجامع لواء الاسناد ، أبو عمر محمد بن قدامة بن نصر المقدسي الحنبلي رحمه الله ، قراءة مني وسماعاً في مجالس متعددة :

أولاً : في شهور سنة سبعين وسبعمائة ، وآخرها سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، بالصالحية ظاهر دمشق المحروسة ، وإجازة لما خالف أصل السماع إن خالف

فيه . قلت أخبرك بجميع مسند الامام أحمد من رواية ابنه عبدالله ، وبما فيه من زيادات ابنه عبدالله ، عن غير أبيه وهو في مسند الأنصار رضي الله عنهم الشيخ الامام العالم الثقة فخر الدين بن منصور السعدي المقدسي ، فأقره بذلك . قال أخبرنا به الشيخ الصالح الثقة أبو علي حنبل بن عبدالله ، بن الفرغ بن سعادة الواسطي ثم البغدادي قراءة عليه وأنا أسمع ، قال أخبرنا الشيخ الصابر العالم الصالح المَعْمَرُ رئيس الكتاب الشيباني سماعاً ، قال أخبرني الشيخ المحدث العالم أبو علي الحسن بن علي بن محمد علي بن أحمد ، قال أخبرني الشيخ المعروف بابن المذهب ، قال أخبرنا الشيخ المحدث العالم المفيد الثقة أبو بكر أحمد بن جعفر ، بن حمدان بن مالك بن شبيب ، بن عبدالله البغدادي القطيعي ، قال أخبرنا أبو عبدالله عبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن حنبل ، بن هلال بن أسد الشيباني البغدادي ، قال حدثني شيخ الإسلام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل فذكر الحديث .

هذه الرواية المتصلة مثال واحد لما يتكرر في كل كتب الحديث ، فانظر إلى تدقيق الراوي في حديث واحد من الأحاديث .

أحياناً يستغرق الحديث الواحد في بحثه عشرة صفحات ، يقال فلان لم يقابل فلاناً فلاّك يوهيه العلماء ، أو فلاّك ضعيف الرواية ، أو فلاّك صدوق ثقة ، وفلان لم يُعرف وهو منكر الاسناد ، إلى غير ذلك . فكل حديث أخذ من البحث والتدقيق والاستقصاء ما لا مزيد عليه من طاقات البشر ، فجزى الله هؤلاء عنا وعن الإسلام خير الجزاء .

وقد يكون من المناسب أن ننقل للسامع الكريم تراجم لبعض علماء الحديث ، الذين خدموا هذه الأمة وعاشوا على أقل القليل من الكفاف ، لكي يقدموا لنا هذا التراث الغالي العجيب .

أما البخاري :

فهو أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ، بن المغيرة الجعفي البخاري — ولد ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ أربع وتسعين بعد

المائة، وتوفي ليلة الفطر سنة ٢٥٦ سنة ستة وخمسون بعد المائتين هجرية، وعمره اثنتان وستون سنة، ولم يعقب ولداً ذكراً.

رحل في طلب العلم إلى جميع محدثي الأمصار، وكتب بخراسان والجلال والعراق والحجاز ومصر وأخذ الحديث عن جماعة من الحفاظ، منهم مكّي بن ابراهيم البلخي، وعبدان بن عثمان المروزي، وعبدالله بن موسى العبسي، وأبو عاصم الشيباني، ومحمد بن عبدالله الانصاري، ومحمد بن يوسف الفرياني وأبو نعيم الفضيل بن ركن علي بن المديني، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، واسماعيل بي أبي أويس المدني، وغير هؤلاء من الأئمة، وأخذ الحديث عنه خلق كثير.

وسمع كتاب البخاري تسعون ألف رجل، فما بقي أحد إلا روى عنه، قال البخاري خَرَّجْتُ كتاب الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث، وما وضعت فيه حديثاً إلا وصليت ركعتين، وله وقائع وامتحانات ومجريات مبسطة في المطولات من تراجمه.

وأما الامام مسلم:

فهو أبو الحسن مسلم بن الحجاج مسلم القشيري النيسابوري، أحد الأئمة الحفاظ. ولد سنة ٢٠٤ أربع بعد المائتين، وتوفي عشية يوم الأحد لست أو لخمس أولاً ربع بقين من رجب، سنة ٢٦١ إحدى وستون ومائتين. وهو ابن خمس وخمسين سنة، رحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر وأخذ الحديث عن يحيى بن يحيى النيسابوري، وقتيبة بن سعيد، واسحاق بن راهوية، وأحمد بن حنبل، وعبدالله بن القواريري، وشريح بن يونس، وعبدالله بن مسلمة القضيبى وحرمة بن يحيى، وخلف بن هشام، وغير هؤلاء من أئمة الحديث.

وروى عنه الحديث خلق كثير منهم ابراهيم بن محمد بن سفيان، وأبو زرعة، وأبو حاتم، قال الحسن محمد الماسرجي — سمعت أبي يقول سمعت مسلماً يقول صنعت المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة — قال محمد بن يعقوب الأخرم قَلَّما يفوت البخاري ومسلما مما ثبت في الحديث

حديث ، قال الخطيب أبو بكر البغدادي إنما قفى مسلم طريق البخاري ، ونظر في علمه وحذا حذوه ، وقوله في الحديث « متفق عليه » ، أي بين البخاري ومسلم في صحيحهما .

وأما أحمد بن حنبل :

فهو الامام الكبير المجمع على امامته ، أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني ، رحل إلى الحجاز ثم إلى الشام والحجاز واليمن وغيرها ، وسمع من سفيان بن عيينة ، وروى عنه جماعة من شيوخه ، وخلائق لم يحصون منهم البخاري ومسلم ، وكانت كتب أحمد اثني عشر حملا ، (يعني حل بعير) . وكان يحفظ أكثرها على ظهر قلب ، وكان يحفظ آلاف الحديث ، ولد في شهر ربيع الأول سنة ١٦٤ أربع وستين ومائة وتوفي سنة إحدى وأربعين ومائتين على الأصح ، وله كرامات جليلة ، وامتنح المحنة المشهورة في خلق القرآن وقد طول المؤرخون في ترجمته ، وذكروا فيها عجائب وغرائب ، وقد ترجمه الذهبي في خمسين ورقة ، وأفرزت لترجمته مصنفات مستقلة ، وله رحمه الله المسند الكبير ، انتقاه من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث — ولم يدخل فيه إلا ما يحتاج به ، وبالغ بعضهم فأطلق على ما فيه جميعاً أنه صحيح ... وقد تتبعه ابن الجوزي .

فأدخل كثيراً منه في موضوعاته ، وتعبه بعضهم في بعض الأحاديث ، وقد حقق الحفاظ عن جميع أحاديثه ، أنه أحسن انتقاء وتحريراً من الكتب التي لم يلتزم مصنفوها الصحة في جميعها كالموطأ والسنن الأربع ، وليست الأحاديث الزائدة فيه على الصحيحين بأكثر ضعفاً من الأحاديث الزائدة في سنن أبي داود والترمذي .

قال ابن حجر الهيتمي إن مسند أحمد أصح من غيره ، وإن كان فيه بعض الضعفاء ، ولا يوازي مسند أحمد كتائب في كثرته وحسن سياقاته ، وكل ما كان في مسند أحمد فهو مقبول فإن الضعيف الذي فيه يقرب من درجة الحسن .

أما الترمذي:

فهو أبو عيسى محمد بن عيسى بن ثور بن موسى بن الصحاك السلمي، ولد في ذي الحجة سنة ٢٠٠ مائتين، وتوفي بترمذ من أعمال ايران، ليلة الاثنين الثالث عشر من محرم سنة ٢٧٩ تسع وسبعون ومائتين، وهو أحد الاعلام، أخذ الحديث عن جماعة منهم قتيبة بن سعيد، واسحاق بن موسى، ومحمود بن غيلان، وسعيد بن عبد الرحمن، ومحمد بن بشار وعلي بن حجر، وأحمد بن منيع، ومحمد بن المثنى، وسفيان بن وكيع، ومحمد بن اسماعيل البخاري، وغيرهم.

وأخذ عنه خلق كثير منهم محمد بن أحمد بن محبوب، وله تصانيف في علم الحديث، وكتابه الجامع أحسن الكتب وأكثرها فائدة، وأحكمها ترتيباً، وأقلها تكراراً، وفيه ما ليس في غيره، من ذكر المذاهب ووجوه الاستدلال والاشارة إلى ما في الباب من الأحاديث، وبيان نوعه من الصحة والحسن والغربة والضعف، وفيه جرح وتعديل، وفي آخره كتاب العلل، وقد جمع فيه فوائد حسنة.

قال الترمذي صنف كتابي هذا، فعرضته على علماء الحجاز، فرضوا به، وعرضته على علماء العراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي يتكلم.

أما النسائي:

فهو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان النسائي، أحد الأئمة والمهرة الكتاب، ولد سنة ٢١٤ أربع عشر ومائتين، مات بمكة سنة ٣٠٣ ثلاث وثلاثمائة، وهو مدفون بها روى الحديث عن قتيبة بن سعيد، واسحاق بن ابراهيم، وحيمه بن مسعدة، وعلي بن خشرم ومحمد بن عبد الأعلى، والحارث بن دكين، وحماد بن السري، ومحمد بن بشار، ومحمود بن غيلان وأبي داود سليمان بن الأشعب وغير هؤلاء.

وأخذ عند الحديث خلق كثير، منهم أبو بشر الدولابي، وأبو القاسم الطبري، وأبو جعفر الطحاوي ومحمد بن هارون بن شعيب، وأبو الميمون بن راشد، وابراهيم بن محمد بن صالح، وأبو بكر أحمد بن اسحاق السني، وله

مصنفات كثيرة في الحديث ، وعلل الحديث ، منها السنن وهو أقل السنن الأربع
بعد الصحيحين ضعفاً .

قال الذهبي والتاج السبكي « أن النسائي أحفظ من مسلم صاحب
الصحيح » .

أما أبو داود :

فهو سليمان بن الأشعث ، بن اسحاق بن بشير ، بن شداد بن عمر بن عمران
الأزدي ، الشهرستاني ، وطوّف البلاد وجمع وصنف ، وكتب عن العراقيين
والخراسانيين والشاميين والمصريين ، والجزريين ، ولد سنة ثنين ومائتين ، وتوفي
بالبصرة لأربع عشرة ليلة بقين من شوال ، وأخذ الحديث عن مسلم بن ابراهيم ،
وسليمان بن حرب ، وعثمان بن أبي شيبة ، وأبوالوليد الطيالسي ، وعبدالله بن
مسلمة ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة بن سعيد ، وأحمد بن يونس ،
وغيرهم ممن لا يحصى كثرة .

وأخذ عنه الحديث ابنه عبدالله ، وأبو عبد الرحمن النسائي ، وأحمد بن محمد
الخلال ، وأبو علي بن محمد اللؤلؤي ، قال أبو بكر بن باشا ، قال أبو داود كتبت
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث ، انتخبت فيها ما
ضمنته كتابي ، يعني كتاب السنن جمعت فيه أربعة آلاف حديث وثمانمائة ،
ذكرت الصحيح وما يشبهه وما يقاربه .

قال الخطابي « ان كتاب السنن لأبي داود شريف لم يصنف في علم
الدين كتاب مثله ، وقد رزق القبول من كافة الناس على اختلاف مذاهبهم ،
وصار حكماً بين العلماء وطبقات المحدثين والفقهاء ولكل واحد فيه ورد ومنه
مشرب ، وعليه معول أهل العراق ومصر وبلاد المغرب ، وكثير من مدن أقطار أهل
الأرض .

قال أبو داود ما ذكرت في كتابي حديثاً أجمع الناس على تركه — قال
الخطابي أيضاً « هو أحسن وضعاً وأكثر فقهاً من الصحيحين » .

وأما ابن ماجه :

فهو أبو عبدالله محمد بن يزيد بن عبدالله بن ماجه القزويني ، مولى ربيعة بن عبدالله ولد سنة ٢٠٩ هجرية وهو أحد الاعلام المشاهير ، ألف سننه المشهورة ، وهي إحدى السنن الأربع ، وأحدى الأمهات الست ، وأول من عدّها من الأمهات ابن طاهر في الأطراف ، ثم الحافظ عبد الغني قال ابن كثير إنه كتاب مفيد قوي التبويب في الفقه ، رحل ابن ماجه وطوف الأقطار ، وسمع منه الأصحاب ، مالك والليث وروى عنه جماعة منهم أبو حسن القطان .

وإذا سمعت في نهاية الحديث كلمة «أخرجاه» يعني «رواه البخاري ومسلم» وإذا سمعت كلمة «رواه الجماعة» يعني السبعة أصحاب السنن ، وإذا سمعت كلمة «متفق عليه» يعني «رواه البخاري ومسلم» مثل أخرجاه مع الامام أحمد .

وفيما عدا ذلك يذكر اسم الراوي منفرداً ، كقوله «رواه الترمذي» أو «رواه ابن ماجه» وما كان في صحيح البخاري أو في صحيح مسلم أو في أحدهما جاز الاحتجاج به دون بحث ، لأنهما التزما الصحة فيما رواه ، وتلفت ما فيهما الأمة بالقبول ولكن في الحقيقة نلاحظ أنهما كانا متشددين في قبول الأحاديث . فإن قسماً كبيراً مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد في الصحيحين ، ولذلك يحتاج المرء للرجوع إلى كتب الأئمة الآخرين ، الذين دونوا الحديث جزاهم الله خير الجزاء .

وفي أهمية الحديث الصحيح ووجوب الالتزام به نقول : إن كثيراً من العلوم والمؤلفات وخطب الخطباء وعظ الواعظين ، والعادات التي تعودها الناس ، في العبادات وفي المعاملات ، وفي الحياة الاجتماعية ، قد تسند إلى أحاديث لا تصح .

فقد يأتي الحديث غير صحيح ويشتهر على ألسنة الناس ، ثم يعمل به على أنه من كلام النبي أو من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا سند له ولا صحة له — ولذلك فقد انبرى عدد من صلحاء الأمة المتخصصين في تخريج

الأحاديث ، وألفوا كتباً في تبين الطيب من الخبيث ، فيما دار على ألسنة الناس من الحديث ، وكتبت مصنفات كثيرة في هذا . ونحن نوصي بالاطلاع عليها لتكوين الذوق الحديثي عند المسلم ، فإن الحق لا يعرف إلا من خلال رؤية الباطل ، وبضدها نتميز الأشياء .

فإذا أنت عرفت منطق الحديث الموضوع ، وأسباب الوضع كما ذكرنا آنفاً ، فانك تستطيع أن تكون من نفسك ملكة في ادراك الصحيح ، أو في الحكم على صحة الحديث من وضعه ، وهذا شيء مفيد جداً وكما قالوا : « من حفظ الحديث قويت حجته » .

ومن الأدب في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل من الأمانة العلمية إن أردت أن تورّد حديثاً أن تذكر الراوي الأول ، كذلك تذكر اسم من خرّج الحديث ، أو دونه في كتابه ، كأن تقول مثلاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أو عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كذا وكذا وكذا ، رواه مسلم ، أو رواه الترمذي .

والسبب في ذلك أنك تنقل المسؤولية عنك إلى من روى الحديث ، هذه واحدة ...

والفائدة الثانية أنك تدل السامع إن أراد أن يتحرى وأن يدقق ، كيف يكشف على الصحة في مظانها ، كأن يراجع الحديث في الكتاب الذي أشرت إليه ... ولكل واحد من هؤلاء الصحابة مسند معروف ، مثل مسند أبي بكر ومسند عمر بن الخطاب وغيرهم . فإما أن يذهب إلى المسند المعين لبحث عن الحديث فيه ، وإما أن يراجع في أحد كتب السنن لينظر الحديث في باب كباب الزكاة أو باب الصلاة أو باب الطهارة ، وقد يكون الراوي أو المتحدث أو الخطيب قد سمعه من سامع عن سامع ، وهؤلاء كلهم لم يحققوا السند ، فتحقيق السند من معالم الحق الذي يلزمك عندما تنسب شيئاً إلى مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن حجية الحديث كقوة القرآن الكريم تماماً ، ويجب أن يحافظ المسلم على ذلك .

ويجب نعلم أولادنا بعض الأحاديث ، ونحفظهم أياها ، وكما يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « كُنَّا نُرَوِّي أَبْنَاءَنَا مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا نَحْفَظُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ » . والمغازي هي الغزوات والجهاد ، كالسيرة النبوية المطهرة ، لأن فيها صدق الإيمان وفيها آداب حِكْم ، فهي تربي الرجولة ، وتورث النضج العلمي ، والالتزان والجدية في الحياة ، بدلا من هذا اللهو الذي انتشر في الناس ولم نجد له علاجاً .

الإيمان والوحدانية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :
نحن نؤمن بأن لهذا الكون موجداً أوجده وصنعه وأداره، وهو قائم على رعايته بنفسه، هو الله لا شريك له، وبهذا أرسل جميع الرسل، ولكن الناس حرفوا وبدلوا، وذهبوا في قضية الألوهية والإيمان مذاهب شتى ... وسوف نتكلم في هذه المحاضرة عن :

● الحالة العقائدية في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ● واهتمام الإسلام بأمر الألوهية ● والتصور الإسلامي لها ... ● وتناول الإيمان لسائر فروع الدين ● وأثر الإيمان في الحياة ● وأن الكفر مدمر للشخصية ● وبيان عقائد أهل السنة والجماعة ● وما الذي يتفرع عن الإيمان الصحيح في الحياة العملية — وفوائد الإيمان — وفهم المسلمين للنبوة والنبي وما الذي يجب على أهل التوحيد .

لا بد لمن يريد أن يتعرف على عقيدة الإيمان التي جاء لها الإسلام، من أن يرجع إلى الوراء قليلاً، ليتعرف على ظروف البيئة التي أنزل فيها هذا الدين — فقد كانت جزيرة العرب تمتلئ بركام العقائد والتصورات، التي انحدرت إليها من الفرس، وما تسرب إليها أيضاً من اليهودية والنصرانية، مضافاً إلى ذلك وثنياتهم الخاصة المحرفة عن ملة إبراهيم — ترى ذلك واضحاً في قول الله تعالى في سورة الزخرف « وجعلوا له من عبادته جزءاً، إن الإنسان لكفور مبين — أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين .. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم، ستكتب شهادتهم ويسألون. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون » وقال تعالى : « ألا الله الدين الخالص،

والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولدأً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار» .

«ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما يعلم في السموات ولا في الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون» . فهؤلاء المشركون ، عبدوا الملائكة فعلا ، وما يدل على أن اللات والعزى ومناة كانت تماثيل للملائكة ، ما جاء في القرآن في سورة النجم :

«أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكرو له الانثى ، تلك إذن قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبأؤكم ، ما أنزل بها من سلطان ، ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أم للإنسان ما تمنى ، فله الآخرة والأولى ، وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيأً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيأً» .

وكان بعض العرب يؤمن بعقائد النصارى — ومعلوم أنهم قالوا بأن المسيح ابن الله ، وأضافوا إليه الروح القدس ، ثم جعلوا الآلهة ثلاثة في واحد ، ونشأت طبقة الرهبان بنفوذها المعروف .

وبعض العرب كانوا يهوداً — يسكنون المدينة بالذات . وهؤلاء يجعلون الآلهة اثنين — إذ قالوا إن عزيرا ابن الله — على أن فكرة التثليث انتقلت إليهم من الديانات القديمة ، فقد قال بها الفراعنة ، وقال بها الهندوس ، وقال بها البوذيون أيضاً — والله تعالى يصور هذا المعنى في القرآن الكريم بقوله : «وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله — ذلك قولهم بأفواههم

يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون» .

وبعضهم شبه الله بالأنثى ، وحتى الآن إذا اندهش أحدهم يقول «يا إلهتي» . (O' Godness)

وكان العرب يؤمنون بآلهة مختلفة ، فمنهم من عبد الحجر ، ومنهم من عبد الشجر ، أو الحيوانات أو الشهوات ، ومنهم من عبد الملوك والجبابرة . واضطربت أحوال الناس في التعرف على خالق هذا الكون ، ومن الناس من عبد الشمس والقمر والكواكب ، والمطر والبحار والأنهار والجبال ، إلى غير ذلك .

وكانت فكرة التوحيد الخالص هي أشد الأفكار غرابة عندهم ، هي وفكرة البعث سواء ، ذلك مع اعترافهم بوجود الله سبحانه وتعالى ، وأنه الخالق للسموات والأرض وما بينهما ، ولكنهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية مطلقاً ، وهو أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم وشئونهم ، وأن يتلقوا منه وحده الحلال والحرام ، وأن يكون إليه وحده مرد أمرهم كله في الدنيا والآخرة ، وأن يتحاكموا في كل شيء إلى شريعته ومنهجه وحده ، الأمر الذي لا يكون بغيره دين ولا إيمان .

يدل على ذلك ما حكاه القرآن الكريم ، من معارضتهم الشديدة لهاتين الحقيقتين ، قال تعالى : «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب ، وإنطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آهنتكم ، إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق» .

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري ، في حقيقة الألوهية وعلاقتها بالخلق ، فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم ، وعلاقاتهم الاجتماعية ، والإقتصادية والسياسية ، وآدابهم وأخلاقهم كذلك ، فما يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها ، إلا أن تستقر حقيقة الألوهية ، وتتضح خصائصها واختصاصاتها .

وللتصور الإسلامي خصائصه المميزة التي تفرده عن سائر التصورات ،

وتجعل له شخصيته المستقلة، وطبيعته الخاصة، التي لا تتلبس بتصور آخر، ولا تستمد من تصور آخر.

إنه تصور رباني، جاء من عند الله بكل خصائصه، وبكل مقوماته، وتلقاه الإنسان كاملاً، بخصائصه هذه، لا ليزيد عليه شيئاً، ولا لينتقص كذلك منه شيئاً، ولكن ليتكيف هو به، وليطبق مقتضياته في حياته على نفسه.

وهو من ثم تصور غير متطور في ذاته، إنما تتطور البشرية في إطاره، وترتقي في ادراكه وفي الإستجابة له، وتظل تترقى وتنمو وتتقدم، وهذا الأطار يسعها دائماً، وهذا التصور يقودها دائماً، لأنه المصدر الذي أنشأ هذا التصور، هو نفسه المصدر الذي خلق الإنسان، وهو الخالق المدبر الذي يعلم طبيعة هذا الإنسان وحاجات حياته، المتطورة على مدى الزمان، وهو الذي جعل في هذا التصور من الخصائص، ما يملي هذه الحاجات المتطورة في داخل هذا الإطار.

تناول الإيمان لجميع فروع الدين: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلق لفظ الإيمان على جميع فروع الدين فقال: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياة شعبة من الإيمان» رواه مسلم وقال «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاه شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان» وهذه الفروع والشعب منها ما يتعلق بالقلب وبالجنان، ومنها ما يتعلق بالإنسان، ومنها ما يتعلق بالأبدان.

فأما ما يتعلق بالقلب، فهي المعتقدات والنيات. وتنتظم الخصال الآتية:

الإيمان بالله وتوحيده، وأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، والإيمان بالمقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه سؤال القبر، والبعث والنشور والحساب، والميزان والصراط والجنة والنار، ومحبة الله والحب والبغض في الله. ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص لله، وترك الرياء والنفاق، والتوبة والخوف والرجاء، والشكر والوفاء والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل والرحمة والتواضع، وتوقير الكبير ورحمة الصغير، وترك

الكبر والعجب، وترك الحسد والحقد والغضب .

وأما ما يتعلق باللسان فمنها التلطف بالشهادتين ، وتلاوة القرآن ، وتعلم العلم وتعليمه ، والدعاء والذكر ، واجتناب اللغو .

وأما الخصال التي تتعلق بالأبدان فهي :

التطهر حسا وحكما ، واجتناب النجاسات ، وستر العورات ، والصلاة فرضا ونفلا ، والزكاة والجود ، وإطعام الطعام وإكرام الضيف ، وتحرير العبيد ، والصيام فرضا ونفلا ، والحج والعمرة ، والاعتكاف والتماس ليلة القدر ، والفرار بالدين ، والهجرة من دار الحرب ، والوفاء بالنذر ، التحري في الأيمان ، وأداء الكفارات ، والتعفف بالزواج ، والقيام بحقوق العيال ، وبر الوالدين ، واجتناب العقوق ، وتربية الأولاد ، وصلة الرحم ...

أثر الإيمان في الحياة :

والإيمان بهذا المعنى ، هو الذي أراده الإسلام ، وهو الذي يهذب الحياة ويرقيها ، ويصل بها إلى المدنية الحقّة ، و يبلغها ما تنشده من الخير والتقدم ، وما تستهدفه من الحق والعدل .

ولا شك أن الإيمان ينعم به الفرد ، وتسعد به الجماعة ، وتحيا في ظله الحياة الطيبة ، قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة » .

وفي ظلال العيشة الراضية ، تتوافر عناصر الارتقاء المادي والروحي ، ويمجد الإنسان من عناية الله وولايته وكرامته ، ما يبلغه ذروة الكمال الذي أراده الله له ، قال تعالى : « الله ولي الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور » وقال تعالى : « وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » وقال تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

وهذا الإيمان ، زكى نفوس المؤمنين الأولين ، وطهرها من الحسد والحقد ، والكبر والعجب ، والفسق والفحش ، والظلم والجور ، والقسوة والغلظة ، والأثرة

والأنانية، وهو الذي خلصهم من درن التربية الفاسدة، وضرر البيئة الرديئة، وشر الوراثة السافلة، وهو الذي أعلى همهم فطلبوا معالي الأمور، ووطنوا أنفسهم على إمامة البشر، وقيادة الأمم، وتحريرها من الخرافات، واستبداد الملوك، وتطهير الأرض من الكفر والفساد.

وهذا الإيمان، هو الذي مكن من الفتح والظفر، والعلم والعمل وإقامة الحضارة، التي شع نورها، وعم خيرها، مشارق الأرض ومغاربها، في سنين تعد على الأصابع.

الكفر مدمر للشخصية الإنسانية:

القرآن الكريم ينعي على الكافرين، ويندد بهم، ويرسم لهم صورة كالحة منفرة، تدعو إلى التحقير والإشمئزاز.

فهم في نظره يحيون حياة الحيوان، فليس لهم رسالة كريمة، ولا غاية نبيلة، ولا هدف سام، وحياة الحيوان هذه لا تتجاوز المتاع والطعام. قال تعالى: والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم».

فهي إذن حياة لذة وهو وشهوة، ليس فيها تفكير ولا تأمل ولا عمق، قال تعالى: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون».

وفي هذا الجو الحيواني، تغلق منافذ الإدراك، وتتعطل مواهب العقل، والسمع والبصر، فلا ينفذ منها شعاع يضيء القلب الإنساني، ويعمره بالحياة والإيمان، قال تعالى: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك، كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون».

ومتى أغلق على الإنسان الباب، وحيل بينه وبين النور الإلهي، اعترته الحيرة، وساورته الشكوك، ولزمه الضلال والضيق والضجر.

قال تعالى «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن

يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء» .

وهذا الانحراف يهبط بالمستوى الإنساني، ويحول بينه وبين التطهر والتسامي، فتسقط قيمته، ويرذل قدره، وينحط إلى الدرك الذي يعوقه عن النهوض بتبعات الحق والخير.

وحين يصل المرء إلى هذا المستوى، لا تكون له رسالة سامية، ولا هدف كريم، ولا مثل أعلى .

وانما تتجه جميع قواه إلى تحقيق ذاتيته، واشباع غرائزه، وإثارة مصالحه الخاصة، وتنكره للمصالح العامة.

ويوم أن تخلو الدنيا من الضمائر والمثل العليا/ تتحول الحياة إلى صراع/ يكون أشد هولاً وأبعد أثراً من صراع الحيوانات المفترسة .

ومن ثم فإن الإسلام يدعو أبدأً إلى الاستمسك بالحق، والتشبث بعراه، حتى لا يخطيء الإنسان الهدف، أو يضل الطريق، يقول الله سبحانه: «فاستمسك بالذي أوحى إليك، إنك على صراط مستقيم، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون» .

بيان عقيدة أهل السنة:

معلوم أن فرقاً كثيرة نشأت في الإسلام وتختلف في فهمها للإيمان قليلاً أو كثيراً — لكن غالبية أهل الملة هم أهل السنة والجماعة وهذا بيان معتقدهم:

ولقد أحسن الشيخ ابن تيمية رحمه الله عندما قال في كتابه (العقيدة الواسطية): الإيمان في اللغة التصديق في الشرع اعتقاد وقول وعمل — اعتقاد بالقلب وقول باللسان وأعمال بالأبدان وأركان الإيمان ستة:

أولها: الإيمان بوجود الله تبارك وتعالى، وأنه متصف بكل كمال يليق به ومنزه عن كل نقص، وأنه تعالى مستحق للعبادة، واحد لا شريك له، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في استحقاقه للعبادة.

وثانيها: الإيمان بالملائكة، وهي أن تصدق بوجودهم وأنهم لا يعصون الله ما

أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنهم «يسبحون الليل والنهار لا يفترون» (الأنبياء ٢٠) وليسوا بذكور ولا إناث وإنما هم خلق آخر، لا يعلم حقيقتهم إلا الله، ولا يعلم عددهم إلا الله، لقوله تعالى «وما يعلم جنود ربك إلا هو» (المقدر ٣١) وهم الواسطة بين الله وبين رسله، ليبلغوهم عن ربهم، ومنهم المكلفون بأعمال شتى كقبض الأرواح، وسوق الأمطار، والنفخ في الصور، ومنهم الحفظة الكرام الكاتبون لقوله تعالى: «إن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون» (الانفطار ١٠ - ١١ - ١٢). ومعنى هذا أن الملائكة يزيدون على ضعف عدد البشر، منذ خلق الله الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثالثاً: الإيمان بالكتب السماوية، ومقتضى ذلك أن تصدق بأنه تعالى، أنزل على رسله كتباً، ليعلم الناس فيها الخير من الشر، الحق من الباطل، وهذه الكتب كثيرة، يجب الإيمان بها جملة، لأنه لا يعلم بها إلا الله تعالى، ونحن نعرف منها أربعة على سبيل التفصيل، وهي التوراة المنزلة على موسى، والزبور المنزل على داود، والانجيل المنزل على عيسى، والقرآن الذي أنزل على نبينا محمد، صلوات الله وسلامه على الجميع، والقرآن فيه ما في الكتب المتقدمة وزيادة، مما اقتضته المصلحة العامة، قال تعالى: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه».

رابع أركان الإسلام: الإيمان بالرسل الكرام، عليهم السلام، وأن الله تعالى أرسل للناس رسلاً، مبشرين بالجنة لمن أطاعه، ومنذرين بالنار لمن عصاه، كما يجب أن نؤمن بأن الله رسلاً، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى لقوله: «ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلاً لم نقصصهم عليك» وعلينا أن نعرف خمسة وعشرين منهم تفصيلاً حيث ورد ذكرهم في القرآن الكريم هم [آدم ونوح وأدريس وإبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان والياس واليسع وهود وصالح وشعيب وذو الكفل وأيوب ويونس ولوط وزكريا ويحيى وعيسى] صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

يجب أن نؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين، وأنه لا

نبي بعده، كما يجب أن نؤمن بأن رسالته عامة، كما قال الله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) بينما كانت رسالة كثير من الأنبياء خاصة، لقرية واحدة كما قال الله في حق النبي يونس عليه السلام «وأرسلناه إلى مائة ألف أوزيريدون» (الصافات ١٤٧). وأن نؤمن بأن الرسل، بلغوا رسالات ربهم، ولم يكتموا منها شيئاً، وأنهم آمناء على ما حملوا من تلك الرسالات، صادقون فيما بلغوا عن ربهم، وإن كان بعض الشعوب بدلت وغيّرت، فيما جاءهم بها رسلهم.

خامساً الإيمان بالبعث: وهو أن تصدق بأن الله سيخرج الناس من قبورهم، وأنهم سيعادون إلى الحياة، بأجسامهم وأرواحهم ليحاسبوا على أعمالهم، ويجزوا عن أفعالهم. قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة ٧ — ٨).

سادساً: والإيمان بالقدر، من أركان الإيمان، وهو أن تصدق بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن يصيبك، وإن كل ما يجري عليك مكتوب عند الله تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم، إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، ان ذلك على الله يسير) (الحديث ٢٢) وأن أول ما خلق الله تعالى هو القلم، فقال له اكتب. قال ما أكتب؟ قال اكتب كل ما هو كائن. ومن الإيمان بالقدر أن لا تحتج به على معصية الله، فإن الله أرسل لنا رسلاً أخبرونا بما يجب أن نعمل، وبما يجب أن نترك، وأن ما قدر علينا من شقاء أو سعادة، أو كفرًا أو إيمان، أو عصيان، لا علم لنا به، وقد خبأه الله عنا، فلا تحتج به في فعل المعاصي، قال تعالى «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرمانا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم، حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، أن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون» (الأنعام ١٤٨). أي تخمنون تخميناً لا يستند إلى شيء.

فالإيمان بأن الله عز وجل خلق ورزق، هو الإيمان بالربوبية أي إيمان العطاء، كأن تقول «رب البيت يطعم أهل البيت» وقد آمن المشركون هذا

النوع من الإيمان فلم يغن عنهم شيئاً، وأما الذي عليه مدار العمل، فهو الإيمان بالألوهية، أي أن الله تعالى وحده المستحق للعبادة، من دون خلقه، فلا يعبد إلا الله، ولا تكون عبادته إلا بما شرع وقرر، لا بما استحسّن الناس بأهوائهم.

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة، هم أنهم يتبنون الله تعالى الأسماء والصفات، التي أثبتتها لنفسه في كتابه العزيز، وهو القرآن الكريم، وكل صفة من صفاته التي نتكلم عنها واردة في آيات القرين الكريم، هذا الإثبات يكون من غير تمثيل، فلا تشبه صفات الخالق بصفات الخلق، وإنما اللغة وسيلة لتقريب المعنى إلينا، ولا يعرف حقيقته مدلولها أو كيفيتها إلا الله عز وجل، وكذلك من غير تعطيل، والتعطيل هونفي الصفات عن الله. وهي التي أثبتتها لنفسه في كتابه، والتي أثبتتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يعلم حقيقة صفاته إلا هو، وكذلك لا يلحدون في أسمائه، فلا يغيرون في معانيها، ولا يميلون بها إلى غير ما أراد الله منها، ولا ينكرون منها شيئاً:

إذن فهم لا يقيسون الله تعالى بشيء من خلقه، لا في ذاته ولا أسمائه ولا صفاته ولا في أفعاله لقوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (الشورى ١١). وبعض الناس يعطل صفات الله، وبعضهم يتأولها، وبعض الناس يحرفها، وبعضهم يلحد فيها، وبعضهم يكيف الله بكيف يشبه خلقه، وكل هذا من الزيغ والضلال، وسببه التأثر بالفلسفة المشتملة على أفكار الكافرين من الأقدمين.

وقد يكون من المستحسن أن نورد بعض الشروح على صفات الله عز وجل كما قررها العلماء السابقون، فالأول هو الذي لا شيء قبله، فأوليته تعالى أزلية، أي لا يسبقه شيء، لقول النبي صلى الله عليه وسلم «أنت الأول فليس قبلك شيء» والآخر هو الذي لا يفنى، لأنه باق بذاته، ولا شيء بعده، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (أنت الآخر فليس بعدك شيء) والظاهر وهو الذي سما فوق كل شيء، فهو سبحانه عال بذاته، فوق الأشياء، فليس يعلوه شيء أصلاً، لقوله صلى الله عليه وسلم (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء)

والباطن: أي ليس دون الله شيء من مخلوقاته ، فهو سبحانه محيط بخلقه ، علوا ودنوا ، وهو بكل شيء عليم ، فلا تخفى عليه خافية ، والحي هو القائم بحياة غير حياة المخلوقات ، لأنها حياة ذاتية ، فليست حياته تعالى مستمدة من غيره ، إنما من ذاته . والعظيم المحيط بمخلوقاته ذاتاً وعلماً واستعلاء فلا تدرك حدود عظمته .

وهكذا فبقية أسماء الله الحسنى وصفاته ، تعرف على هذا الوجه .

وفي الكلام على الإيمان قلنا أنه تصديق وعمل ، فاتصديق هو خاص بالقلب ، أي استقرار الحقائق الآلهية التي وردت في القرآن الكريم ، حتى تخلط النفس ولا يكون فيها شك .

وأما العمل فهو قسمان عمل القلب ، وهو الإخلاص والنية ، وعمل الجوارح ، و به الأعضاء ، يدخل في ذلك اللسان واليد والرجل والعين وغيرها . ثم أن الإيمان يزيد وينقص ، فإنه يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية .

ونحن لا نكفر أحداً من أهل القبلة ، أي من الذين اتجهوا إلى قبلة المسلمين وصلوا إليها ، ونقول عن أهل المعاصي أنه نقص في إيمانهم ، ويبقى الأصل الإيماني موجوداً عندهم ، فلا نكفر من نطق بالشهادتين وعمل بمقتضاهما ، إلا إذا أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويله غير الكفر...

والسؤال المهم الآن :

ما الذي يتفرع عن الإيمان بالله في حياة الناس العملية ؟

فنقول يتفرع عن ذلك أولاً الاعتقاد بأن الله الخلق ، فإن كل ما نشاهد على سطح هذه الأرض وفي السماوات والأفلاك ، إنما هو خلق متعبد لله عز وجل ، فلا تبهر أعيننا الاختراعات التي حصلت في هذه الأيام لأن تلك الاختراعات والآلات كيف نشأت ؟ لقد نشأت عن العقل الإنساني / ومن الذي خلق العقل ؟ انه الله عز وجل ، إذن فكل هذه المظاهر راجعة إلى الله صادرة عنه تعالى إما مباشرة ، أو من خلال خلقه ...

ثانياً: الاعتقاد بأن له الأمر، فلا أمر في الدنيا لأحد إلا الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو الفعال لما يريد، لكنه ترك لنا حرية التصرف فيما نقدر عليه، وكله مقدر عنده ازلاً، لأنه عليم بما كان وما يكون وما سيكون، ويتفرع عن ذلك أيضاً أن الله حق السيادة، فهو صاحب التشريع، وهو أعلم بعباده وما يصلحهم، فوضع لهم الشرائع عن طريق الأنبياء والرسل، لكي لا يتيهوا في الأرض، ولا يظلم بعضهم بعضاً، فمن القبائل والشعوب من سار على تشريع الله، ومات على ذلك، فرضي الله عنهم، ومنهم من حَرَفَ وبدل، وكذب وافتري، فيعاقبه الله يوم القيامة.

ومقتضى قولنا «إن محمداً رسول الله» أن نؤمن بأن هذا النبي الكريم، الذي أرسل رحمة للعالمين، إنما هو واحد من البشر، ليست له صفة من صفات الألوهية، وأنه كان التطبيق العملي لما أنزل الله من كتاب وتشريع، لقد عاش كما يعيش الناس، وتزوج كما يتزوجون، وأنجب كما ينجبون، وعانى من الفقر والبأساء، وجاهد في الله حق جهاده، وعلم ودعا، وسافر واجتهد، ونام واستيقظ، وجاع وشبع، وطأ عليه كل ما يطرأ علينا جميعاً قال تعالى: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» (الكهف ١٠٩). وقال تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ»

فالمسلمون لا يعبدون سوى الله، ولا يرفعون نبهم عن درجة العبودية لله، وإن كانوا يوقرونه ويحبونه أشد الحب.

ما الذي يجب على أهل التوحيد؟

إن هذه النعمة حقاً في أعناقنا، ومطلوب منا أن نؤدي زكاة هذه النعمة، فكيف يكون ذلك؟

على أهل التوحيد أن يدعوا الناس إليه، فالدعوة إلى التوحيد، ونشر كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، من أوجب الواجبات.

هذا الشعار اليسير السهل، هو مفتاح كل الخير، بمقتضى لا إله إلا الله: أن

نوقن بما تقدم ذكره من صفات الله وأسمائه ، وقدرته وهيمنته ، وسيطرته على كل الدنيا .

نسأل الله أن يلهمنا حقيقة الإيمان والحمد لله رب العالمين .

(الفقه والاجتهاد والتقليد)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد ومن والاه وبعد
— فهذه المحاضرة عنوانها الفقه والاجتهاد والتقليد .

نبدأ بالكلام عن العلم والعلماء

لما تقدمت الحضارة الإسلامية — وانتظمت أمور الأمصار — دعت الحاجة إلى نشوء علوم معينة/ تناسب نمو الدولة الجديدة — التي احتلت نصف الأرض تقريباً — والتي انتظمت عدداً من الشعوب التي تتكلم بلغات شتى — ولها حضارات قديمة — وأبجاء تغتربها — ونشأ علم اللغة العربية — والنحو والصرف والبديع والبيان وغيرها — مما ميز هذه الحضارة وحدد معالمها — وسهل تناولها على المسلمين الذين دخلوا في الإسلام — وهم لا يحسنون لغتها — وكان الأصل في وضع قواعد اللغة العربية بأمر من علي بن أبي طالب رضي الله عنه — إلى أبي الأسود الدؤلي — ولما عرض عليه نماذج من تلك القواعد — فقال له علي « انح هذا النحو » يعني سر على هذه الطريقة « فسمي علم النحو » .

فعلم النحو وضع أساساً لخدمة القرآن الكريم — وعلم التفسير هو أجل العلوم وأعظمها — فقد قصد به تفهيم الناس ما يراد من كلام الله العزيز — ويلحق بهذا القسم علوم القرآن — كالتجويد — واملاء المصاحف — وأسباب النزول — وعلم النسخ والنسوخ — والمتقدم والمتأخر وأحكام القرآن — ثم علم الحديث — وهو العلم الذي يعرف به صحيح الحديث من سقيمه — وتندرج تحته علوم أخرى — مثل علم الرجال — وعلم الرواية والدراية، فمصطلح الحديث بفروعه المختلفة، يُبين للناس ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم من الذي لم يقله .

أما علم السير والمغازي والتاريخ — فهو تدوين الأحداث على مدى الأيام

والسنين — ولا شك أن علم السيرة قد ربى الرجال وكون الأبطال — لحرص كل مسلم على أن تكون له في رسول الله أسوة — وفي الصالحين المجاهدين قدوة .

وعلم الفقه هو العلم الذي يستخرج بواسطة الأحكام الشرعية، مما لا نص فيه، ومما يجعل الدين مسائراً للأزمان والأماكن — لأن دين الإسلام ثابت في أصوله — متطور في فروعه — فهناك حقائق ثابتة توقيفية نص عليه القرآن الكريم، أو بينها السنة، ولا مجال للاجتهاد فيها . فلا يحل لأحد أن يناقش هل الخمر حلال أو حرام، وهل الربا حلال أو حرام — وهل الزنا يجوز أو لا يجوز — فكل ذلك يحرم البحث فيه ابتداء — لأن الله قرره قرراً بنفسه — بنص القرآن أو بأمر أوحاه لرسوله صلى الله عليه وسلم — فانتهى النقاش فيه — لكن القضايا المتجددة في استعمال الأجهزة والآلات — وأمور المعاش التي تقدمت بها الحياة من بعد مئات السنين — تحتاج إلى نظر جديد — وقياس أمر جديد — على أمر قديم — ذلك هو علم الفقه — فلا يجوز أن يحكم الفقيه فيها حتى يعرف رأي الدين لقوله تعالى «**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله**» . فكل طرائق الحكم — يجب أن تستفاد من هدى الله ورسوله — فالذي يشتغل بالصناعة عابد — والذي يشتغل بالتجارة عابد، إن قصد بذلك وجه الله — والذي يشتغل بالحساب عابد — وكل هؤلاء يعملون لخدمة البشرية وقضية العمران .

تعريف الفقه هو بذل الجهد للوصول إلى الحكم الشرعي، من دليل تفصيلي من الأدلة الشرعية — والفقه من ألزم الأشياء للعامة والخاصة على السواء، فما هو عمل الفقيه؟ إن عمل الفقيه أن يجمع القضايا والأدلة والأحاديث والآيات، وكل ما فيه شبه التعارض . ثم يبحث ويستقرىء ويسأل ويؤول ما يجب تأويله، ثم يقول إنني أرى أو أتوقع وأرجو أن يكون الحكم الصحيح هو كذا وكذا — فإن صح عندكم شيء بعد ذلك عن الله ورسوله — فاضربوا برأبي عرض الحائط، ولم يقل فقيه من الفقهاء، أنا أضع لكم ديناً فاتبعوا ديني أو أنا مشرع فاتبعوني، وإنما قال كلهم بصريح العبارة «**إننا مجتهدون، نحاول استنباط الحكم، وخدمة المسلمين وتسهيل الأمور عليهم، فمن صح عنده ذلك وعرف**

دليلنا واقتنع به ، فله أن يأخذ بهذا الرأي ، ومن لم يقتنع فليجتهد كما اجتهدنا ، حتى يطمئن لما يدين الله عليه ، ومن هنا وجب على المقلد إن كان قادراً — أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه — ولا يأخذ الكلام على علاقته — لأن الشافعي وأبو حنيفة — ومالك وأحمد — وزفر ومحمد بن يوسف وغيرهم — من أصحاب المذاهب التي اشتهرت واعتمدت في الإسلام — هؤلاء جميعاً أخذوا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونحن لا نتبع هؤلاء — إلا إذا اقتنعنا بأنهم فيما قالوا — سائرون على هذه الأصول الأساسية .

ويختلف فقهاء السنة عن فقهاء الشيعة في مسائل أساسية ، منها أن فقهاء السنة يعتمدون الحديث الصحيح ، بطرق الاستدلال التي وضعها علماء مصطلح الحديث ، ولا يخرجون في تأويل القرآن الكريم عن أساليب اللغة العربية ، ولا يعتمدون حديثاً باطلاً أو ضعيفاً ، ولا يسندون حديثاً إلا للنبي صلى الله عليه وسلم .

أما الشيعة فقد حددوا بعض الأئمة من آل البيت — بأسمائهم ، وقالوا هؤلاء الأئمة معصومون كالأنبياء ولهم حق التشريع ويكتفون بأقوالهم دون حاجة لرفعها للنبي صلى الله عليه وسلم — أما عامة المسلمين فيقولون إنه لا عصمة إلا للنبي — وما سواهم فليس بمعصوم — وليس يؤخذ عنه الدين — ولذلك أباح الفقيه الشيعي أشياء لم يسمح بها الفقه السني — واختلفوا اختلافاً واضحاً حتى في تفسير القرآن الكريم — ونشأت عندهم علوم وعبادات وأعمال مختلفة تماماً عما عليه أهل السنة والجماعة (وهم الذين يمثلون أغلبية المسلمين) .

وفيما يلي بيان الأمور المؤهلة للاجتهاد الفقهي :

يشترط للمجتهد شروط أربعة الأول أن يكون الإنسان على علم باللغة العربية وفهم أساليبها والاطلاع الواسع على آدابها وكيفية استفادة المعاني من العبارات .

الثاني أن يكون على علم بالقرآن الكريم وبالأحكام التي جاء بها وبطرق استثمار هذه الأحكام من آياتها ، وما صح من أسباب النزول لكل آية منها ، وما ورد في تفسيرها وتأويلها .

الثالث أن يكون على علم بالسنة، والأحكام الشرعية التي وردت بها، ومعرفة درجة الحديث من الصحة والضعف.

الرابع أن يعرف وجوه القياس، والحكم والعلل التي شرعت من أجلها الأحكام، مع الخبرة بأصول الناس ومعاملاتهم، فإن لم يجد في القياس سبيلاً إلى معرفة حكم الواقعة، سلك إحدى السبل التي مهدتها الشريعة لاستنباط الحكم فيما لا نص فيه.

وينبغي التنبيه في الاجتهاد إلى الأمور الآتية:

أولاً إن الاجتهاد لا يتجزأ فلا يقال إن هذا العالم مختص في أحكام الطلاق، وغير مختص في أحكام البيع، لأن قدرته على فهم المبادئ العامة، لا تختص بشيء دون شيء.

ثانياً إن المجتهد مأجور على كل حال، من الله تعالى، فإن أصاب فله أجران أجر اجتهاده حتى لو أخطأ، وأجر على تقرير الصواب، ولا يجب على غيره أن يقلده على طول الخط، فليس أحد بمعصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه يجوز للعامة الذين لا يقدرّون على استنباط الأحكام من نصوصها، أن يتبعوا المجتهدين ويقلدوهم، مصداق قوله تعالى: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون».

ثالثاً: إن الاجتهاد لا ينقض بمثله، فلا يجوز لمجتهد آخر أن ينقض حكم الأول، لأنه ليس الاجتهاد الثاني بأول من الاجتهاد السابق، ولو أننا أخذنا بهذه القاعدة — فسوف لا يستقر حكم شرعي أبداً، وفي هذا مشقة وخرج على الناس، وقد قضى أبو بكر في مسائل وخالفه عمر فيها ولم ينقض حكمه.

وعلى هذا المعنى ينبغي أن نفهم سماحة الإسلام، إلا أن يتضح دليل شرعي قوي، كان غائباً عن المجتهد، وما أحسن قول عمر بن الخطاب في عهده لأبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء: «ولا يمينك قضاء قضيت اليوم فراجعت فيه نفسك، أو هديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل».

التقليد بين النفي والتأييد

وقد ارتفعت صيحات في هذه الأيام تهاجم تقليد الأئمة، وتنعى على التقليد بأنه قد أضر الإسلام وفتح للجاهلية أبواباً فزادت البدع والشركيات، وهذا كلام فيه جانب كبير من الحقيقة، لكن أصحاب هذا الرأي بعضهم قد بالغ بمبالغة جعلته سبباً في أحداث فتنة جديدة، لا تقل ضرراً عما كانوا يحذرونه.

فمن ذلك أنهم حكموا بفساد عبادة أكثر المسلمين، فإن تسعة أعشار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يقلدون المذاهب، بسبب كونهم من العوام وأشباه العوام في الأمور الشرعية، وهذا الحكم لا يقول به أحد من العقلاء.

ومن ذلك أنهم حكموا بفساد عقيدة المجاهدين في أفغانستان وغيرهم، ودعوا إلى وقف الامدادات عنهم فوقفوا بذلك مع معسكر الشيوعيين والكافرين من حيث لا يشعرون، بل عرضوا أنفسهم لتهمة العمالة المباشرة للجهات الأخرى.

ومن ذلك أنهم بموقفهم هذا يستبعدون من التراث الإسلامي أعظم ما تم فيه من الانجازات العلمية والفقهية، وهي التي نباهي بها الآخرين، ولا غنى عنها للمسلم، والتي يستحيل أن يوجد بديل عنها، والتي لا يستطيع مسلم مهما كان متشدداً، أن ينالها بمطعن شرعي

ومن الناحية الأخرى فإن التعصب للشيوخ والمذاهب والطرق والسبل بغير دليل شرعي — قد أحدث الفرقة في الدين، وهذا ما لا يرضاه المسلمون.

ولا بأس أن نورد هنا ما قرره الشهيد حسن البنا في هذا الصدد، في رسالة التعاليم حيث يقول «ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية، أن يتبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع، أن يتعرف أدلة إمامه من الكتاب والسنة، وأن يتقبل كل ارشاد مصحوب بالدليل، إن صح عنده صدق من أرشده وكفايته، حتى يبلغ درجة النظر». ومعنى هذا أن يكون التقليد مرحلة مؤقتة، مع دوام الاجتهاد والدراسة، لمن يستطيع ذلك من المسلمين، وهذا ما أوصى به الأئمة أنفسهم.

والسؤال الآن: لماذا وقع الاختلاف بين الفقهاء؟ ولماذا تعددت المذاهب الإسلامية؟ فنقول إنه لم يقع اختلاف في أصول الدين، فالمسائل الأصولية التوقيفية التي نص عليها القرآن الكريم، أو جاءت بها السنة صريحة، لا يوجد فيها اختلاف أبداً بين فقهاءنا، وإنما الاختلاف في فروع العبادات، أو في فروع المعاملات، وهذا أمر لا يضر لأنه من طبيعة البشر. ومن أسباب هذا الاختلاف ما يأتي:

أولا تصحيح الحديث فإن بعضهم قد وثق راوي الحديث، والآخر لم يوثقه، ولم يعتمد ما جاء بالرواية عنه، فاعتمد أحدهم صحة الحديث، بينما الثاني لم يعتمد صحته.

الأمر الثاني فهم القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم حمّل أوجه، وله معاني كثيرة، ودلالاته مختلفة، ومن العسير الجزم بأن هذا هو المراد وحده دون غيره. فالله تعالى أعلم بمراده في قوله، فبعض المسلمين فهم عن الله بطريقة معينة، في حدود ادراكه للغة العربية، والبعض فهم مراد الله بطريقة تختلف عن الأولى، وكل واحد ساق دليلاً مقنعاً.

أمر آخر هو الصريح والكتابة، والمحكم والمتشابه في القرآن الكريم. قال الله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب، وأخر متشابهات). هذا التشابه يصعب الحكم عليه، مثلاً قال الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنباً فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو سافر أو جاء أحد منكم الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتميموا صعيداً طيباً» (المائدة ٦). فهل ملامسة النساء تقتضي الوضوء؟ قال بعضهم: نعم نحن نأخذ بظاهر اللفظ، فاللمس معروف، وقال بعضهم كلا، بل اللمس هنا كناية عن الجماع فإذا لم يجماع ولمس باليد فلا يتوضأ، واستشهد كل منهم على ذلك بدليل، فبقي هذا على رأيه. وفي الإسلام سعة ورحمة للعالمين ما دامت القضية لم يتقرر حكمها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن أسباب الاختلاف كذلك :

التأثر بالبيئة فإن الإمام مالك رضي الله عنه عاش في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم — فكانت أكثر أحكامه تتأثر بمن حوله من أصحاب رسول الله — والتابعين ، الذين عاشوا في هذه البيئة ، بينما الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه — كان تاجراً ، عاش في بغداد مع الحكام العباسيين ، حيث تعددت القضايا في حاضرة العالم الإسلامي ، واستجدت أمور تحتاج إلى مزيد من النظر والتأويل ، والتيسير على الناس ، فكان اجتهاده متأثراً بهذه الظروف ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختار بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً . كذلك الامام الشافعي عندما كان في بغداد وفي البلاد الشامية وضع مذهباً شمل اجتهاداته المدونة هناك . وعندما حضر إلى مصر وضع مذهبه الجديد ، ولم يقل أحد أنه أخطأ في الأول أو أخطأ في الثاني ، لأنه كان دائماً يحيل على النصوص المعتمدة ، فالتأثر بالبيئة والأحوال المحيطة بالفقيه ، كان له أثر في طريقة كل منهم في التفكير .

ومن ذلك التأثير بالصحابي والأستاذ — فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في البلاد بسبب الجهاد ، وصار كل قوم يقتدون برأي الصحابة الذين جاءوا إليهم ونقلوا عنهم ، فصار عسيراً جداً أن ترفض هذه الآراء كلها — ويثبت الناس على رأي واحد .

وهنا نذكر ما حصل بين أبي جعفر المنصور وبين الامام مالك رضي الله عنه ، عندما قال له أبو جعفر — يا مالك ألفت لنا كتاباً في الفقه ، ووطئه للناس توطئة ، يعني يسره تيسيراً — لكي نجتمع الأمة عليه . فقال له « يا أمير المؤمنين لا تفعل » (أي لا تجبرهم على كتابي) . قال لماذا؟ قال « لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار ، (يعني الأقاليم) وعند كل قوم علم — فإن حملتهم على أمر واحد تكون فتنة » ، أي يقتتل الناس — بسبب ثقة كل منهم في شيخهم ، أو في الصحابي الذي نقل العلم إلى بلادهم .

وهكذا بقي العلم الديني محتملاً لهذا الخلاف اليسير في الفروع ، دون

الأصول ولعل ذلك من رحمة الله بعباده ومن مرونة هذه الشريعة .

مناهج التحقيق إن منهج التحقيق في الفقه الإسلامي ، من أعظم ما عرفت البشرية ، ومن أدق ما توصل إليه الناس ، أمانة وخشية — لأن المؤلف والمفكر ، والفقيه — والراوي والناقل ، كلهم كانت تحكمهم خشية الله تبارك وتعالى ، والخوف من حسابه يوم القيامة ، فجاءت جهوده على درجة من الكمال . وكان الفقيه هوولي أمر المسلمين غالباً ، أو هو الذي يليه في المنزلة الاجتماعية ، لذلك تنافس المتعلمون في ادراك الفقه والوصول ، لدرجة الاجتهاد — ثم كثر الفقهاء والمجتهدون — وتعددت المذاهب حتى كادت أمور العبادة أن تتشعب وتضطرب . وكان ذلك إبان حكم العباسيين (في القرن الثالث وما بعده) فرؤي الاكتفاء بمذاهب الفقهاء الأربعة (أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل) وهم الذين اشتهرت مصنفاتهم وتلقتها الأمة بالقبول ، واستمر الحال على ذلك عدة قرون ، فلم يظهر مجتهد لامع مجدد — إلا القليل النادر ، وحتى أولئك (مثل ابن تيمية وابن القيم ونحوهم) كانوا يحيلون فتاواهم على الأئمة المتقدمين .

على أن هذا الحصر للاجتهاد ، لم يكن أمراً شرعياً ، بل كان تصرفاً إدارياً ، دعت إليه ضرورة معينة ، وجميع المسلمين متفقون على أن باب الاجتهاد مفتوح لمن يريد أن يجتهد ، بل هو ضرورة ملحة في هذا العصر بالذات ، بسبب ما استجد من الأمور — كقضايا المعاملات المصرفية — وأعمال التأمين ، والعلاقات الدولية ، وتغيير المكييل والموازن ، ومصارف الزكاة ومواردها ، ومشاكل الضرائب والقوانين الوضعية ونحوها ...

لكن المشكلة الحقيقية ، هي في وجود المجتهد الذي يكون أهلاً لذلك .

ثم إنه بسبب قيام الدولات وضياع الخلافة ، ووجود الفرقة وظهور القومية ، فمن الذي يرضي الناس رأيه في كل تلك الأقطار ؟

على أن فتح باب الاجتهاد دون ضوابط أمر خطير أيضاً ، فلو ظهر في كل بلدة إمام مجتهد ، يلتفت حوله الاتباع ، وقد يخرج بآراء شاذة مضرة ، فقد يتفرق المسلمون بسبب ذلك .

إن أمر الاجتهاد أمر مطلوب كما ذكرنا، لكن لا بد من رقابة على هؤلاء المجتهدين، إما من حكومة رشيدة، متقيدة بأحكام الإسلام. وإما من جملة من العلماء المشهور لهم بالورع والاستقامة ووزارة العلم، فلا يكاد يمر يوم حتى تتعالى صيحات الزنادقة والمنحرفين، بضرورة التطوير والتحديث في الدين، بحيث يوافق في زعمهم حاجات العصر، ويلمح هؤلاء المنحرفون أو يصرحون بإعادة النظر في قضية تحریم الربا، وحرية النساء، وقضايا الحدود، والردة والجهاد والرق، والأحوال الشخصية العائلية، وما إلى ذلك — تقليداً للمجتمعات التي تربوا فيها أو أعجبوا بها، وكل هذا مرفوض طبعاً، بعدما نسمع قول الله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً».

فالمسلمون لا حاجة لهم في شيء آخر إلا استبانة الفتوى في بعض القضايا المستجدة، متقيدة بروح الإسلام، وأصالته، مع احترام حدوده، ومع التسليم بأن نبي الشريعة هو محمد صلى الله عليه وسلم، وليس لأحد من هؤلاء الأئمة ولا الفقهاء إلا فضل البحث والدلالة والارشاد، ومن أجل ذلك قامت المجامع الإسلامية في كثير من البلاد الإسلامية، لتحقيق هذا المراد، بصورة جماعية (كبديل عن المجتهد الواحد في العصر الأول، لأنه لم يدرك نشوء تلك القضايا المستحدثة).

والذي نعلمه أنها حققت مصلحة عظيمة، دون عدوان على مقام أولئك المجتهدين السابقين، بل انتفعت بجهودهم الكريمة.

ومن مآثر الفقهاء القدامى، رضوان الله عليهم أجمعين — أنهم من خلال تعمقهم في دراسة روح التشريع الإسلامي، اهتدوا إلى قواعد ومبادئ أساسية، قاموا بتدوينها لتكون دستوراً لكل باحث في هذا الفن، وسموها علم «أصول الفقه».

علم أصول الفقه:

هو علم يبين طرق الاستدلال، وتوضح المعالم التي قصد إليها الشارع

سبحانه وتعالى ، لتحقيق مصالح العباد في دنياهم وأخراتهم ، ويجمع هذا العلم كلمة الاجتهاد والفتوى على طريق واحد . ولقد أفاد هذا العلم فيما وضع لأجله بحمد الله ، ولا زال منهجا لكل مجتهد وفقهه .

ونتكلم الآن عن القواعد الأصولية التشريعية :

سبقنا الإشارة إلى أن علماء أصول الفقه ، قد استمدوا هذه القواعد من استقرار الأحكام الشرعية ، التي قررت مبادئ وأصول عامة ، مما يجب مراعاته عند استنباط الأحكام .

القاعدة الأولى إن المقصد العام في التشريع الآلهي هو تحقيق مصالح الناس ، بكفالة ضرورياتهم وتحسيناتهم ، فلا يراعى مقصد تحسيني إذا كان يخل بمقصد احتياجي ، ولا يراعى مقصد احتياجي إذا كان يخل بمقصد ضروري ، والأمور الضرورية ترجع إلى خمسة أشياء بهذا الترتيب أولها : الدين ثم النفس ثم العقل ثم العرض ثم المال .

فمن ضرورات الدين فهم مجموعة العقائد والعبادات والأحكام ، التي شرعها الله سبحانه وتعالى لتنظيم علاقة الناس بربهم ، وعلاقة بعضهم ببعض ، وقد شرع لحماية الدين أحكام الجهاد ، لمحاربة من يقف في سبيل الدعوة ، وعقوبة من يرتد عن دينه ، وعقوبة من يبتدع أو يحرف أحكامه .

ولضرورات حفظ النفس ، شرع الإسلام الزواج للتناسل ، وأحاط الأسرة بما يؤمنها ويحفظها ، وكفالة حياة الناس بالطعام والشراب ، واللباس والسكن ، وإيجاب القصاص والدية ، والكفارة على من يعتدي على النفس ، وحرمة اللقاء بها إلى التهلكة ، وأوجب دفع الضرر عنها .

وشرع لحفظ العقل تحريم الخمر وكل مسكر ، وعاقب من يشربها أو يتناول أي مخدر .

وشرع لحفظ العرض حد الزاني والزانية ، وحد القاذف ، وأوجب عقوبات على مقدمات الزنا مثل الخلعة واللهو المحرم .

وشرع لحفظ المال وسائل تحصيله وكسبه ، ووجوب السعي للحصول عليه ،
وكما شرع لحفظه تحريم السرقة ، والغش والخيانة ، وأكل الأموال بالباطل ،
واتلاف مال الغير ، وتحريم الربا .

وفيما يلي بيان المبادئ الخاصة بدفع الضرر:

أولاً - الضرر يزال شرعاً ويتفرع عن ذلك ثبوت حق الشفعة للجار ،
وثبوت الخيار للمشتري في الرد ، ووجوب الوقاية ، والتداوي وقتل المؤذي من
الحيوان ، وتشريع عقوبات على الجرائم من حدود وتعزيرات وكفارات .

ثانياً - الضرر لا يزال بالضرر ومن فروع أنه لا يحفظ مال بإتلاف غيره ،
وليس للمضطر أن يأكل طعام مضطر آخر .

ثالثاً - في تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ومن فروع أنه يقتل
القاتل ، وتقطع يد السارق ، ويهدم الجدار الآيل للسقوط ، ويبيع مال المدين
جبراً ، وتسعر الحاجات إذا غالى أربابها في الثمن .

رابعاً - يرتكب أخف الضررين لا تقاء أشدهما ومن فروع حبس
القريب إذا امتنع عن مساعدة قريبه ، وتطبيق الزوجة للضرر والاعسار ، وتناول
الميتة أو مال الغير خشية الموت ، والتجاوز عن ظروف الطهارة عند الضرورة .

خامساً - دفع المضار مقدم على جلب المنافع ، ومن فروع منع المالك
من التصرف في ملكه ، إذا كان تصرفه يضر بغيره .

سادساً - الضرورات تبيح المظورات ، ومن فروع من امتنع عن أداء دينه
يؤخذ الدين من ماله بغير إذنه ، ومن لم يستطع الدفاع عن نفسه إلا بالاضرار
بغيره ، فلا إثم عليه في ذلك .

سابعاً - الضرورات تقدر بقدرها ويتفرع عن ذلك أنه ليس للمضطر أن
يتناول من المحرم إلا بقدر ما يسد الرمق ، وأحكام الرخص تبطل إذا زال سببها .

وفيما يلي بيان المبادئ الخاصة برفع الحرج لقوله تعالى : « ما جعل عليكم
في الدين من حرج » ويتفرع عن ذلك :

١ - المشقة تجلب التيسير، ومن فروعها جميع الرخص التي شرعها الله تعالى ترفيها وتخفيفاً عن المكلف، لسبب من الأسباب التي تقتضي هذا التخفيف وهي سبعة:

أ - السفر - ومن أجله أبيح الفطر في رمضان وقصر الصلاة.

ب - المرض - ومن أجله أبيح التيمم والصلاة من قعود.

ج - الإكراه - ومن أجله أبيح للمكره التلفظ بكلمة الكفر، وترك الواجب وأكل الميتة.

د - النسيان - ومن أجله لم يبطل صوم من أكل ناسياً في نهار رمضان، ولم تحرم ذبيحة من ترك التسمية ناسياً.

هـ - الجهل - ومن أجله جازرة المبيع لمن جهل العيب، وجازفسخ الزواج لمثل ذلك.

و - عموم البلوى - ومن أجله عفى عن طين الشارع والدهون المجهولة في الصابون، ورشاش النجاسات.

ز - النقص - ومن أجله رفع التكليف عن الطفل والمجنون، ورفع لعرض الواجبات عن الأرقاء والنساء.

٢ - الحرج شرعاً مرفوع - ومن فروعه الاكتفاء بغلبة الظن في استقبال القبلة، وفي طهارة الماء والمكان وفي القضاء والشهادات، ومن فروعه ما قرره من أنه إذا ضاق الأمر اتسع.

٣ - الحاجة تنزل منزلة الضرورة - في إباحة المحظورات، ومن فروعه بيع الوفاء، وبيع السلم، وكل ما يحدث في العقود والمعاملات التي توجبها الضرورة، وتحدث بين الناس في العادة.

القاعدة الثانية فيما هو حق الله وفيما هو حق العبد، فإن الله حقوقاً كالعبادات المحضة، والعبادات التي يتقرب بها المرء إلى الله، كالصدقة على المساكين وكالزكاة، وما يقسم من غنيمة الجهاد، وأنواع العقوبات الكاملة،

والكفارات وعقوبات الحرمان ، كحرمان القاتل من الارث . وأما حقوق العباد فمشاها تضمين ما أتلّف من المال ، والقصاص ، وهناك حقوق مشتركة بين الله والعبد ، كحد القذف ، وهذا تترتب عليه أمور في الفقه .

القاعد الثالثة فيما يجوز الاجتهاد فيه : إذ لا مجال للاجتهاد فيما فيه نص صريح قطعي ، فإذا كانت الواقعة لا يوجد نص على حکمتها أصلاً ، ففيها مجال متسع للاجتهاد أيضاً .

القاعدة الرابعة في نسخ الحكم لا يجوز القول بنسخ حكم شرعي في القرآن أو السنة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . أما في حياته فقد ورد نسخ بعض الأحكام ، بشكل كلي أو جزئي .

القاعدة الخامسة في التعارض والترجيح إذا تعارض النصان ظاهراً ، وجب الاجتهاد في التوفيق بينهما فإن لم يمكن وجب الاجتهاد وترجيح أحدهما ، فإن لم يمكن هذا ولا ذاك كان اللاحق منهما ناسخاً للسابق ، وإن لم يعلم تاريخ ورودهما توقف المجتهد عن العمل بهما .
والله ولي التوفيق .